أنور الجندي

سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية

دار الجيل
بيروت

مكتبة التراث الإسلامي
القاهرة

سموم الاستشراق والمستشرقين

تأليف
أنور الجندي

دار الجيل
بيروت

مكتبة التراث الإسلامي
القاهرة

الطبعة الثانية
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

سموم الاستشراق والمستشرقين

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

(وان هــذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) •

[الانعام]

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

أخطـار المراجـع الزائفـة

والمصـادر المسـمومة

إن أخطر ما يواجه الباحث المسلم فى مجال الأدب والتاريخ والثقافة : تعدد المراجع ذات المصادر المختلفة من عربية أصيلة أو غربية وافدة ، سواء أكانت مستقاة من المصادر المنحرفة أو أجنبية أساسا ، وهو ازاء حاجته الى اعداد بحثه يسأل عن المراجع فيجد أقربها إلى يده تلك المراجع الغامضة الهوية ، فلا يعرف ما اذا كانت سليمة وموثقة وصالحة لأن تكون مرجعا للبحث أم لا ؟ واذا صلحت للبحث فهل هى توصل الى الحقيقة ، وهل تمثل جوهر المفاهيم الإسلامية الأصيلة ؟ ذلك أن هناك محاذير عديدة فى هذا المجال ، هى أن قوى غربية ومتعددة ، حاولت من وقت بعيد مراجعة التراث الإسلامى بقصـد واضح وهـدف مدبر • فعملت على ابراز جوانب منه والاغضاء عن جوانب ، وعلى ضوء هذا الهدف المسموم المدبر الذى يرمى الى ابراز جوانب الضعف والاغضاء عن جوانب القوة ، كتبت الموسوعات الأوربية فى الشرق والغرب عن الإسلام ، فادخلت أشياء كثيرة من الشبهات والروايات الضعيفة ، وحرفت جوانب أخرى من النصوص ، وقد جرى هذا كله من اجل اقرار أشياء خطيرة من أهمها :

اولا : القول بان فلسطين كانت فيها لليهود آثار وتاريخ وحضارة ، وذلك لتأييد الدعوى الباطلة التى حمل لواءها (هرتزل) ومن جاء بعده من دعاة الصهيونية ، وهو خطأ محض •

ثانيا : القول بان العرب كانوا يعيشون فى مرحلة (الانحطاط) ، حتى

جاءت الحملة الفرنسية وجـاء الغربيون فكانوا هم ، وكانت مؤسساتهم التبشيرية وارسالياتهم ، هى مصـدر اليقظة ، وهو افتراء محض .

ثالثا : ان العرب عاشوا فى ظلال الاحتلال اليونانى والرومانى سنوات طويلة ، وقالوا للمصريين انهم احتلوا من قبل العرب ، كما أججوا الخلاف بين الفرس والترك ، وبين العرب والترك ، وبين البربر والعرب ، وأثاروا النزعات القديمة وبعثوا الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية ، لتمزيق وحدة العرب وجماعة المسلمين.

رابعا : الدعوى بأن الفكر الاسلامى يستمد بعض مقوماته من الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى ، حتى النثر الفنى والنحو والبلاغة ، حاولوا نسبتها الى الفرس واليونان وهو زيف القول .

خامسا : إثارة الشبهات حول البطولات الإسلامية ، واذاعة اتهامات الشعوبية الباطنية وخصوم الإسلام حول هـذه البطولات وحول المواقف التاريخية ، وليس هذا صحيحا على اطلاقه .

هذه بعض المادة التى أوردها الغربيون فى دوائر معارفهم وفى أبحاثهم العديدة ، التى نشروها باللغات المختلفة (والتى ترجم منها الى اللغة العربية عدد كبير) ،وكانت مقدمة لعملية الغزو الفكرى والسياسى للعالم الإسلامى ، ثم كان توجيه المدارس والجامعات والمعـاهد ذات الولاء الاستعمارى والإرساليات الى هذه الجوانب ، ومن ثم تضمنتها مناهج المدارس الوطنية التى نقلت مناهجها من معاهد الإرساليات ، وكان يشرف عليها خبراء أجانب هم فى الأصل قسس وعلماء لاهوت ، ومن ثم تضمنتها مناهج الأدب والتاريخ والفلسفة واللغة .

ثم عرضت الدراسات الحديثة خالية من أثر الإسلام فيها ، منكرة هذا الأثر الواضح فى دراسات القانون والعلوم التجريبية والنفس والأخلاق والتربية والاقتصاد والسياسة ، فأصبحت هذه العلوم تدرس على أنها

نتاج أوربى خالص • فى حين تكشف الحقيقة العلمية عن دور ضخم للفكر الإسلامى فى هذه المجالات كلها •

وقد عجز المتصدرون للثقافة الإسلامية أن يجعلوا لهـــذه المناهج مقدمات تفضح زيف التغريب والاستشراق ، وتقدم الحقائق الدامغة الدالة على مكان العرب والمسلمين ودورهم فى بنـــاء الفكر الانسانى فى مختلف مجالاته ، فضلا عن تقدير ما أهداه الإسلام للبشرية من ثمار جلى تتمثل فى (مذهب المعرفة الإنسانى) ، فى الفكر ، ومذهب (المنهج العلمى التجريبى) فى العلوم ، ثم جاءت مناهج المدارس الوطنية فى ظل النفوذ الاستعمارى ، فأخذت مناهج المدارس الأجنبية فلم تجر فيهـــا تعديلا كبيرا ، ثم كانت الجامعات وقد تولاها أساتذة يؤمنون بوطنهم ، ولكن دراساتهم فى مدارس الغرب قد أعجزتهم عن مطاولة أبعاد الفكر الإسلامى وأثره فى الحضارة الحديثة والفكر الانسانى المعاصر •

بل ان بعضهم قد تشكل نفسيا وفكريا تحت تاثير ظروف مختلفة تحط من قدر العرب والإسلام واللغة العربية جميعا مع إعلاء الآداب الغربية والبطولات الغربية ، وذلك نتيجة لمـــا لقنوا من مراجع الأجانب وتحت تأثير الأساتذة الأجانب •

غير أن هذه الغفلة لم تستمر طويلا ، فقد كشفت زيفها حركة « اليقظة الإسلامية » ، وبدأ ضوء الحق ينفذ الى الفكر من جديد ، ومن أسف أنه جاء هذه المرة من بعض المنصفين من الغرب من أمثال جوستاف لوبون ، وتوماس كاريل ، وتوماس أرنولد ، وغيرهم كثيرون ، ثم بدا فى الفترة الأخيرة من كتابات الدكتورة سجريد هونكه : « شمس الله تشرق على الغرب » وما كشف عنه برنارد شو ، وليوبولد فابس ، وغيرهم ، من كشف عن عظمة الفكر الاسلامى ودوره الواضح فى الفكر الغربى نفسه ومدى حاجة الانسانية اليه •

ومع ذلك فان العرب والمسلمين لم يتمكنوا بعد من إعداد المصادر والمراجع ذات الأصالة التى تمكنهم من وضع هذه الحقائق بين أيدى شبابنا وطلابنا ، فمازال الأساتذة يرجعون مع الأسف الى دوائر المعارف الأجنبية التى ترجم بعضها الى اللغة العربية مع الأسف ، دون أن يحاط بتصحيح واضح أو مراجعة شاملة ، وهذا شأن من يقرأ دائرة المعارف الإسلامية أو قاموس المنجد ، ودائرة المعارف الميسرة .

وفى مجال الأدب ، نجد هناك من لازال يعتبر كتاب (الأغانى) مرجعا ، وكتاب (ألف ليلة وليلة) مصدرا ، على الرغم من محاذير الاعتماد على مثل هذا النوع من التآليف او غيرها من كتب المحاضرات ، ونحن فى حاجة دائمة الى التذكير بمصادر هذه الكتب ، ومراجعة امر الذين قاموا على كتابتها وإعدادها ، فمؤلف الأغانى رجل تصفه المصادر بالإسفاف والاضطراب ، وقد وصفت خلقه وصفا يرده عن أن يكون مصدراً أمينا ، فقد كانت صلاته بالناس قائمة على البذاءة ، وكان وسخاً قذراً جشعاً ، وكان على غير مفهوم الإسلام الصحيح ، وكان من الباطنية الذين يحقدون على الإسلام ، وله جوانب حسية تبعده عن استواء الطبيعة ، فضلا عن أن مصادره أيضا قد اتهمت .

والى ذلك فان كتاب (الأغانى) فى حدود ما أورده صاحبه فى مقدمته لا يعنى بتاريخ المجتمع الإسلامى ، ولكنه يركز على رسم صورة لأهل الغناء والسفه واللهو ، وحدهم ، وهذا يمثل جانباً واحداً من بين عدة جوانب أخرى كانت فى المجتمع ، لم يتحدث عنها صاحب الأغانى ، منها : أهل العلم ومجالس الفقه ، وجماعات الصوفية ، ومدارس الأدب ومجامع العلوم ، ومن هنا فقد كان من الظلم أن يعتمد عليه الباحثون فى رسم صورة للمجتمع الإسلامى فى عصره ، فيقال فى ضوئه : انه كان عصر شك ومجون ، اعتمادا على حياة جماعة من الماجنين من أمثال أبى نواس وبشار وغيرهم ، فى حين ينسى عشرات من أعلام الفكر والفقهاء والأئمة ، أمثال الحسن البصرى والشافعى ومالك والبخارى وغيرهم .

ويأتى بعد ذلك ، كتاب (ألف ليلة) ، وكتاب (كليلة ودمنة) ، وهما كتابان فارسيان هنديان فى الأصل ، أضيف الى الأول اضافات كثيرة مما يرويه الرواة من أساطير وأقاصيص وخرافات ، ليست فى جوهرها عمـــلا محققا ، ولا علما موثقاً فكيف يمكن أن تكون مرجعا •

الحق أن المستشرقين ودعاة التغريب هم الذين ألحوا على هذه الكتب وأولوها الاهتمام ، وأعادوا طبعها ، وأذاعوا بها ، وحرضوا أولياءهم من التغريبيين أن يتحدثوا عنها ، وأن يحرضوا الباحثين على اعتمادها مراجع ، وذلك لأنها تفسد الحقائق وترسم صورة غير صحيحة ، ولا صادقة للمجتمع الإســـلامى •

ومن المصادر التى تحتاج الى انتباه ويقظة : كتاب الإمامة والسياسة ، وقد وصفه السيد محب الدين الخطيب بأنه كتاب لقيط مجهول النسب ، وأن مؤلفه (ابن قتيبة) برىء منه ، ولم يذكر له مترجموه كتابا بهـــذا الاسم ، فضلا عن أن أسلوب القول فيه يخالف أسلوب ابن قتيبة فى كتاب المعارف ، وفى سائر كتبه ، والكتاب يشعر بأن مؤلفه كان بدمشق — وابن قتيبة لم يخرج من بغداد — إلا الى الدينور •

والمؤلف يروى عن ابن أبى ليلى ، وأبو ليلى كان قاضيا بالكوفة قبل مولد (ابن قتيبة) ، بنحو مائة وعشرين سنة ، ويذكر فتح موسى بن نصير لمراكش ، وهذه المدينة شيدها يوسف ابن تاشفين بعـــد ابن قتيبة بمائة ســـنة •

فكتاب (الإمامة والسياسة) لا يجوز لمؤلف أن يجعله من مصادره •

وكذلك كتاب (المضنون به على غير أهله) ، المنسوب الى الإمام الغزالى ، فهو مكذوب عليه ، وقد صحح ذلك السيد المرتضى الزبيدى فى شرح الإحياء (الجزء الأول ص ٤٤) ، حيث قال : اعلم أنه عزى الى الشيخ كتب منها (المضنون به على غير أهله) قال ابن السبكى : ذكر ابن

الصلاح أنه منسوب اليه ، وقال : معاذ الله أن يكون له ، وبين سبب كونه مختلقا عليه ، والأمر كما قال ، وقد اشتمل الكتاب المكذوب على الغزالى على التصريح ، بقدم العالم ونفى علم القديم بالجزيئات ، وهو ما يخالف آراء الغزالى فى صفوة كتبه •

أما كتاب (رسائل إخوان الصفا) فهو جدير بوقفة مستأنية : ذلك أن هذا الكتاب قد خدع الكثيرين ، وحاول دعاة التغريب إسباغ صورة من البطولة والكرامة على موضوعه وكاتبه ، وهم ما زالوا يرددون القول عن أهمية هذه الرسائل ، هادفين إلى تصوير الفكر الإسلامى وهو مكبل بقيود الإغريق ، وسلاسل اليونان ، وإن هذه الرسائل كانت عصارة هذا التأثير البالغ •

ومن الحق أن يقال إن : (الفكر اليونانى) ، بعد أن ترجم إلى العربية قد أحدث أثرا وهز بعض القيم ، ولكن هل استمر ذلك طويلا • وهل انهزم الفكر الإسلامى أمام الفلسفة الإغريقية كما انهزم الفكر المسيحى ومن قبله الفكر اليهودى • الحقيقة أن الفكر الإسلامى قد حطم هذه الدخائل وأعاد سيطرته مرة أخرى ، وعاد إلى الأصالة المتمثلة فى مذهب أهل السنة والجماعة •

هذا فضلا عما ارتبطت به هـذه الرسائل من تلك النظريات الفلسفية بالخصومة التى حمل لواءها أعداء الإسلام من الباطنية وبقايا المجوس لهدم الإسلام من الداخل •

ولذلك فإن أى عرض لرسائل إخوان الصفا لابد أن يكون واضحا معها ، إن جماعة إخوان الصفا الذين ظهروا فى القرن الرابع الهجـرى بالبصرة ، إنما هم جمعية سرية من الباطنية والمجوس والزنادقة الحاقدين على الإسلام واللغة العربية ، ولهم صلتهم المريبة بالحركات السرية التى كانت تعمل على تقويض المجتمع الإسلامى ، ولم يكن إخوان الصفا ،

وهم فى سبيل وضع منهجهم ، مخلصين للاسلام أو الدولة الإسلاميه ، بل كانوا على العكس من ذلك يمهدون للقضاء عليها ، ولذلك فقد عمدوا الى الفلسفة اليونانية وأخذوا يجمعون بين الآراء اليونانية ونظريات أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وفيثاغورس وغيرها ، وبين العبادات الشرعية الإسلامية فى دعوة باطلة ، تقول ان الشريعة قد دنست بالجهالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، ويصفهم (أبو حيان التوحيدى) فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) فيقول : زعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وقال: انهم كتموا أسماءهم وبثوا رسائلهم فى الوراقين ، ووهبوها للناس وحفوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة والطرق الموهمة ، وقال انها : خرافات وكتابات وتلفيقات وتلزيقات • ويقول أبو حيان : ان هذه الرسائل مبثوثة فى كل فن بلا اشباع ولا كفاية ، ينكرون البعث بالأجساد (الرسائل جـ ٣ ص ٧٨ و جـ ٤ ص ٤٠) ويفسرون الآخرة والجنة والنار ، خلافا لما تواتر عند المسلمين ويقولون : هى للنفوس الشهيرة الهائمة فيما دون فلك القمر مع إخوانها من النفوس التى جهلت ذواتها فى الحياة الدنيا ، ويفسرون الكفر والعذاب باطنيا وفلسفيا ، وتشتمل (أى الرسائل) على كثير من الآراء الخيالية ، بعضها متلقف من اليونان وبعضها وليد الأذهان • وبعضها تراث الكهان ، كأسرار الأعداد والتنجيم والفأل والزجر والسحر والعزائم والإيمان بطوالع النجوم وتأثيرها ، وموسيقى الأفلاك ونغماتها • وتشتمل كذلك على عقيدة الوحى والإمام المستور والتقية ، وفيها إعداد النفوس والعقول لدولة جديدة ، وإخطار بانتهاء الدولة العباسية وزوالها •

وبالاختصار فهى مجموعة غريبة من الحكمة والديانة والشعوذة والكهانة والسياسة ، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية ونظرياتها وأوهامها وتنهار بانهيارها وليس لها أهمية كبيرة • ولولا الاضطراب الفكرى الذى كان يسود العالم فى القرنين الرابع والخامس لما نالت هذا الاهتمام ••

وقد أكد الباحثون أن هذه الرسائل كانت محاولة لوضع نظام جديد يحل محل الشريعة الإسلامية ، وقد أخفقت هذه المحاولة إخفاقاً تاماً فلم تنتج نظاما علميا ولم تنشىء مجتمعا يقوم على أساسها ، وهى مجموعة من الآثار التاريخية العتيقة التى لا تأثير لها فى الحياة ، ولامحل لها إلا فى المتاحف والمكتبات ، ويشير كثير من الباحثين إلى الفرق بين عمل إخوان الصفا وبين عمل الفلاسفة من أمثال : ابن سينا والفـارابى فإن هـؤلاء الفلاسفة قد حرضوا على التوفيق بين الفلسفة اليونانية والإسلام فى ضوء القرآن ، أما إخوان الصفا فلم يأخذوا الإسلام أساسا ، بل خلطوا الفلسفة اليونانية بالأديان المختلفة ، ولم يلتزموا بمفاهيم الإسلام ، ولذلك جـاء مفهومهم فى (ذات الله) سبحانه وتعالى مفهوماً فاسداً . وقد وصفهم كثير من الباحثين بأن آراءهم مفككة خلطت الفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية بخرافات السحر والتنجيم ، وأسمار الغالين وحكايات كليلة ودمنة ، وقد أشار التوحيدى إلى أنه حملها إلى أبى سليمان المنطقى السجستانى وعرضها عليه فنظـر فيها أياما وتبحرها طويلا ، ثم ردها إلى وقال :

« تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجروا ، وحاموا وما وردوا وغنوا **وما أطربوا ونسجوا فهلهلوا ومشطوا ففلفلوا » ، وقد أكـد الباحثون بأن فلسفة إخوان الصفا ليست مستمدة من المصادر الإسلامية الأصيلة ، ولكنها مستمدة من فلسفات اليونان من ناحية ، وفلسفات المجوس وعبدة النيران والكواكب ، وجماع الزرادشتية والمانوية والمزدكية . وهم ينظرون إلى الأنبياء نظرة ملحدة فيرونهم كالحكماء ، وقد ادعوا أنهم إنما يريدون إعادة الوحدة إلى المسلم والنصرانى والمجوسى واليهودى والأفلاطونى والمشائى والفيثاغورى ، هم فى الأغلب يمجدون المجوسية ويجعلونها أفضل الأديان ومن هنا يبدو خطرهم وإفسادهم من حيث إن الإسلام هو الدين الخاتم ، دين التوحيد الخالص ، المحرر من الوثنيات القائم على النص الموثق .**

وهناك مصدر آخر خطير غاية الخطر هو كتاب (أنساب الأشراف) للبلاذرى فهذا الكتاب طبع منه جزء فى ألمانيا عام ١٨٨٣ ، ثم تولى أحـد

اليهود الصهيونيين طبع جزء آخر منه عام ١٩٣٦ ، طبعه فى أورشليم ، وقدم له بالعبرية ، ومن هنا جاءت شبهة هذا الكتاب المضطرب الذى اعتمد عليه بعض الباحثين أمثال طه حسين ، فى القول بأن شخصية (عبد الله بن سبأ) شخصية وهمية ، وهذا يتفق مع مخططات اليهود فى إنكاره والتهوين من شأنه ، وهو ما جرى على القول به مؤلف الفتنة الكبرى .

الفصـــل الثـــانى

تحفظـــات عـــلى :

دائرة المعـارف الإسلامية والمنجــد ، والموسوعة الميسرة ٠

إن من أخطر ما يواجه المثقفين المسلمين اليوم أن يجدوا بين أيديهم موسوعات ومؤلفات تقدم لهم الفكر الإسلامى من وجهة نظر « غربية نصرانية » تختلف اختلافاً أساسياً عن مفهوم الإسلام الأصيل ، وقد كتبت هذه الدراسات والموسوعات من خلال هدف واضح هو « تغريب » الفكر الإسلامى وتزييف مفاهيمه وإثارة الشبهات حول حقائقه ٠

يتمثل هذا فى عدد من دوائر المعارف التى نجدها بين أيدينا الآن ، فى كل المكتبات العامة وفى مكتبات الجامعات وكليات الآداب واللغة العربية ، وفى المعاهد التى يتعلم فيها أبناؤنا ، ونجد هذه الموسوعات ميسرة فى أيدى شبابنا فى كل وقت ، ومن هنـــا يكون الخطر لأن هذه الموسوعات الميسرة مسمومة فى كثير من موادها ، ولأنها تفتقر الى المفهوم الصـــحيح الذى يتمثله الإسلام فى جوهره الحقيقى ٠

لذلك فإننا يجب أن نكون على حذر شديد فى مواجهة هذه الموسوعات التى نجد الآن فى المكتبات العامة منها :

— دائرة المعارف الإسلامية ٠

— قاموس المنجـــد ٠

— الموسوعة العربية الميسرة ٠

— يقظة العرب •

— شمائل المصريين المحدثين •

هذه الموسوعات زائفة من حيث انها مقدمة بأقلام مستشرقين متعصبين ، لبعضهم صفة الولاء الكنسى ، والآخرون لهم صفة الولاء الاستعمارى والصهيونى والماركسى ، وهى قد كتبت أصلا لتقدم للشباب العربى ، الذى يعدونه للعمل فى الأقطار العربية والإسلامية ، من حيث يشكلونه على مفاهيم معارضة لحقائق الإسلام ، ليكون ذلك وسيلة لعملهم فى تشويه حقائق الإسلام وإلقاء السموم وإثارة الشبهات •

وقد غلبت عليها أهداف مضمرة وراء العرض الذى يحمل طابعاً علمياً زائفا يمكن أن يصل — مع التحليل الواضح — الى أن يكون مجموعة من الأهداف التلمودية أو المطامع الماسونية وتعاليمها المبثوثة وراء الكلمات البراقة ، والعبارات الخادعة التى تستهوى نفوس الشباب الغض ، فى مرحلة سابقة لاكتمال ثقافته الإسلامية ونموه الأخلاقى ، كما اهتمت بإبراز البدع الدخيلة على الإسلام والتوسع فيها باستفاضة كبيرة ، كأنها أصول مقررة فى حين يبرأ الإسلام منها وما جاء إلا لمحاربتها •

أولا — دائرة المعارف الاسلامية :

وضعت دائرة المعارف باللغات الأوربية فى دوائر الاستعمار والاستشراق والتبشير ، بهدف أساسى هو أن تكون مادة فى أيدى الخبراء والمبعوثين الذين ترسلهم دوائر وزارات الاستعمار الى عالم الإسلام والعروبة ، ولذلك فهى تنضح بالحقد والتعصب والشكوك والاضطراب ، وقد كتبها جهابذة التبشير والاستشراق وحملوها كل خصوماتهم وأحقادهم •

وقد لفت الباحثون المنصفون النظر الى أخطاء دائرة المعارف عندما

أراد أن يترجمها نفر من الكتاب فى الثلاثينات ، فقد تصدى لهم أكثر من باحث منصف يعارض خطتهم ويطالبهم بتصحيح تلك الأخطاء فى صلب البحث ، ولكنهم اكتفوا بالتعليق على هذه الشبهات فى الهوامش ، ففوتوا كثيرا من الحقائق على القارىء المتعجل الذى لا يعنى بالرجوع الى الهامش .

وقد أشار العلامة فريد وجدى الى ظاهرة خطيرة فى هذه الموسوعة وهى : سيطرة البدع الدخيلة فى الدين الاسلامى على مواد الموسوعة باستفاضة مثيرة ، حتى ليظن الباحث أنها من أصول الاسلام . وقد أمعن مؤلفو الدائرة فى تسجيلها وشرحها كأنها حقائق مقررة ، فى حين تسطر هذه البدع على أنها من المعارف الاسلامية . فان الاسلام يبرأ منها وهو ما جاء إلا لمحاربتها .

وأشار العلامة وجدى الى « القصد المتعمد فى الجمع بين أساطير البدع وحقائق الشريعة وقال : ان أكثر كتاب الدائرة قسس مبشرون يهمهم أن يتحيفوا الاسلام لا أن ينصفوه ، وقليل منهم من يتصف بالشجاعة العلمية فيتغلب على عناصر التعصب ، وليس كتاب الدائرة وحدهم من هذا النمط ، بل جـــل المشتغلين بالدراسات الاسلامية فى الغرب لا يتجاوزون صناعة التبشير تعرفهم من لحن القول ، ومنهم « توماس باترك هيوز » صاحب قاموس الإسلام ، وهو مرجع متداول لا تكاد تخلو منه مكتبة أوربية .

وقد قضى القس المؤلف فى وظيفته التبشيرية ببلاد الهند بين المسلمين والبرهميين والبوذيين أكثر من عشرين سنة ، وجمع ونشر معجمه هداية للموظفين الإنجليز الذين يتولون الحكم ببلاد الهند فى أواخر القرن الماضى ، ومساعدة للمبشرين بالنصرانية ممن يحاورون علماء الإسلام والباحثين فى الأديان المقـــارنة .

وأشار الباحثون الى أن أهم نواحى الخطر فى هذه الدائرة : أن ما يترجم منها لا يتعرض بالتحليل والإيضاح لـــا فيها من أخطاء وشبهات ،

وأنها تسطر البدع الدخيلة على الإسلام باستفاضة مثيرة ، وقد أمعن مؤلفو الدائرة فى تسجيلها وشرحها وكأنها أصول مقررة لا بدعا دخيلة •

ومن المصادر التى اعتمدتها دائرة المعارف : كتاب شمائل المصريين الذى كتبه المستشرق إدوارد وليم لين عام ١٨٣٥ عن المصريين ، وقد أصبح هذا الكتاب أحد المراجع الهامة لمؤلفى دائرة المعارف ، ينقلون عنه الخرافات وكأنها حقائق •

وقال أحمد أمين : إن نظرة المستشرقين فى دائرة المعارف هى نظرة خاصـــة تختلف عن النظرة التى ينظرها المسلمون ، وبعضهم كان متعصبا يمزج تعصبه ببحث كما فعل الأب لامنس فى بعض ما كتب •

وقال العلامة تقى الدين الهلالى : إن فى دائرة المعارف الإســـلامية أخطاء ودسائس ناشئة عن التعصب الأوربى وفى بركلمان مثل ذلك وأقبح •

وقـــد وجه دكتور محمد يوسف زايد النقـــد الى دائرة معـــارف البستانى فقال : إن الدائرة بشـــكلها الحاضر لم تحقق ما هـــدف اليه ناشرها ، وما ينتظره منهـــا القارىء العادى الذى لا يستطيع أن يطمئن الى دقة معلوماتها ، كما أنه لا يجـــــد فى كثـــير من موادها الترابط بين الأجزاء الذى يسبغ على المـــادة وحـــدتها ، كما أنه أيضـــاً لا يجـــد المراجع الضرورية لبحثـــه فضـــلا عن المتخصص الذى لا تروى مواد الدائرة غلته بطبيعة الحال •

ويقول السيد محمد رشيد رضـــا : إن فى هـــذه الدائرة عيوبا علمية وتاريخية ، اهمها : انها لم تكتب لتحقيق المســـائل التاريخية والعلمية لذاتها ، بل لأجل بيان آرائهم واهوائهم والإعـــلام بما سبق لهم ولعلمائهم فيها من بحث وطعن فى كتبهم ورسائلهم المتفرقة •

وكان على الذين شرعوا فى ترجمة هذا المعجم وضع حواشى لتصحيح

ما فيها من الأغلاط التاريخية والعلمية والدينية ، وبيان الحق فيما دسوه فيها من عقائدهم وآرائهم الباطلة ، وذلك منوط بالعلماء الأخصائيين .

أقول ولا أخشى — لا آثما ولا مخالفا — : إن نشر هذا المعجم باللغة العربية كما كتبه واضعوه بدون تعليق على ما فيه من الأغلاط والمطاعن ومخالفة الحقائق هو أضر من شر كتب دعاة المبشرين وصحفهم ، لأن هذه كلها لا تخدع أحدا من أعلام المسلمين بما فيها من الباطل ، أما هذا المعجم المسمى بدائرة المعارف الإسلامية المعزو أكثر ما نقل فيه الى كتب المسلمين ، فإنه يخدع أكثر القارئين له ممن يعدون من خواص المتعلمين ، لأنه يقل فيهم من يفرق بين الحق والباطل مما فيه ، ويقل فيهم من يعلم أن مؤلفى هذه الدائرة من خصوم العرب والإسلام واللغة العربية .

وقال الأستاذ : محمد كرد على : إن هذه الكتب فاتها كثير من رجال الإسلام المتقدمين والمتأخرين ، ومن هؤلاء من هم أحرياء أن يترجم لهم باطول مما ترجموا .

وإن فى بعض المقالات نزعة من التعصب كمقالات البلجيكى (لامنس) والروسى (غرا تشكوفسكى) ومقالات (هوارالوتشى) الموجزة إيجازا مخلا أليق بهـا أن تكون فهرساً من أن تنشر فى معلمة يقصد بها التقصى .

وقد فات هذه المعلمة كثير من رجال الإسلام ، ومنهم عبد الحميد الكاتب ، وأحمد بن يوسف الكاتب ، وأحمد بن يوسف (ابن الداية) ، وعمرو بن مسعدة ، وعبد القادر الجرجانى ، وعلى بن عبد العزيز وأبو عبيد القاسم ابن سلام ، وأبو هلال العسكرى ، وأبو أحمد العسكرى ، وصالح بن جناح ، وابن الحناط الكفيف ، وابن خاتمة الأندلسى ، وابن عنين ، وابن الصيرفى ، والوهرانى ، وملك اليمن المؤلف عمر بن يوسف ، وعمارة بن حمزة ، وابن طولون الصالحى وابن عبد الهادى وغيرهم .

ثانيـا : قاموس المنجـــد :

قاموس المنجد يشتمل على قاموسين : قاموس للألفاظ اللغوية وهذا ليس موضـــع المناقشة الآن وإن كان عليه لغوياً مآخــذ كثيرة ، وقاموس أطلق عليه (معجم الآداب) إعداد فردنيان توتل ، وهو القاموس الحافل بالأخطاء والشبهات ، والذى عرض له عــديد من الباحثين وكشـــفوا عن أخطائه ، وفى مقدمتهم العلامة عبـــد الله كنون الذى نشر فى مجلة دعوة الحق المغربية أكثر من عشرة فصـــول عنه تضم أكثر من أربعمائة خطــأ شائع ، تاريخى وعلمى ، وقـــد قرأت أول تخطئة للمنجـــد فى مجلة الفتح عام ١٩٢٦ و ١٩٢٧ •

وقـــد أحصى المرحوم الأستاذ عبد الستار فراج فى بحث له فى مجلة العربى للمنجد مائة خطأ تاريخى ولغوى وجغرافى من الأخطاء الصارخة : مما يجب أن يحذف أو يصحح أو يصاغ بطريقة تبرئه من الشك والإبهام •

وأشار الى أن المؤلف قـــد اعتمد على دائرة المعارف الإسلامية التى وضـــعها كبار المستشرقين وعلى كتاب التمـــدن الإسلامى لجرجى زيدان ، وعلى كتاب بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية) •

وأســـوأ ما فى القاموس مـــادة (محمد) صلى الله عليه وسلم ، وهى فى عباراتها تتضح بالتعصب والحقـــد وفســـاد المنهج والبعد عن العملية والإنصـــــاف •

يقول : محمد نبى المسلمين من بنى هاشم تزوج من خديجة ورزق منها

فاطمة ، دعا الأعراب الى الإســلام ، وانتصر على المكيين فى بدر ولكنهم غلبوه فى أحد فحاربهم فى حنين ودخل مكة ظافرا (١) .

ولا شك أن قاموس المنجــد من أخطر القواميس التى فى كل الأيدى والمحملة بالأخطاء ، وخاصة فيما تحــاول أن تدخله الى الألفاظ العربية من مصطلحات كنسية وطائفية ولاهوتية وهى ألفاظ ليست عربية أصلا ، فضلا عن أنه يفسرها تفسيراً لا يتفق مع مفاهيم الإسلام ، ويبدو من مراجعــة المنجد فى جانبيه اللغوى والتاريخى أن هناك محاولة خطيرة لإدخال تعابير واصطلاحات غير عربية ولا إسلامية ، وأغلبها كنسية ولاهوتية وفرضها على اللغــة العربية ، ومن ذلك عبارة (جــدف) وهو اصطلاح كهنوتى لم يذكره أهل اللغة ، وكلمة (قــدس) وقداس مما يورده الكهان النصارى .

وفى دراســة مستوعبة للأستاذ عبد الله كنون صــدرت تحت عنوان : « نظرة فى منجــد الآداب والعــلوم » معهد الدراسات العربية عام ١٩٧٣ يقول : « وفى نظرنا أن المسئول عن الأخطاء الكثيرة التى يحتويها هــذا المعجم هو المصادر التى اعتمد عليهــا المؤلف فهى جميعا مصــادر غير أصــيلة لأنها تتراوح بين مصادر أجنبية ومصادر محدثة » حيث اعتمــد على دائرة المعارف الإسلامية ، ومجانى الأدب ، للأب شــيخو ، وتاريخ التمدن الإسلامى لجرجى زيــدان ، وتاريخ الآداب العربية لبروكلمان ، وهــذه كلها مراجع غير موثوق بها . . » .

وها نحن أولا نرى أنه ليس من بين هــذه المصــادر مرجع أصــلى من الكتب العربية القــديمة المعتمدة فى كثير من المواد التى يشتمل عليها

---

(١) وهذا كله كلام مختلط حاقد لا صحة له تاريخيا .

المعجم ، أضـــف الى ذلك أن الترجمة من المصـــادر الأجنبية كثيراً ما يغير بها لفظ الشيء المترجم ، وخاصة اذا كان اسم محل أو شخص غريب لا علما للمترجم له فلا ينفع فى هـــذه الحالة إلا الرجوع للمصادر الأصيلة التى تورده على وجهـــه ، ولا يقال إن هـــذه هى أهم المصـــادر ، ثم مصادر لم يذكرها المؤلف ومن المحتمل أن تكون من الصنف الأصـــيل لأنه لو كان شيء منها معتمداً عنده لأشار له أو لبعضه على الأقل •

وقـــد أشار بعض الباحثين الى أن من أكبر أخطاء المنجـــد سكوته عن بعض الحقائق ، كموقفه من مسيلمة الكـــذاب حيث يقول عنه : مسيلمة من بنى حنيفة فى اليمامة عاصر محمدا — صلى الله عليه وسلم — وعرض عليه أن يشاركه النبوة فقتل فى موقعة عقرباء ، ولم يذكر أن نبوته كاذبة ، على سبيل التمويه بأنها صـــادقة ، أو ما يذكر عن جعفر بن يحيى البرمكى ويصـــفه بأنه زوج العباســـة أخت الرشيد ، وهـــذا الزواج لا حقيقة له ، إنما هو اسطورة ظهرت بعـــد مقتل البرامكة بعشرات السنين •

ثالثـــا : الموســـوعة العربيـــة الميسرة :

وجهت الى الموسوعة العربية الميسرة (التى قـــدم لها الأستاذ شفيق غربال) **انتقادات شتى ، وجملة ما قيل عنهـــا إنها دائرة معارف أجنبية (وهى فى الواقع دائرة كولومبيا) ، وقـــد ترجمت الى اللغـــة العربية دون تقـــدير للتاريخ العربى الإســـلامى وحقائقه ودون تقـــدير حاجة الباحث العربى ، فهى لا تحمل مطلقا أى وجهة نظر عربية لما تناولته من موضوعات ، وهى تتنكر أساسا للســـنة الهجرية والتاريخ الهجرى فى كل ما تورده من مواد وخاصة فيما يتعلق بعصر النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء •**

فاذا عرضنا للمواد الإســـلامية ، وجـــدناها ضعيفة جـــداً وفاترة ومدرسية الى أبعـــد حـــد ، وليس فيها من السعة والعمق ما نجـــده فى المواد التى لا حاجة للباحث العربى بهـــا ، هـــذا بالإضافة الى غلبة طابع

السيطرة الصهيونية على المواد وخاصة فيما يتعلق بفلسطين وتاريخ الأديان •

ومن المقارنة بين مادة (مسجد) ومادة (مسرح) نجد أن المسجد قد كتب عنه خمسة عشر سطراً فى حين كتب عن المسرح « ١٧٠ سطراً » أما تصويرها لمادة شريعة ومادة صلاة ومادة صوم فهو تصوير بدائى وساذج •

وتضم الموسوعة بعض المواد التى اعتمد فيها على الإسرائيليات والروايات التى تضمها الكتب غير العلمية كمادة إسرائيل وأسوأ ما فى الموسوعة أنها تحمل وجهة نظر اليهود فى مختلف المسائل ، فهى تحاول أن تفرض على الباحث العربى مفهوما خطيراً بالنسبة لفلسطين لا يتفق مع حقائق التاريخ •

ومن عجب أن باب الأديان والعقائد قد حرر تحت إشراف إبراهيم مدكور وأحمد فؤاد الأهوانى وغيرهما ، وأن ثلة من الكتاب المسلمين والعرب ذكرت أسماؤهم فى المقدمة كمحررين لفصول الموسوعة •

هذا وتتنكر الموسوعة العربية الميسرة للسنة الهجرية تنكراً تاماً فى كل ما أوردته من مواد إسلامية وخاصة فيما يتعلق بعصر النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين •

رابعا : يقظة العرب (لجورج انطونيوس) :

ويعد هذا الكتاب من الكتب الخطيرة التى يجب الحذر من الاعتماد عليها فى كتابة تاريخ العرب والإسلام الحديث وقد أشار بعض المستشرقين ودعاة التغريب بالاعتماد عليه ، فأفسدوا كثيراً من أبحاث الباحثين ، وإن المراجع لوقائع حياة جورج أنطونيوس لا يدهش من أن يكون كتابه خدمة للتيارات الغربية وتركيزا على الوقائع المشبوهة ، فهو

من مواليـــد دير القمر بلبنان ، ومن خريجي كلية فيكتوريا بالإسكندرية ، ومن رواد جامعة كمبردج ، وكان ملتحقاً بدائرة المعارف فى حكومة الاحتلال البريطانى فى فلسطين ، شأنه شأن نجيب غازورى الذى يركزون على كتابه (يقظـــة الأمة العربية) •

وقـــد غالى أنطونيوس فى تصـــوير الدور الذى لعبته الجمعية العلمية السورية ، التى أنشأها النفوذ الاستعمارى داخل الكلية السورية الإنجيلية ، والذى عـــده عاملا أساسيا فى نشوء القومية العربية ، فى حين كان الانصاف يقتضيه أن يعتبر هـــذه الجمعية السرية هى أول عامل محرك لدفع اللبنانيين الى الانتفاض على الدولة العثمانية ، والمطالبة بحـــكم خاص تحت نفوذ الدول الأجنبية وخاصـــة فرنسا ، وإن رفع لواء العرب فى هـــذا الوقت لم يكن من أجل وحـــدة العرب ، بل من أجل الانفصال عن دولة الخلافة •

وأبرز أخطائه ناشئة من تعصـــبه ضـــد السلطان عبد الحميد واتهامه بما هو منه براء ، والتنكر لموقفه من الصهيونية ومن هرتزل ، الذى هو من أشرف المواقف التى لا تغمط ولا ينبغى أن يتجاهله المؤرخ المنصف ، ومن العسير أن يطلب من مثل جورج أنطونيوس فى ثقافته وعقائده الدينية والفكرية أن ينصف الدولة العثمانية أو السلطان عبد الحميد •

ولقـــد كشفت الوثائق الكثيرة التى ظهرت فى السنوات الأخيرة من الحقائق ما يجعل الكثير مما ذهب اليه أنطونيوس زائفا وخاطئا ، وأبرز أخطائه أنه اعتبر (ناصيف اليازجى وبطرس البستانى) مبـــدأ اليقظة العربية فضـــلا عن إساءته الى عبد الرحمن الكواكبى •

من أجل هـــذا أصبح كتاب يقظة العرب من مراجع التغريب ، وعلينا أن نقرأه فى حـــذر ولا نأخـــذه على أنه من المصـــادر العلمية •

خامســا : شمائل المصريين المحــدثين (إدوار وليم لين) :

من أسوأ الكتب التى وضعت للطعن فى أخــلاق الإسلام فى المجتمع الإســلامى العربى ، والحط من قــدر حضــارتهم ومجتمعاتهم ومهمتهم الأساسية ، هــذا الكتاب الذى ألفه المستشرق (إدوارد وليم لين) وقصد به الى التقاط كل ما يتعلق بالخرافات والأساطير والعــادات وتلفيقها فى صــورة زائفة يراد بها تقــديم صــورة للمجتمع المصرى ، وهى صــورة ليس فيها شىء من الحق أو الإنصــاف وليس فيها أى قــدر من الصدق أو التحقيق العــلمى ، وكان إدوارد لين قــد قــدم الى مصر عام ١٩٢٥ للعلاج من ذات الصــدر ولدراسة آثار المصريين القدماء ، واتخــذ له منزلا فى بعض الأحياء الشعبية وادعى الإسلام وألقى على نفسه اســم (منصــور أفنــدى) ولبس ملابس الأتراك ، وبذلك أحاط نفسه بجو من الثقة مكنه من خــداع الوطنيين وتحقيق هــدفه فى تجميع خيوط وهمية نسبها الى الإسلام ، فقــد أخــذ يتصل بالطرق الصوفية وموالد الأولياء ويجمع ما يردده العامة من أحاديث الخوارق والخرافات والبدع ، ثم صنع من هــذا كله دراسة فى جزأين كبيرين شفعها بمجموعة من رســوم ريشته للأزياء والعمائر ، كانت كسباً ضخماً لدوائر الاستشراق فى أوربا ، اذ بلغ الاهتمام بهــا قــدراً كبيراً جــدا ، وتناقلتها اللغــات المختلفة واعتبرت لدى المستشرقين والمبشرين مرجعــا يعتمدون عليــه ، وقــد عنيت دائرة المعارف الإسلامية التى أنشأها متعصــبو الاستشراق بهــذا الكتــاب ، واعتبرته مرجعا تنقل منه الخرافات على أنها حقائق ، وقــد جرى هــذا المجرى الأستاذ أحمد أمين حين لبى نداء هؤلاء العتاة فى إنشــاء قاموس « للعادات والتقاليد الشعبية » ونقل كثيرا مما كتبه « لين » وجرى مجراه فكان ذلك من الأمور الخطيرة الأثر البعيدة عن التحقيق العلمى .

الفصـــل الثـــالث

تفســـير التاريخ الإســــلامى

بمقاييس مـــادية وافـــدة ؟

هناك عـــدد من المذاهب العرقية تفسر التاريخ ، بعضها يعتمد على العوامل التاريخية أو الجغرافية أو الأجناس ، وكل تفســـير من هـــذه التفاسير يعلى قيمة معينة ، ويجعلها اساســا ومصــدراً ، ويخفض من العوامل والقيم الأخرى ٠

واشهر هـــذه المذاهب « التفسير المادى للتاريخ » ، الذى يعتبر أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام ، والذى يرى أنه لا توجـــد قيم أصـــيلة أساسها الدين او الأخلاق او التقاليد ، وعيب هـــذا المذهب أنه يتجاهل جانب المعنويات الحقيقية ، والقوى الذاتية للشعوب ٠

أما تفسير الأجناس فـــيرد كل العوامل الى الدمـــاء ، والرسوس (الأعراق) وتفاعلها ٠

نماذج من تفســـير التاريخ :

١ ــ عنـــد النصرانية :

وللعـــلامة « والفرد كانتول سميث » ، نظرة جـــديرة بالاعتبار فى التفريق بين النظرة المادية والنظرة الروحية والنظرة الإسلامية فى فهم التـــاريخ ٠

وعنده أن النظرة الروحية ، فى نطاق الاعتقاد النصرانى ، مثـــلا ،

يعيش النصرانى فيها بشخصية مزدوجة ، أو عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط ، والمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق ، والواقع البشرى المطبق فى واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود . ويسير هـذان الخطان فى نفســه متجاورين أو متباعدين ، ولكن بغير اتصـال أو التقاء ، والتاريخ فى نظره هو نقطة ضـعف البشر وهبوطه وانحرافه .

٢ ـ عنـد الهندوكيـة :

وفى مفهوم الهندوكية (وهى نظرة تعتبر جـدلا روحية أيضـاً) يقول إن الرجل الهندى لا يأبه للتاريخ ولا يحس بوجوده ، لأن التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال فى عالم المـادة وعالم الحس .

والهندى مشغول دائما بعـالم الأرواح ، عـالم اللانهائية ، ومن ثم فكل شىء فى عالم الفناء المحـدود لا قيمة له عنده ، ولا وزن ، والتاريخ بالنسبة له شىء ساقط من الحساب .

٣ ـ المـادية الجـدلية :

أما فى المذاهب المادية كالماركسـية مثـلا ، فهو الإيمـان بحتمية التاريخ ، بمعنى أن كل مرحلة تؤدى الى المرحلة التالية بطريقة حتمية ، ولكن لا يؤمن إلا بهذا العالم ، المحسوس ، بل لا يؤمن فى هـذا العالم ، إلا بالمذهب الماركسى وحـده ، وكل شىء عـداه باطل ، والماركسى يتبع عجلة التاريخ ، ولكن لا يوجهها ، ولا يقيسها بأية مقابيس خارجة عنها .

تحليـل الإسـلام للتاريخ :

أما فى الفكر الاسـلامى ، فيرى « والفرد كانتول سـميث » ، وهو صادق فى هـذا الراى : أن المسلم يحس بالتاريخ إحساساً جـاداً ، إنه

يؤمن بأن الله قـد وضع نظاماً عملياً واقعياً ، يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ، يحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض فى إطاره ، ومن ثم فهو يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شـعور فردى أو جماعى بمقدار قربه أو بعـده من واقع الأرض ، لأنه قابل للتحقيق ٠

والتاريخ فى نظر المسلم : هو سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ومن ثم فكل عمـل وكل شعور ـ فردياً كان أو جماعياً ـ ذو أهمية بالغة ، لأن الحاضر نتيجة الماضى ، والمستقبل متوقف على الحاضر ٠

فالمفهوم الإسلامى واضـح الإيجابية ، فبينما غير المسـلم يضحى بنفسـه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة ، وهو حى وسامح لها بالمرور ، فهو يقف فى طريقها حتى تدوسه وتقتله ، ويكون ذلك أغلى قربان يتقـدم به الى الله ٠

فإن المسلم حين يضحى بنفسـه ، ففى حسه أن هناك نظاما إلهيا يراد أن يطبق فى واقع الأرض ، وفى حسه وهو يضحى أنه يدفع عجـلة هـذا النظام خطوة الى الأمام « أ ٠ هـ ٠ » ٠

* * *

منابع التفسـير الإسـلامى :

ومن الحق أن يقال إن الفكر الإسلامى له تفسير للتاريخ يختلف عن التفسير الغربى المـادى ، والشرقى الروحى ، على السواء ، وإن التفسير الغربى لا يصـلح لفهم التاريخ الإسلامى ٠

فالتاريخ الإسلامى لا يمكن فهمه أو تفسيره إلا على ضوء النظرة الإسلامية للحياة الإنسانية ، وكل تفسير يقوم على غير هـذا الأساس

فهو ضرب من الخطأ العلمى ، لا يجـوز أن يرتكبه باحث جاد ، أو مؤرخ يبتغى وجه الحق وحـده •

ولذلك فإن كل مؤرخ عربى يفسر التاريخ الإسلامى وفق منهجـه الغربى ، يقع فى الخطـأ ، الذى يتمثل فى بعـده عن ظاهرة أسـاسية ، هـذه الظاهرة هى وحـدة المناهج الإسلامية والفكر الإسلامى فى مختلف فروعه وتكاملها •

بينما يؤمن الفكر الغربى بتجزئة هـذه المفاهيم والفصـل بين الله والطبيعية والعـلم والدين •

أما روح الفكر الإسلامى وحضارته وتاريخه فتقوم أساسا على وحدة الكون وانسـجام قوى الطبيعة وأقسامها كما قـدرها خالقهـا ، وذلك بحسبان أن الإسلام هو النظام الوحيـد ، الذى يحقق هـذا الانسجام لأنه يجمع بين الإيمان بالروح والجسـد فى نظام الدين والسماء والأرض فى نظـام الكون ، ويسلكها فى طريق واحـد ، هو الطريق الى الله •

وإن الإسلام — والإسلام وحـده — هو الذى يجمع بين العـلم والدين ، فى وحـدة تامة غير متناقضـة ، ومن هنـا ، فإن تطبيق منهج التجزئة الغربى يحول بين الباحث وبين الوصـول الى الحقيقة ، ويجعل الأمور أمامه مضطربة غامضـة •

هـذا من ناحية الفكر الغربى • أما المفهوم المادى ، فيرى ما يرى الدكتور « تريتون » فى كتابه (الإسلام : عقيدته ومبادئه) : اذا صـح فى القول ، أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحاً فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى ، وبيـان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هـذا التفسير المادى ، يفشل فشـلا ذريعا حـين يرغب فى أن يعلل وحـدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتسـاع رقعتهم وثبات أقـدامهم ، فـلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا فى العـلة الصحيحة

لهــذه الظاهرة الفردية ليروا أنها تقــع فى هــذا الشىء الجديد : ألا وهو الإسلام • ويقول (ايان وايد غراى) :

إن نظرة المسلمين الى التاريخ نظرة بناءة ، فهم يرون أن البشرية اذا اعتقــدت تعاليم الوحى — القرآن — فإن إرادتها حينئذ تتطابق مع إرادة الله •

* * *

وحاول كتاب الماركسية تفسير التاريخ الإســلامى بمفهوم « صراع الطبقات » وفشلوا فى ذلك لأنهم — كما يقول الأستاذ محمد كســبة — لم يستوعبوا مضمون الرسالة الإسلامية •

إن الصراع الذى ثار بين المسلمين وبعضهم البعض ، والذى اتخذه الماركسيون دليلا على صــحة دعواهم ، إنما كان صراعاً ذا طابع سياسى ، ولم يكن صراعا طبقيا تغلبت بموجبه طبقة على أخرى ، أو فئة على أختها •

والخطأ الذى وقع فيه الشيوعيون أنهم نظروا الى التاريخ بنصف عين ، ذلك أنهم لم يقرءوا التاريخ الإســلامى كله ، كما أنهم لم يقرءوا التاريخ البشرى •

وكل الذى فعلوه أيهم ساروا على نهج إمامهم ماركس حين تخــير أحــداثاً بعينهــا من تاريخ البشر ، وأطلقها على التاريخ كله ، فقد كانوا يقرءون ما كان يعنيهم ، ويتفق مع أصــول نظريتهم الأولى ، فى استخراج أفكارهم وأحــكامهم وآرائهم ، فكل ما يثير انتباههم ، ويلفت أنظارهم ، هو منظر تلك الدماء التى تسيل على صــفحات التاريخ •

ولم يكن ينفذ الى أنوفهم سوى رائحــة الدم ، يسيرون وراءها ، ويدللون عليها ، ويتبعون خيوطها ، ويستخرجون منها أحــكاما ومبادىء وأفكاراً واستنتاجات يطلقونها على التاريخ كله ، مثلما فعل ماركس حين اعتمد فى استنباط نظريته عن التاريخ ، على بعض مراحل التاريخ دون الأخرى •

وهنا سقطت دعوى اختلاق الصراع الطبقى وحتميته على المجتمع الإسلامى ، ذلك أن الإسلام لم يكن أساساً ، من إفراز النظام الطبقى فى قريش ، ولم يكن الإسلام ديناً رجعياً يحفظ للظالمين والمستغلين أموالهم وامتيازاتهم ، كما أنه لم يكن مخــدراً للفقــراء والمحتاجين والمعــدمين يجعلهم فى حالة تقبل ورضــاً بفقرهم وعجزهم ، بل دعا الى العمل والحركة والسعى على الرزق ، ومجاهدة النفس والمشركين والمستغلين •

وكان بحق حركة عــدل ضد أعداء السماء والإنسان •

* * *

كذلك فإن الإسلام ما جاء نتيجة انقلاب عسكرى أو سياسى قام به مجموعة من الأفراد الذين يطلقون على أنفسهم ثواراً ، أو مجموعة من العسكر ، كما أنه ما جاء نتيجة انقــلاب مناظر فى توزيع الإنتاج وعلاقاته المتشابكة فى قريش ، وإنما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة ، وجاء الإسلام من البداية مقرراً للمساواة فى الفرص ، وضمان حق الكفاية لكل المواطنين ، وتحقيق التوازن الاقتصــادى بين الفرد والمجتمع ، وجاء بمبدأ الملكية الخاصــة والملكية العامة ، ومبدأ الاقتصاد الحر والموجه •

جاء بكل ذلك فى لجزيرة العربية ، فى وقت لم تكن ظروف الإنتــاج وعلاقاته تدعو اليه بحيث يمكن أن يقال : إن ما حــدث كان انبثاقاً من واقع اقتصــادى وتحــدى بذلك منطق الماركسيين التاريخى وحساباتهم المادية ، التى تحتم انبثاق كل انقــلاب سياسى ، أو تغيير اجتماعى من انقلاب مناظر فى نظــام الإنتــاج وعلاقاته •

وعليه فإن الصراع الذى ثار بين المسلمين يوما ما ، والذى يتخذه الماركسيون حجة ودليلا على صحة نظريتهم ، إنهم كان من أجل الحكم ، كان صراعاً سياسياً لا طبقياً ، ولا يقره الإسلام بحال من الأحوال ، فهو خارج عن منهج الإسلام وبعيد عن روحه السمحة ، ويبقى الإسلام بجوهره الأساسى الذى يشيع روح الإخاء والمصالحة بين المسلمين ، والذى يقرر فى صراحة : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار » • ويقرر : (إنَّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) [الحجرات : ١٠] •

ومن هنا فإن دعوى « صراع الطبقات » التى يحاول دعاة الماركسية اليوم وأصحاب الفكر المادى والإلحادى إلصاقه بالإسلام ، وصولاً إلى تفريغ الدين الإسلامى من محتواه الروحى ، ومضمونه العقائدى ، إنما هى محاولة لن تجدى •

هذا من ناحية ، ومن ناحية القول بأثر العامل الاقتصادى فى توجيه التاريخ الإسلامى ، يقول الدكتور حسن شحاتة سعفان :

إن عوامل التقدم فى الشرق الأوسط إذا درست فى تطورها منذ العصور الإسلامية ، نجد أن العامل الاقتصادى فى هذا التأثير وفى تطورها ، لم يكن بأكثر أهمية من غيره ، بل على العكس كانت المثاليات الدينية والأخلاقية المستقاة من الإسلام أولا ، ومن النصرانية ثانياً ، هى العامل الأول فى تشكيل النظم وتطويرها ، ثم يأتى العامل الاقتصادى كعامل ثانوى فى معظم الأحيان •

ويقول : إن نظرية ماركس فى المادية التاريخية خطأ محض ، فقد

استنتج نظريته من اســتقراء بعض وقائع الاقتصاد الاجتمــاعى للدول الغربية • ويقول : إنه ينكر الدين والعوامل الروحية فى حين هما المحرك الاكبر لهــذا التطور •

ومن خطئه الزعم بأن العوامل المادية هى العوامل التى تحدث الأثر الأكبر فى تشــكيل النظم الاجتماعية الأخرى ، من دينية وسياسية وأخلاقية وتربوية •

ويقــول : إن نظرية ماركس لا تنطبق على دول الشرق الأوســط وإن الدول الغربية إن صــح أنهــا تطورت بحيث وصــلت فى العصــور الحديثة إلى دول تقدس المــادة ، فإن ثمــة دولا بالعكس لم يطرأ عليها تطور يجعلها تضــحى بالمثاليــات الأخلاقية والدينية تحت تأثير العوامل المــادية •

* * *

ومن أخطر الشــبهات التى طرحها الماركسيون ، محاولة تصــوير عهد الرســول — صلى الله عليه وسلم — والخلفاء الراشــدين ، بأنهــا كانت بسبب الصراع بين اليمين واليســار فى الإسلام ، والاهتمام بالعامل الاقتصادى وتقديمه فى النظر إلى أحدث التــاريخ ، وعجزهم عن تعميق مفهوم التفسير الجامع للتاريخ الذى تؤثر فيه عوامل عديدة — الاقتصاد — واحد منها ولكنه ليس أهمها على التحقيق •

والإســلام له تفسيره التاريخى الذى يختلف عن التفسير المــادى للتاريخ الذى قدمه ماركس ، وأخذت به الشــيوعية ، والتفسير الدينى للتــاريخ الذى قدمه (توينبى) ، والذى يقوم على استعلاء الحضــارة

الغربية بالنصرانية ، وتفسير الأحداث وسير الأجيال فى ضوء هذه التبعية ، ومن هنا فقد وقف التفسيران من الإسلام موقفاً ظالماً .

ومن أخطاء تفسير توينبى : أنه يرى المجتمع الإسلامى حصيلة اندماج مجتمعين متمايزين فى الأصل ، هما الإيرانى والعربى ، ولو أنه قال إن الإسلام صهر كل من آمن به فى مجتمع جديد ، وإنه استصفى خير ما فى الحضارات القديمة مما يتفق مع مفهوم التوحيد ، لكان قوله قريباً من الحق .

ولا شك أن أبراز مفاهيم التفسير الإسلامى للتاريخ ، هو إقامة التوحيد والعدل والرحمة والإخاء البشرى ، وقيام المجتمع على أساس الأخلاق دون تفرقة بين العناصر والدماء ، والقضاء على صراعها والتفاخر بها .

ولقد كان من أخطاء التفسير الماركسى ، هذه التفرقة بين اليمين واليسار ، وهى تفرقة لم يعرفها الإسلام .

الإسلام دعوة وليس ثورة

ومن أخطاء التفسير المادى للتاريخ تصور الإسلام على أنه « ثورة » اجتماعية أو اقتصادية ، فى حين أنه كان الإسلام دعوة ربانية وليست بشرية ، لها صفة المنهج الجامع الإنسانى الطابع .

ولذلك كان من أخطاء (عبد الرحمن الشرقاوى) ، تصور النبى — صلى الله عليه وسلم — على أنه (رسول الحرية) ، أو أن الإسلام حركة اجتماعية ، كما حاول (طه حسين) فى كتاب الفتنة الكبرى .

لقد أغفل عبد الرحمن الشرقاوى حادثة خروج النبى — صلى الله عليه وسلم — من بيته ليلة تآمرت به قريش ، وحادثة التجائه إلى غار .

ثور ، ووضع الآية القرآنية مبتورة على ظـاهر كتابة : (قل إنمـا أنا بشر مثلكم) فقط والحقيقة أن يكملها (يُوحى إلىّ) وقصرها على كلمة : (مثلكم) إنكار للوحى ، ولا شـك أن تجريد سـيرة النبى — صلى الله عليه وسلم — من الوقائع المتواترة ، هو عمل من أعمال الغش الثقـافى ، التى يراد بهـا إيجاد فرصـة للتشكيك والارتياب ، فضـلا عن أنه لم يورد كلمة (الوحى) إطلاقا فى كتابه ، ولم يذكر أن سر انتصـار دعـوة الإسلام هو أن قوة عليا تؤيدها وتساندها .



التفسير المـادى للتاريخ

ويحاول التفسير المـادى (الاقتصادى) للتاريخ أن يصـور للناس أن ارتقاء المبادىء يسـير إلى جنب الارتقاء فى الوسـائل المـادية . بينما واقع التاريخ يبين لنـا خلاف هـذا الأمر فى بعض الأحيـان . بل فى كثير منهـا .

فإن تعلم الوسـائل المادية والمعلومات العلمية يسـير على خط غير الخط الذى تسير عليه المبادىء فى ارتقائها المزعوم .

ومصداقا لذلك نرى المبادىء البشرية تنتكس انتكاسـات فظيعة . وبعضهـا ينادى بالهمجية الأولى وسبب الانتكاسات الفظيعة فى المبادىء البشرية أن الجماعة الأولى التى تمثل المبدأ البشرى الأول عنـدما تعلن الحرب على الجماعة الثانية التى تمثل المبدأ البشرى الثانى ، تشـوه كافة أقطـار المبدأ للجمـاعة الثانية ، فى حين تسـتفيد من الوسائل المـادية والمعلومات العلمية ، بل قد تستعمل نفس الوسـائل التى حصـلت عليها فى حربها مع الجماعة الأخرى .

البتر أسفل الورقة من الأصل

ذلك أنه ليس من مهمة الإنسان أن يقوم بوضع المبادىء والنظم حتى لا يحطم البشرية ، خصوصاً وأنه لم يخلق لهذا الأمر ، ولكن من المفروض أن تظل مبادئه فى مستواها على الأقل إن لم تتقدم قليلا ، بل الأصح أن تتقدم ولو قليلا جداً ، وتستمر فى تصحيح أخطائها كلما واتتها الفرصة ، وعند مراجعة ما قامت به بعض الجهات الإقليمية ذات الهوى والغرض بكتابة تاريخ الإسلام نجد أنها وقعت فى مجموعة من الأخطاء التى يجب التنبيه عليها • وقد جمعها أحد الباحثين على هذا النحو :

أولا : خطر التوسع فى الأمور الصغيرة ذات الصفة الشخصية • فى حين تختصر الأعمال الكبرى العامة •

ثانيا : سيطرة الروح القومية على مفهوم التاريخ الإسلامى الجامع •

ثالثاً : التحدث عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كالتحدث عن نابليون وأخناتون •

رابعاً : وضع كلمة (العرب) و (العروبة) بدلا من كلمة (الإسلام والمسلمين) • وهى توحى بتكرارها أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إنما بعث للعرب وحدهم • وتجريد النبى — صلى الله عليه وسلم — من طبيعته حتى يبدو وكأنه ليس أكثر من داعية أو مصلح سياسى أو اجتماعى ، وأن رسالة الإسلام لا تعدو أن تكون حركة إصلاحية •

ولا ريب أن روح العنصرية فى كتابة التاريخ الإسلامى ، تتناقض تناقضاً تاماً مع الحقائق الأساسية ، لأن تاريخ الاسلام فى عصر الراشدين والأمويين • كان تاريخا للمسلمين كلهم • ولم [illegible] تاريخ العرب وحدهم وكان من أدوات بطولته البربر والأتراك و

خامساً : تجريد الدعوة الاســـلامية من أســـاسها الفكرى ورسالتها الأساسية ، وأعنى بها العقيدة الالهية •

سادساً : اخفاء الروح الاســـلامى التى لها أثرها التربوى فى النشء المســـلم •

سابعاً : تجريد المعـــارك الاسلامية من نفحات النبى ـــ صلى الله عليه وســـلم ـــ ومن تأييد الله ـــ تبارك وتعالى ـــ وقياسها بمقابيس مادية بحتـــة •

ثامناً : فى الهجرة ، أغفل المؤلفون جوانب رعاية الله ، وركزوا على عنصر الاختفاء ، وغفلة قريش ، وعدم رؤية أحد النبى ـــ صلى الله عليه وســـلم •

تاسعاً : فى موقعة عين جالوت تجاهل المؤلفون نداء : (واســـلاماه) •
عاشراً : عند الحديث عن معـــارضة قريش للاسلام ، ذكر أن السبب فى ذلك هو خوف قريش على مركزها التجارى وهذا تحليل ماركسى ـــ فان قريشا عرضـــت على الرسول صلى الله عليه وسلم التنازل عن كل شىء له ، على أن يتوقف عن دعوته الى توحيد الله ، ولكنه رفض ، ولقـــد كان الصراع صراع عقيدة ولم يكن الأمر اقتصادا •

حادى عشر : التركيز على المعـــارك وأهمـــال الجوانب الأخلاقية والحضارية الاسلامية ، فبدا تاريخ الاسلام وكأنه تاريخ غزوات وحروب •

ثانى عشر : حشد عدد كبير من الخلافات وتكثيفها ، وخاصـــة تلك الخلافات التى جرت بين علّى ومعاوية رضى الله عنهما ، وقـــد نتج عن هـــذا سب بعض الصحابة رضى الله عنهم دون تمحيص عـــلم ، ودون معرفة بالظروف كلها •

[illegible]ـر : تناول الحركات الانفصـــالية ، كحركة ابن طولون وابن

طغج الاخشيدى فى مصر على أنهـا حركات استقلالية ، والأولى تناول هذه الحركات على أنهـا حركات انفصالية يقف وراءها أشخاص مغامرون •

رابع عشر : يقولون : (التوسع العربى) ، وكأن الفتوحات الاسلامية توسعات استعمارية ، مع أن هناك فروقا كبيرة بين هذه وتلك •

خامس عشر : يقولون إن عمر بن الخطاب ولى عمرو بن العاص مصر مكافأة له ، فهل هكذا كان يسـوس عمر الأمور ، أم أن عمرو بن العاص كان جديراً بحـكم مصر ؟ !! •

من هـذا المنطلق ، يجب أن ننظر الى وقائع كثيرة فى تاريخ الإسلام •

الفصـــــل الرابع

اخطـــاء فى تفســـــير التاريخ الإســــلامى الحـــديث والمعاصر

حاول كتاب الغرب تقديم تفســـير مغلوط لوقائع كثيرة فى التـــاريخ الإســـلامى الحـــديث المعاصر كما عمدوا الى تصـــوير بعض الأحداث فى التاريخ الغربى المعاصر بصـــورة تتعارض مع صـــورتها الحقيقية •

أما بالنســـبة للقسم الأول : فقد حاول الغرب تصوير عصر مـــا قبل العصر الحديث بأنه عصر الانحطاط ، أو تصـــوير حركات التبشـــير فى السيطرة على بعض البلاد الإفريقية ، بأنها نوع من الكشـــف الجغرافى ، أو الادعاء بأن مكتبة الإســـكندرية حرقهـــا المسلمون ، أو محاولة الدعوة إلى توحيد الأديان •

أما بالنســـبة للقسم الثانى : فذلك فى محـــاولتهم خداع المســـلمين والعرب للدخول فى الماســـونية ، على أنهـــا حركة تحرير ، أو تصـــوير الثورة الفرنسية على أنهـــا حركة إخاء وحرية ومســـاواة حتى أعلن كمال أتاتورك نفس الشـــعار لحركته الانقلابية ضد الخلافة فى تركيا •

هذه المحاولات كلهـــا يجب أن تكون واضـــحة فى أذهان شبـــابنا المسلم ، حتى لا تخدعه كتابات بعض التغريبيين ، وبالرغم من أن هـــذه القضايا قـــد كتب عن حقيقتها كثير من كتـــاب حركة اليقظة الإسلامية ، فإن أقلام الشـــعوبية والماركسية مـــا تزال تردد هذه السموم ، وتجدد بثهـــا واذاعتها ، ومن ثم وجب إعادة التذكير بوجه الحق فيها •

١ ـ عصر الانحطـاط

وقد كان يمكن أن يطلق على ذلك العصر : عصر الضـعف والتخلف ، غير أن هـذا العصر بالرغم من تقـاصر الخطوات الحضـارية فيه • فقد حفل بنتاج ثقافى عظيم ، فثبت أن هذا العصر جمع بين عوامل الضـعف وعوامل القوة •

حاول التغريب والفكر الاسـتعمارى الغربى ، أن يصـف مرحلة القرون الثلاثة السـابقة للقرن العشرين بأنهـا عصر الانحطاط ، وهـو تعبير قاس ظالم استخدمه بعض المبشرين المتعصبين ، وكان أول من ردده فى الكتابات العربية (جرجى زيدان) •

أما وجوه الضعف فهو فى تأثر الفكر الإسـلامى بالفلسفات الهندية والفارسـية والمجوسية التى حملت مفاهيم معقدة مضطربة ، من أمثـال وحـدة الوجود والحلول والاتحـاد ، وغيرها من المذاهب التى لا تتفق مع جوهر التوحيد الإسـلامى ، والمفروض أن يحاكم الفكر الإسـلامى الى أصوله الأولى وإلى إنتاج أعلامه الرواد ، ولا يحـاكم الى إنتـاج فترة الضعف التى توقف فيها الإبداع والتجديد والاجتهاد وغلب طابع التقليد فى كثير من الأحيان •

فالفكر الإسلامى فى جوهره الأصيل مـا زال مضيئاً ايجابياً مؤثراً ، معطيا للأمم المختلفة والعصور المتعددة دفعـات التقدم والبناء والحيوية •

أمـا وجوه القوة فهى تتمثل فى عملية « التجميع » التى قـام بها المفكرون حيث ظهرت فى هذه الفترة « الموسوعات » التى جمعت الآثـار المختلفة الموزعة على عديد من فنون الأدب والفقه والاجتماع ، وهى عملية رد فعل لمـا حدث نتيجة الغزو الصليبى والتترى من حرق وتدمير آثـار الفكر العربى الاسلامى ، فقد عمـد العلماء والأدباء الى عملية التجميع

كوسيلة لمقاومة فناء الفكر الإسلامى ، وهو عمل نافع إيجـابى يدل على القوة لا على الضـعف ، وإن وجه إليـه النقد بأنه لم يحرر من وجهـة التنسيق الفنى أو التحقيق العلمى • ولكن التقدير المنصـف لاخطار هذه الفترة وظروفهـا من شأنه أن ينصف العاملين فى هـذه المرحلة ويقدر لهم هذا الجهد على اطلاقه •

٢ــ فتنة سـنة ١٨٦٠ :

تحاول كتب التاريخ الغربية وبحوث القوميات وغيرها أن تذكر فتنة سنة ١٨٦٠ على انهـا مؤامرة وقعت بين المسلمين والمارون ، اضطرت الدول الأوربية إلى التدخل لإقامة نظام خاص فى لبنان •

ومن الحق أن يقـال إن هـذا التصـور خاطىء من أساسه ، فلم يكن قبل بوادر النفوذ الأجنبى هنـاك أى خلاف من شـأنه أن يوقع بين عناصر الأمة ، فقد كان المسلمون يرعون مختلف الطوائف والاقليـات ، ويتيحون لهم حماية كافية لأداء طقوسهم ورعاية مصـالحهم •

ولكن الحقيقة الأكيدة فى فتنة سـنة ١٨٦٠ أنهـا مؤامرة دبرتهـا الدول الكبرى لعزل لبنان عن الدولة العثمانية وإعدادها كمنطلق لإتمـام عزل العالم الإسلامى والبلاد العربية وإسقاط الدولة العثمانية •

وقد أكد هذا المعنى كثير من المؤرخين المنصفين فقد احتفت فرنسـا بالموارنة وثبتت بريطانيا الدروز ، ووقفت كل دولة وراء واحدة من هـذه القوى ، وأمدتهـا بالأسـلحة وأغرتها بالطوائف الأخرى ، وأثارت بينهـا الخلافات التى أججت (فتنة ١٨٦٠) فلما وقعت الواقعة بين الموارنة والدروز

وقتل من قتل ، تدخلت فرنســا وبريطانيا باسم وقف المذابح وأرسـلت بريطانيا وحـدة مكونة من (١٢ ألف جندى) فسـارعت فرنسـا وأرسلت حملة قوامها (سـبعة آلاف جندى) وفرض على الدولة العثمانية إقـامة نظـام خاص فى لبنان يمنحه الاسـتقلال الذاتى تحت رئاسـة حـاكم نصرانى تختاره الدول الأوربية ، ويصـدق عليه السـلطان العثمانى •

وقد ثبت ذلك كله فى تقرير السـير ريتشارد وود قنصـل إنجلترا إلى ناظر الخارجية ، الذى نشرته الدولة الإنجليزية فى الكتـاب الأزرق سـنة ١٨٧٨ •

قال : « والذى يبحث بحثاً دقيقاً فى أسـباب الفتنة التى سـفكت فيها الدماء فى المشرق ، يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها ، هو منبـع السياسـة الأجنبية التى تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوى الأحقاد ، ولـو لم يكن أولئك المفسرون يحسـبون أن هـذه الفتنة تجر إلى القتل والفظـائع •

ومن هـذا القبيل واقعة « الدروز والموارنة » وواقعة الصـقالبة والبلغاريين وقد تبين أن الاعتداء إنمـا كان يبتدىء من جانب النصارى •

هذا والمعروف أنه لم تلبث البعثات التبشيرية بعد هـذا الحـادث أن هرعت الى بيروت وأقامت معاهدها وإرسالياتها فى محاولة لفرض نفـوذ ثقافى غربى على أبناء المارون •

وقد بدأت الإرسـاليات الفرنسية هذا العمل ولحقت بهـا البعثات الأمريكيـة ولم تلبث بعد قليل أن أصـبحت مصدراً خطيرا لتصـدير صحفيين وكتـاب إلى مصر ومختلف أنحاء العالم العربى ، ومما يذكر أن سركيس وصروف ونمر ومكاريوس وزيدان وفرح انطون وشـبلى شميل كانوا هم الدفعة الأولى من خريجى هـذه المعاهد ، وهم الذين تصـدروا الصحافة العربية فى مصر وسـوريا ولبنان وكانوا أصـحاب الحملة العنيفة

على الدولة العثمانية وعلى السلطان عبد الحميد ، وهم الذين مهدوا للنفوذ الاستعمارى والصهيونية ولفصل العرب عن الترك وتقسيم البلاد العربية بين الصهيونية وفرنسا وإنجلترا .

٣ـ مؤامرة الكشف الجغرافى :

أطلق الغربيون تعبير الاستكشاف على الحملات الاستعمارية والتبشيرية التى قامت بها فرنسا وإنجلترا وغيرهما فى القارة الإفريقية ، بدعوى أنها كانت مناطق مجهولة ، وأن أمثال « ولفنجستون » و « صمويل بيكر » وغيرهما إنما كانوا مكتشفين رواداً ، فى حين تؤكد الحقائق أن المؤرخين العرب قد جاسوا خلال تلك المناطق وكتبوا عنها فى مؤلفاتهم ، فقد وصل « ابن بطوطة » إلى أعالى نهر النيجر وإلى تمبكتو وسكوتو ، قبل أن يصل إليها (الرواد الأوربيون) وكان أول من أشار إليها وذلك بنحو ثلاثة قرون .

ويحاول الاستعماريون أن يرددوا هذه الشبهة وأن يفرضوها على كتب المدارس فى البلاد المستعمرة ، مدعين أنهم اكتشفوا الهند مثلا ، وكانت الهند معروفة فى القارة الأوربية فى العصور القديمة ، وذلك قبل وصول « ماركبولو » ١٢٥٤ ـ ١٣٢٤م الذى وصل إلى فارس وأفغانستان وبكين والتبت ، أو فاسكودى جاما الذى أبحر حول إفريقيا ١٤٩٧م ومنها إلى الهند يضاف إلى هذا ذلك الادعاء الذى ردده الاستعمار من أن (صمويل بيكر) هو الذى اكتشف منابع النيل الأبيض ، مع أن هذه المنابع لم تكن مجهولة فى وقت ما ، وكانت الحقيقة تفرض أن يقال إنه أول من وصف هذه الأصقاع ، أما الذين قادوه إليها فهم رجال الحملة المصرية .

والواقع أن ما وصف بأنه رحلات الكشف هذه لم يكن إلا خطة الاستعمار التى فرضتها الدول الأوربية وفى مقدمتها (إسبانيا والبرتغال)

بعد تحررها من النفوذ الإسلامى فى الأندلس فى محاولة الانتقام بتطويق عالم الإســـلام وتشويه تاريخه •

وقـــد أشار ولفنجستون فى إحدى كتاباته إلى هذا المعنى حين قال : « إن نهــاية الاكتشـــاف الجغرافى هى بداية العمل التبشـــيرى » فإن الإرساليات التبشـــيرية كانت تتحرك وراء هؤلاء الرحـــالة ، الذين كانوا فى الأصـــل دعاة ومبشرين ، وليس هذا استنتاجا وإنما هو نص من مصادر تاريخية مدعومة بالأســـانيد • يقول رولاند أوليفر فى كتابه (العـــامل التبشيرى فى شرق إفريقيا) ما يأتى بالنص :

« ولقـــد أعـــد ولفنجستون نفســـه منـــذ ســـنواته الأولى حينما كان يعمل فى جمعية التبشير اللندنية للاضطلاع بمشاغل التبشير الخاصـــة بإفريقية الاستوائية ، وبالفعل بين شـــعوب فطرية فى بلاد لم يكن قـــد سكنها الأوربيون ، وفى عـــام ١٨٤٩ كان ولفنجستون لا يزال يفكر بطبيعة الحال فى التجارة أكثر من الاستعمار ، وبما أنه كان أولا وقبل كل شىء مبشراً نصرانياً ، فلقد اختار كعضو فى هـــذه الحركة التبشيرية أن يبحث عن نهر تستطيع السفن أن تمخر فيـــه الى داخل البـــلاد ، ولقد أراد ولفنجســـتون أن يستكشف طرقاً فى إفريقيا للمبشرين لا للمـــدينة وكان ولفنجستون مبشراً قبل أن يكون رحالة ولم تكن رحلته المشهورة إلا تمهيداً للبعثات التبشيرية » •

أما فاسكودى جاما فقد لقى فى كتبنا المدرسية • اهتماما كبيرا وصور بصـــورة البطولة فى حين تكشف الحقيقة عن صورة بشعة لأعمال فاسكودى جاما وغيره من طلائع الاحتلال الأوربى والاســـتعمار ، وما قاموا به من ظلم وبطش ، وتصـــف الكتب التاريخية الموثوق بها (دى جاما) بأنه من أقسى خصوم المسلمين ، ففى رحـــلاته الى آسيا ضرب بمدافعه الثقيلة المراكب العزلاء التى تنقل الحجاج الى مكة فأحرقها ، بعد نقل أمـــوال أهلها وأمتعتهم الى أسطوله وبعـــد أن حظر على رجاله إنقـــاذ الغرقى

ومنهم النساء والرجال حتى هلكوا جميعا إلا عشرين طفلا بعث بهم (دى جاما) الى البرتغال حيث حملوا على إعتناق النصرانية .

هذه واحدة مما فعله (دى جاما) الذى تحاول كتب التاريخ المدرسية فى العالم العربى أن تصوره على أنه مكتشف عظيم ، فى حين أن (دى جاما) لم يكتشف شيئا ، وهو لم يصل فى حياته الى (كالكوتا) ولم يستبقه الحاكم الهندى لأن البرتغالى (بارتلمى دياز) كان قد بلغ رأس الرجاء الصالح قبل فاسكودى جاما بعشر سنين ، فضلا عن أن عبور المحيط من سواحل أفريقيا الشرقية الى آسيا كان معروفا من التجار العرب والهنود منذ قرون (عن الدكتور بدر الدين قاسم) .

أما هنرى الملاح البرتغالى (١٣٩٤ ــ ١٤٦٠) فإن حقده على العرب والمسلمين واضح صريح ، فقد حمل فى ريعان شبابه على مدينة (سبتة) التى انطلق منها طارق بن زياد الى الأندلس ، ثم تصدى لمدينة (طنجة) المسلمة فرد على أعقابه ، وأسس مدرسة بحرية ضمت رجالا حملوا لواء تجديد الحروب الصليبية وخوله البابا نيقولا الخامس حق الاحتلال النصرانى والاستيلاء على جميع البلاد حتى الهند .

أما الرحالة (البوكرك) فقد كتب الى ملكه يفخر بأنه ذبح جميع مسلمى مدينة جوا ، وجعلهم أكداسا فى المساجد ثم أحرقها ، وأنه أشعل النار فى سفن المسلمين ، ومع ذلك فإن هذا السفاح يذكر فى كتب التاريخ العربية على أنه فاتح منتصر .

٤ ــ مكتبة الإسكندرية :

جرت محاولة التغريب على إلصاق حريق مكتبة الإسكندرية بالمسلمين ، وجارى المستشرقين فى هذه الدعوى نفر من الكتاب فى مقدمتهم جرجى زيدان وطه حسين ، فى حين دافع عن المسلمين بعض كتاب

الغرب وفى مقدمتهم العلامة جيبون فى كتابه (سقوط الدولة الرومانية) حيث قال : إن هـذه الفرية لفقها على المسلمين « أبو الفتح العبرى » فى كتابه (مختصر الدول) وقـد ترجم الى اللغة اللاتينية منفها أهـل الغرض من الفرنجة فاذاعوها ، فاشار جيبون الى براءة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص من التآمر على حريق مكتبة الإسـكندرية ، وأثبت أن الذى حرقها إنما هم الرومان بمراكبهم الحربية فى حصارها لجيـوش كليوباترا بقيادة يوليوس قيصر •

قال جيبون : تأكد لى أنها أحرقت قبل الإسلام بمائتى عـام ، وأن أبو الفرج ابن العبرى لفق الفرية بعـد الإسلام بنحو ستمائة سـنة ، ولم يتعرض قبـل أبى الفـرج مؤرخ واحـد لذلك ، حتى إن بطريرك الإسكندرية (افتيكوس) مع توسعه فى الكلام عن استيلاء المسلمين على ثغر الإسكندرية ، لم يذكر كلمة واحـدة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخـزانة •

وكان الرحالة البغـدادى قـد زار مصر فى عهد الملك الكامل الأيوبى فنقل هـذه التهمة وقد طبعت رحلته فى أكسفورد عام ١٨٠٠ وهى محشوة بالخرافات والأكاذيب ، قال لطفى جمعة إنه كان أفاقا — يعنى ممن لا يعتد بعـلمه — نظنه ينتمى الى حلب ويسمونه (التيس الملتحى) وقد نقض هـذه الرواية (واشنطون أرفنج) و (فليـه) ، وغيرهم كما نقضـها أرنست رينان الذى قال فى خطـاب له فى المجتمع العلمى الفرنسى : إنه لا يعتقد أن (عمـرو) هو الذى أحرق خزانة الإسكندرية لأنها أحرقت قبـله بزمن طـويل •

٥ — خـدمة الماسـونية :

قامت الماسونية بدور خفى طـول فترة طويلة فى البلاد العربية قبل أن ينكشف أمرها ، وقـد اقترن تاريخ الماسونية فى البلاد العربية بتاريخ

الاستعمار فيها ، وقــد انتشرت المحافل فى مصر وسوريا ولبنان وتركزت فى فلسطين ، بهـدف إعادة بناء هيكل سليمان الذى هو الهـدف الحقيقى للماســونية •

وفى العقــد الثانى من القرن العشرين كانت شبكة المحافل الماسونية تضــم جميع مدن فلسطين وقصباتها ومنهــا القدس ويافا وغزة ، وكان رجال هــذه المحافل يتولون أعلى المناصــب فى فلسطين ، وكان المندوبون البريطانيون فى البلاد العربية « ماســون » وهم الذين يقومون بالعمل ، وكان ولسلى القائد البريطانى الذى فتــح مصر وقضى على ثورة عرابى عام ١٨٨٢ ماسونيا وقــد سجل أثر الماسونية فى نجاح خطته فقال : إنى استسهلت الصــعب وسخرت من الأهوال فى كل البلاد لأنى حيث توجهت كنت ألقى إخوانا من الماســون يرحبون بى ويساعدوننى على ما أريد ، ولست أرتاب فى نجاحى لأنى أستاذ فى الماسونية •

وقــداستطاعت الماسونية أن تســيطر على الكنيســة وبعض أتباع المسيحية ، وكان أكبر انتصاراتها اعتراف الكنيسة الكاثوليكية بها ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تنبذ كل فرد نصرانى يثبت لديها اشتراكه فى عضوية المحافل الماسونية وتسقط عنــه الإيمان المسيحى ، باعتبار أن الماسونية عقيــدة صهيونية يهودية ، والغرض منهــا محاربة الأديان ، وتطــويع المعتقــدات الأخرى للسيطرة اليهودية ، غير أنها ما لبثت أن خضعت لنفوذ الصــهيونية •

وقــد تحقق ذلك بعــد عمل متصل ، فقد استطاع اليهود فى خلال السنوات المائة الأخيرة من السيطرة على العقلية الدينية النصرانية وأمكنها تحقيق ما أطلق عليه (ظاهرة تهويد النصارى) خاصة فيما يتعلق بطبيعة القضــية الفلسطينية من الناحية الدينية ، وقــد كان توزيع الأساقفة الكاثوليك فى روما بياناً بالسماح للكاثوليك بالانضــمام للمحافل الماسونية

دليلا على استشراء النفوذ الصهيونى داخل الكنيسة وكيف بدأ تهويد العقلية النصرانية ومسخ تقليدها الدينى •

وهكذا تكشفت أهداف الماسونية التى كانت خفية فى العقود الأولى من القرن الميلادى الحاضر حين اتصل بها بعض المصلحين والمفكرين ، ظنا بأنها حركة مناهضة للاستعمار ومحققة للحرية ، وكانت هذه هى الخدعة التى استطاع بها يهود إدخال عدد كبير من المسلمين فى محافلهم •

وكان من أخطر هذا الإغراء ما حدث فى الدولة العثمانية عندما نشأ حزب الاتحاد والترقى (تركيا الفتاة) واستطاعت الماسونية ورجالها من الدونمة [1] فى سالونيك فى احتواء هذه الجماعة وإخضاعها لأهدافها ؛ وعن طريقها وبواسطة زعماء من الدونمة مثل كمال أتاتورك أمكن إسقاط السلطان عبد الحميد وإلغاء الخلافة الإسلامية وتيسير وصول اليهود الى فلسطين ، وتسليم طرابلس الغرب لأيطاليا •

٦ ــ الثورة الفرنسية :

سيطرت على الصحافة العربية والثقافة العربية فى فترة الثلاثينات من هذا القرن والى اليوم ، فكرة البطولة الخارقة التى حققتها الثورة الفرنسية ، وكان هذا من خداع الصهيونية البالغ ، فقد عدها الكثيرون من أولياء الثقافة الفرنسية والصهيونية مصدر النهضة واليقظة • فالمعروف أن الثورة الفرنسية كانت الاداة التى مكنت اليهود من الخروج من الجيتو ، وكسر قيود الكنيسة التى كانت تحول دون اتصالهم بالمجتمع ودون التزاوج منهم أو الامتزاج المؤثر فيهم ، فهى التى حققت لهم وضعا اجتماعيا مساويا لوضع النصارى ، وأزالت فكرة الدين وأحلت

---

(١) الدونمة هم أحفاد يهود اسبانيا الذين اخرجوا منها بعد الاسترداد النصرانى للاندلس وسكنوا سالونيك فى البلقان بعد التظاهر بالاسلام .

محلها فكرة الوطن ، فلم يعد يقال مسيحى ويهودى ، بل يقال فرنسى وإنجليزى .

بدأت الثورة فى فرنسا بما هيأت له الأذهان كتابات : فولتير وروسو وديدرو وسائر رجال الإنسكلوبنديا فجاءت الثورة وفى الأذهان تربة صالحة لها ، وكانت الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات فى أوربا قد قضت على الوحدة النصرانية الجامعة . وأحلت بدلا منها صراع القوميات ، وكسب اليهود من ذلك السيطرة الاقتصادية والاجتماعية فى كل قطر وأن « الحرية والإخاء والمساواة » شعار الثورة الفرنسية هى شعار الماسونية التى مهدت للثورة الفرنسية لتحقيق هدف اليهود .

٧ — الحملة الفرنسية :

هناك محاولة دائبة من جانب دعاة التغريب ، للقول بأن : الشرق الإسلامى لم يعرف « اليقظة » إلا بقدوم الحملة الفرنسية ، وهى دعوى باطلة بواقع التاريخ نفسه ، وهذه الدعوى إنما تستهدف القول بأن العالم الإسلامى لم ينهض إلا بفضل الغرب ونفوذه ، وأنه لم يستيقظ حتى أيقظه الغرب ، وهو خطأ صريح حيث لا سند تاريخياً أو علمياً له ، فإن العالم الإسلامى والأمة العربية قد استيقظا قبل الحملة الفرنسية بأمد طويل .

ومن قبل وصول الحملة الفرنسية كانت حركة العلماء فى الأزهر — بقيادة الإمام أحمد الدردير — فقد وضعت أول وثيقة لحقوق الإنسان حينما أخذت العهد المكتوب على الأمراء المماليك بألا يظلموا الرعية ولا يفرضوا عليها أى ضرائب أو قيود .

فاذا كان ذلك كذلك فإن القول بإعلاء الحملة الفرنسية ليس إلا من دعاوى المستغربين والمستعمرين ، التى ملأت الكتب المدرسية بفضل

نفوذهم ، فى حين أن جميع المراجع الصحيحة تقرر أن الحملة الفرنسية لم تكن مصـــدر نهضـــة بقدر ما كانت عامل تقويض للنهضة الأصيلة •

والأمم لا تتجـــدد من خارجها وإنما تتجدد من مصـــادر فكرها من أعماق روحهـــا •

ذلك أن الحملة الفرنسية ولدت المعاهد التبشيرية فى سواحل الشام وبيروت ، كما يقول الدكتور شكرى فيصـــل ، ومن المستحيل القول بأن الشرق كان سيظل نائماً ، لأن لهـــذا الشعب تاريخاً فى الحضارة وقدماً فى التمدن وجـــذورية عريقة ، وعندى أنه لولا الحملة الفرنسية لاستطاع الشرق العربى أن ينهض نهضـــة حقيقية والشرق له تقبل ذاتى للحضارة ، ليس مفروضاً عليه من الخارج ، ولم يعرف المسلمون الموت بل الانحدار والضـــعف فقط وقد مرت بهم كما مرت بغيرهم أدوار الخمول •

٨ ــ توحيـــد الأديان :

ارتفعت على فترات طويلة دعـــوة اتحاد الأديان أو توحيد الإسلام والنصرانية وفى عام ١٨٨٣ كان القمص إسحق تيلور يقوم بالدعاية لتوحيد الإسلام والنصرانية على قاعدة التوحيد الموجودة فى الإسلام والموجودة عند الكنيسة الإنجيلية ، وقـــد اتصـــل عن طريق صديق فارسى هـــو (فيرزابكو) بالأستاذ محمد عبده وهو فى منفاه فى دمشق ، وقـــد تجدد هـــذا الموقف مرات ومرات ، وكان هناك من يدعى خريستفو جباره الذى كان يحمل لواء هـــذه الدعوة فى مصر •

وقد هاجمه رجـــال الكنيسة وقال القمص سرجيوس : إنه أراد أن يجعل النصـــارى مسلمين ينكرون لاهوت المسيح الذى هو أساس دينهم ، والذى تتركز فيـــه كل عقائدهم ، كما أنه أراد أن يجعل المسلمون نصارى يعترفون بصـــحة الإنجيل ، الأمر الذى إذا ســـلم به المســـلمون لوجب

ألا يقبلوا كتابا آخر غير الإنجيل ، وأن يعترفوا بلاهوت المسيح ، كمـا أنه أراد أن يجعل اليهود نصارى لأنه طلب إليهم إن يعترفوا بان المسيح قـد جاء الى العالم ، ولو اعترف اليهود بمجىء المسيح لهجروا طقوسهم اليهودية وعاداتها وصـاروا نصـارى لأن المسيح هو محور نبوآتهم ، ومعنى هـذا استحالة هـذا التوحيد بين الأديان .

وهناك محاولة أخرى موضع الشـك والريبة هى محاولة البهائية التى تتظاهر بتوحيد الأديان وهى تهـدف حقيقة الى هـدم الأديان لتحل محلها النحـلة البهائيـة .

ومعنى هـذا عبر المحاولات المختلفة أن من ورائها هدفا سياسـيا استعماريا أو صهيونيا من أهـداف تلك الدعـوات العاملة على تقويض المجتمعات الإنسانية ، وليس فى مفهوم الإسلام نفسه هـذا المفهوم ، وإنما فيه تساند أتباع الكتب التى أصلها سـماوى على مقاومة الالحاد والإباحيـة ...

الفصـــل الخامس

قضـــايا مثـــارة فى ضـــوء التفســير الإســلامى للتاريخ

فى ضوء التفسير الإسلامى للتاريخ ، يجب أن ينظر المثقف المســلم الى مختلف وقائع التاريخ الإسلامى وأحــداثه ، وأن يكون حــذر من الوقوع تحت براثن النظريات الوافــدة ، سواء النظرية الغربية المادية أو النظرية الماركسية الاقتصادية ٠

وعلى المثقف المسلم أن يضــع المفهوم الإسلامى للتاريخ أمام ناظريه وهو يقرأ كتابات الغربيين عن الإسلام ، وكتابات المسلمين أنفســهم عن تاريخهــم ٠

ومنهم الإسلام واضــح : هو المفهوم الجامع بين المــادة والروح ، والقلب والعقــل ، والدنيا والآخرة ، والذى يهــدف الى إقامة المجتمــع الإسلامى والحضارة الإسلامية على هــدى من توجيهات القرآن : مجتمعا ربانياً وحضارة ربانية خالصــة ، لا تريد علواً فى الأرض ولا فســاداً ، وهناك عــدة قضايا نحاول أن نفصل فيها القول :

أولا ــ ما دار حول القرامطة والحــلاج والباطنية :

فى مقدمة هذه الشبهات : ما دار حول القرامطة والحلاج والباطنية :

فقد تعددت أبحاث فى هــذا العصر تحاول أن تصف حركة القرامطة بأنها حركة العدل الاجتماعى فى الإسلام ، أشار الى هذا الدكتور طه حسين فى مجلــة « الكــاتب المصرى » التى كـــان يصــدرها لحســاب اليهود فى أواخر الأربعينات ، وقــد أضاف اليها حركة الزنج أيضا ، وتحــدث

عن هذا الكاتب الفرنسى جارودى ــ قبل اسلامه ــ حين ربط بين نحلة القرامطة وبين العدالة الاجتماعية فى الإسلام •

وكانت الصهيونية العالمية قد عقدت (مؤتمر بلتيمور) فى الولايات المتحدة فى هذه الفترة ، من أجل (تزييف تاريخ الإسلام) وإثارة الجدل حول قضايا الشعوبية والباطنية ، وعلى أثر ذلك صدرت فى البلاد العربية عدة مؤلفات لهذا الغرض ، تصف القرامطة والزنج وحركات الانتقاض على الدولة الإسلامية ، بأنها حركات العدالة الاجتماعية •

وقد كتب كثيرون فى دحض هذه الشبهات المفتراة ، فى مقدمتهم الدكتور محمود قاسم ، الذى قال :

« إن دعوة القرامطة لم تكن تسعى فى الحقيقة الى تحقيق كرامة الإنسان وتمهد لاحترامها ، بل كانت حركة انفصالية تمت فى عصر تحلل الدولة العباسية الى دويلات ، فكانت حركة القرامطة استمراراً لثورة الزنج التى قامت قبل منتصف القرن الثالث الهجرى ، وكانت نوعاً من الأخذ بالثأر ، وقد حرص هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم ، على إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم •

أما حركة القرامطة التى قامت فى الشمال الغربى لبلاد العراق ، فقد اتخذت مراكز لها فى منطقة الكوفة وفى بعض بلاد الشام وفى سواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج العربى ، ثم استقرت آخر الأمر فى البحرين •••

فقد كانت على صلة وثيقة بالحركة الإسماعيلية فى دور الستر ، وإن اختلفت معها فى دور الظهور ، فإن العبيديين الذين تسموا باسم الفاطميين ، رأوا بعد ظهور دولتهم فى المغرب أن يستهلوا بتوجيه السياسة فى ذلك العصر بإسقاط الدولة العباسية •

ومن جانب آخر يمكن القول بأن الحـــلاج المتصوف المشهور ، كان من أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية إذ كان على صـــلة بالقرامطة ، وقـــد روى عنه أنه أقسم على ذلك فى أحـــد أحاديثه القدسية التى يزعمها لنفسه لسنة ٢٩٢ هجرية وهى السنة التى شهدت ثورة القرامطة الكبرى •

ولقد كانت حركة القرامطة حركة طائفية ، فقد أقر القرامطة شـــيوع المـــال فى مجتمعهم ، ولكن طبع العبيـــد الذى يتكون من الأسر لم يكن يتعامل على قـــدم المساواة مع الطباع الأخرى • وقـــد تظاهر أصحاب هـــذه الحركة بالتشيع والميل الى البيت العلوى ، ولكنهم سلكوا من الناحية الأخرى سلوكا ينفى ذلك اذ اعتدوا على الأماكن المقدسة وجرحوا صحابة الرسول بل الرسول نفسه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقتلوا نحـــواً من ثلاثين ألفا من الحجاج وانتزعوا الحجر الأسود من الكعبة صرفاً للناس عن الحج •

٢ ــ ثـــورة الزنـــج :

ومن ناحية أخرى فقـــد استغل دعاة التفسير المادى للتاريخ ، بعض المواقف الهدامة فى التاريخ الإسلامى ، لمحاولة وصـــفها بأنها حركة تقدمية أو ثورية ، ويولون (ثورة الزنج) نفس الاهتمام (بحركة القرامطة) • وقـــد أضفوا صـــفة البطولة على (على بن محمد) الذى تجمع المصادر على عـــدم صـــحة ما ادعاه من نسب علوى ، ويرون أنه إنما ادعى هذا النسب خـــدمة لمآربه ، وليضفى على حركته طابع الشرعية ، وقـــد بدأ حياته مشعوذاً يشتغل بالتنجيم والسحر ، وانتقل من سامرا الى البحرين ، وجعل منطقة البصرة مركز نشاطه ، فجمع حوله (الزنج) فى البصرة فى ثورة عارمة أشـــعل نارها سنة ٢٥٥ هـ وادعى خـــلال ذلك أنه المهـــدى المنتظر ، كما ادعى النبوة بعد ذلك ، وقـــد استطاع أن يخـــدع أناســـا كثيرين بهذه الدعاوى ، فأطاعوه فيما ذهب اليه وأحرقوا البصرة ، وأعملوا السيف فى أهلها واستباحوها ثلاثة أيام •

وصعد الزنج فى حركتهم نحـــو بغداد فدخلوا واسط عـــام ٢٦٤ والنعمانية فأحرقوهما ، واستمر لغطهم عشر سنوات ، وهم يحتلون منطقة شاسعة تمتد من الأهواز وواسط وتصـــل الى مشارف بغـــداد ، وقـــد شملت الحركة بتخريبها ، الزراعـــة والتجارة والمواصلات ولكن الأمـــر انتهى بأن سقطت عاصمة الزنج : « المختارة » بعد أن دافعوا عنها وبعـــد أن قتل على بن محمد •

ولا يمكن لمنصـــف ولا لمثقف أن يؤمن بأن مثل ثورة الزنج أو فئـــة القرامطة يمكن أن تمثل منهجا إســـلامياً أصيلا ، فالإســـلام لا يقر مثل هذا النوع من المؤامرات أو المظـــالم ، ولم يكن لكلاهما منهاج واضـــح للإصلاح ، ولم تقم إحداهما (منهج الإســـلام فى المجتمع) ولا فى نفوس القائمين بها ، بل وقعتا فى نفس الخطأ الـــذى قامت من أجلـــه ، إذ أقبل الزنج بعد نجاحهم المؤقت على اقتناء القصور واسترقاق النساء واستبعاد سادتهم ، وكذلك فعل القرامطة ، فقـــد خدعوا الناس عن طريق الادعـــاء بأنهم من آل البيت •

وكانت أشنع أعمالهم « الغارة على مكة » وقتل الناس وسرقة الحجر الأسود ، وكانت دعوتهم إلى (شيوع الأموال) كما أسقطوا الحدود بين الحلال والحرام ، وأحلوا زواج الأخوات وتقديس الخمر •

وكانت لهم تفسيرات باطنية للقرآن والحـــديث • وقـــد لعب اليهود وراء هذه الحركات وكانت الإسرائيليات مادة فكرهم،ويذهب بعض المؤرخين الى أن القرامطة وغيرها من الدعوات الباطنية يهودية الأصل والفروع •

٣ — رســـائل إخوان الصـــفا ودعواهم :

يتردد كثيراً بين الباحثين الحـــديث عن رسائل إخوان الصفا ، على نحـــو يوحى بأنها جـــزء من التاريخ الثقافى الإســـلامى ، وقـــد أولى

المستشرقين والمبشرين والدكتور طه حسين ، مثل هــذه الأعمال المشبوهة اهتماما ، وأعادوا طبعها ونشرها ، ودفعوا كثيرا من الباحثين المسلمين الذين يسافرون الى الغرب — على حساب بعثات التبشير والاستشراق — الى دراستها ، والى تبنى وجهة نظــرهم فيها ، واستغل ذلك لخدمة أهــواء الفكر الليبرالى والماركسى على الســواء •

والحقيقة التى كشــف عنها الباحثون المنصفون هى : فساد هــذه الدعوى وأن العلاقة بين إخــوان الصــفا والباطنية وثيقة الصــلة حتى قال المستشرق كازنوفا : (إننى على أتم الثقة من أن آراء إخوان الصفا هى برمتها آراء الإسماعيلية) ، ومحور هــذه الآراء يتصــل بوحــدة الكون (أى وحــدة الوجود وما يتصل بها من الاتحاد والحلول مما يتنافى مع مفهوم الإســلام الصحيح) •

ويعتقد (جواد زيهر) : أن رسائل إخوان الصــفا كانت الأســاس الذى بنيت عليــه معتقدات الباطنية وأن هنــاك اتفاقا بينهما فى مذهب الحلول ، وتفسير القرآن تفســيرا غير ما يدل عليه ظاهر اللفظ ، وهــو الأسلوب الباطن الذى عرف عنهم •

ويقول إخوان الصــفا فى رســائلهم : « واعلم أن للكتب الإلهيــة تنزيلات ظاهرة هى الألفاظ المعهودة المحــدثة ولكن لها تأويلات خفيــة باطنة ، وهى المعانى المفهومة والمعقولة •

وقد أفــاض الباحثون فى الكشــف عن وجهة الإســماعيلية الملقبين بالحشاشين ، فقد أتاحوا لتابعيهم كل أنــواع اللذات وأطلقوا لشهواتهم العنان وأباحوا لهم زواج الأخوات وكل من يحرم الدين الزواج بهن •

كما عكفت على تعاطى الحشيش فئة طاغية مجرمة ، تحلل المحرمــات وتحض على المسكرات وترى فى القتل عملا مشروعاً يثاب عليه فاعله •

وفى أثناء الحروب الصليبية كان لهم يد سوداء ، قاموا فى أثنائها بأفظع الأعمال الوحشية ، فأطلق عليهم الفرنجة اسم (أساسين) [١] وجعلوه لكل قاتل مجرم ، وقد قاموا بعديد من فظائع الأعمال رسمت بلون الدم الأحمر ، وقد أشار المسعودى وأبو الفداء إلى أنه بلغ من جرأة الحشاشين أنهم كانوا يخطفون الناس من الشوارع والحارات بأغرب الطرق . وقد توفى الحسن الصباح ٥١٨ هـ وظلت الزعامة قائمة فى قلعة الموت حتى ٦٥٤ نحو قرنين .

٤ — الحكومة الثيوقراطية :

من الأخطاء التى ينسبها الغربيون ظلما للتاريخ الإسلامى ، اتهامه بأنه أقام (الدولة الثيوقراطية) أو يدعو الى اقامتها ، وتعنى الدولة الثيوقراطية : الحكومة الدينية فى المجتمع الغربى .

ومن الحقائق الواضحة الأكيدة أن الإسلام لم يقم الدولة الثيوقراطية — على المفهوم الذى عرفه البابوات فى حكومتهم — فالدولة فى المفهوم الإسلامى : تجعل جميع المواطنين متساوين أمام القانون فى الحقوق والواجبات ، ولكل مواطن الحق فى ارتقاء أعلى المناصب ، وحرية العبادة فى الدولة الإسلامية مكفولة لجميع المواطنين ، والمبادىء الاجتماعية فى الدستور الأساسى توافق جميع الديانات وإن احتوى بنوداً تشجع نمو العقيدة الإسلامية دونما تمييز للمسلمين عن سواهم بمنافع خاصة .

ومفهوم الدولة الثيوقراطية (أى الدولة الدينية) لا يقوم فى العالم الإسلامى قط ، لأن الإسلام ليس عبادة وتديناً ، ولكنه أسلوب صالح

---

(١) تعتبر كلمة ASSASSIN فى اللغات الاوربية ، محرفة من كلمة خشاشين ، ولكنها استعملت للدلالة على الاغتيالات ، التى اتصف بها الاسماعيلية الباطنية فى حقبة الحروب الصليبية ، وكانت كلها اغتيالات موجهة ضد قواد المسلمين الذين وقفوا فى وجه الصليبيين أمثال نور الدين محمود وصلاح الدين ، وان فشلوا فى قتل هذين .

للحياة الكريمة تسوده الأصالة ، ويتفوق فيه الجوهر على المظهر ، والدولة الثيوقراطية — التى يتولى أمرها رجال الدين — على المعنى المتعارف عليه فى الغرب لا توجد فى الإسلام ، وشريعته السمحاء لا تقر وجود ما يسمى (رجل الدين) بل (عالم الدين) والعلمانية والثيوقراطية لا وجود لهما فى الإسلام ، حيث فى الدول الإسلامية يتساوى المواطنون أمام القانون فى الحقوق والواجبات ، وحيث حرية العبادة مكفولة لجميع المواطنين على السواء •

ومن هنا فإن ما يردده دعاة التغريب من وصف الحكومة الإسلامية بالدولة الثيوقراطية ليس صحيحا على إطلاقه حيث لا توجد فى الإسلام سلطة للكهانة •

وقد حاولت قوى التغريب إثارة شبهة القول بأن الحكومة الإسلامية كانت حكومة ثيوقراطية على النحو الذى عرفته أوربا لإلقاء الكراهية والفزع من أن يحكم الإسلام ، كما كشف علماء السنة بقوة واستفاضة عن مبدأ « الاختيار » فى إقامة إمام المسلمين لأنه لا يوجد فى الإسلام ذلك المسلك الكهنوتى الذى عرفه الغرب •

٥ — مفهوم البطولة الإسلامية :

كذلك فقد حاولت دراسات الغربيين المغرضة للتاريخ الإسلامى ، تزييف مفهوم البطولة الإسلامية ، وقد أدخلت على المسلمين فى العصر الحديث مفاهيم وافدة نحو البطولة ، أخذت تتمثل فى اقامة التماثيل ، وفى تمجيد الأفراد وإسباغ صفات القداسة ، وامتناع الخطأ عن بعض البشر ، على النحو الذى يخرج البطل من دائرة الإنسان الذى يخطىء ويصيب •

والإسلام يكرم البطولة تكريماً معنوياً بتكريم العمل الذى قدمه

البطل ونشر الفكر وإعزاز الرأى ، وهو تخليد معنوى يقوم على تقـدير الكلمة ، ولا ينصـب أبداً على تقدير الفرد لذاته أو تقديسـه ، أو وضـعه فى صـورة يبدو منها فى مجـال التقديس ، على النحو الذى عرفه الإغريق قديماً ، حين رفعوا أبطـالهم إلى مصـاف الآلهة وأنصاف الآلهة •

ونحن لا نجارى الأمم الغربية فى نظرتها فى تقديس الأبطـال ، هذه النظـرة المستمدة من تراثها الإغريقى القديم وطابعها الوثنى ، ذلك أن الإسـلام له طابعه ومفهومه لهذه القيمة الإنسـانية ، فبطولة الإسـلام بطولة فكر لا بطولة تمـاثيل وأحجار ، وليس فى الإسـلام هيـاكل تدمر ولا بعلبك ولا الأهرام •

ويقول الدكتور عبد السـلام العجيلى : « إن فن العمـارة العربية لم يتميز بالضخامة والرسوخ ، فى حين يتميز بالجمـال والدقة وخفـة الظل ، فهو لم يقصـد به أن يطاول الدهر ، وإنمـا أريد به أن يكون متعة للعين والروح ، ومعنى هـذا غلبة المعنويات على الماديات فى طـابع الفن والبطـولة » •

وحيث ينقسم العـالم إلى نظريتين فى البطولة : النظرية الفردية فى الغرب ، والنظرية الاجتماعية فى الشرق ، فإن الإسـلام يقف جامعـاً بين المفهومين رابطـاً فى دقة ويسر بين الأمرين ، فالبطل يأتى نتيجة لحـاجة المجتمع ثم هو يصـنع المجتمع والتـاريخ ، أما النبوة فشىء خـارج عن نطاق البطولة البشرية العـامة ، فهى من أمر الله تبارك وتعالى واصطفائه لخلقـه •

والبطولة فى الإسـلام تتمثل فى النبى محمد صـلى الله عليه وسلم ، فهو قد أخرجته الجزيرة العربية ، ثم أخرج هو الجزيرة العربية وغيرهـا من الظلمات إلى النور ، وغير وجـه العـالم كله ، غير قيمة ومفاهيم القيم ، وجـاء برسـالة تحمل مفهوماً جديداً لكل شىء ، فيه الفطرة والربـانية والأصـالة •

ولقد كانت البطولة العربية قبل الإسـلام : بطولة الكرم والشجاعة والنجدة ، فاحتفظ لهـا بهذه القيم ، ولكنه غير مفاهيمها حيث كان الكرم من أجل الفخر ، والشـجاعة والنجدة من أجل المباهاة . فوجه هدف الكرم والشـجاعة والنجدة جميعا إلى التماس مرضـاة الله ، ونقاها من زيف الفخر والمباهاة •

ومن هنـا فإن تكريم الأبطال فى الإسـلام يختلف عن تكريمهم فى الأمم المختلفة ، وهو تكريم للبطولة لا للبطل وللعمل لا للفرد ، ولا يحمل شيئا من ضروب الوثنية أو التجسـيم ، أو إعلاء البطل عن إنسـانيته •

وقد آمن المسلمون بأن البطولة للفكرة لا للفرد ، فعزل عمر بن الخطاب خالداً من قيادة الجيش ، هو فى أوج البطولة ، وهـو الذى لم ينهزم فى معركة وقـال كلمته التى تمثل مفهوم البطولة فى الاسـلام : خشيت أن يفتتن الناس به فأردت أن يعلموا أن الله هو الصانع •

كذلك فإن البطل المسـلم يجب أن يلتمس وجه الله وحده ولا ينسب إلى نفسـه شيئا من الفخر ، وقصة صاحب النقب وغيره فى هذا معروفة مشـهورة •

٦ ــ الفتح الإسـلامى :

حاولت كتـابات المستشرفين الغربيين عن الفتح الإسـلامى إثارة الطعن فى « عظمة الفتح الإسـلامى » وتزييف مفهوم « انتشار الإسلام » بتفسيرات مادية مضـللة ، والحقيقة أن الفتوح الإسلامية لم تكن حركة توسـعية ولا حرباً صليبية ضد المسيحية ، وإنمـا كانت رسـالة تمدينية حضارية لا تهدف الى أى لون من ألوان الاسـتغلال •

وفى هـذا المعنى يقول سامى اليافى فى كتابه (الحضارة الإنسانية بين الشرق والغرب) : إن القول بأن انتصار العرب ــ يقصد المسلمين ــ المذهل

مرده ضعف الدولة البيزنطية ، بعد أن استغرقت الحروب الفارسية مواردها . هذه مغالطة صارخة ، لأن الإمبراطور هرقل قد أنهى حرب الفرس بالنصر الباهر عام ٨ هـ (٦٢٩ م) ثم تمتع خمس سنوات من السلم الشامل قبل أن يفاجأ بالفتح الإسلامى ، وقد أعد العدة بنفسه وعين أخاه ستودور لقيادة الجيش الذى دحره المسلمون فى أجنادين ، ولا ريب أن انتشار الإسلام فى هذه المرحلة القليلة التى لم تزد على ثمانين عاما قد أدهش المؤرخين ، ولأنهم جاءوا على الأثر المعنوى والروحى والنفسى للاسلام فى البلاد التى دخلها ، فقد ذهبوا مذاهب مختلفة فى التعليل .



والواقع أن التفسير الإسلامى للتاريخ هو وحده القادر على طرح المفهوم الاصيل لهذه الظاهرة . ولقد اجمع المؤرخون على أن سرعه « انتشار الإسلام » أمر فريد عجيب على مدى التاريخ ، لأن المسلمين لم يكونوا من الكثرة العددية ولا من قوة العدة والسلاح ، ولا من حيث استيعاب الفنون العسكرية ، ولا من حيث حضارة العلم والمدنية بهذه المثابة .

غير أن التفسير الصحيح والسليم أن سرعة انتشار الإسلام : إنما ترجع إلى أنه كان أفضل نظام اجتماعى وسياسى تمخضت عنه العصور ، وأن سعادته ترجع إلى أنه وجد فى كل مكان ذهب إليه أمما استولى عليها الخمول ، ونشا فيها النهب والعسف .

فلما جاءها الإسلام لم يجد إلا حكومات مستعبدة مستأثرة متقطعة الروابط بينها وبين رعاياها ، وكان نظام رأس المال فى الإمبراطورية الرومانية مبينا على الاسترقاق ، وكانت الآداب والثقافة الاجتماعية آخذة فى الانحلال — بل كانت منحة لأنها تمجد الفحش وتكافىء على البطولة

بالفواحش — ومن ثم وجدت جماهير الأمم فى الإسلام منقذاً ومحرراً ، ذلك لأنه أقام العدل ، ولكنه لم يفرض عقيدته بل ترك الناس يدخلون فيه باختيارهم ، وقد دخلوا فى هذا الدين حين تبين لهم صدق الداعين إليه ٠

أما تلك التفسيرات التى تقول بأن قسوة الحياة المادية والاقتصادية ، هى التى دفعتهم إلى التطلع إلى ما فى البلاد التى فتحوها ، من موارد اقتصادية فإنه باطل : لأنه لو صح لاقتصر المسلمون على فتح البلاد الخصبة الغنية التى حولهم ولما ذهبت جيوشهم وقبائلهم الزاحفة إلى البلاد الفقيرة الشحيحة النائية عن مواطنهم ، ولكن الحقيقة هى أنهم كانوا يهدفون أساسا إلى نشر كلمة الله تبارك وتعالى ورسالته إلى الناس كافة وفى كل مكان ، مهما احتملوا فى سبيل ذلك من العسر والمشقة ، ولو كان لهذا التفسير المادى أى ظل من الحقيقة لأسرع الخلفاء الراشدون الأولون الموجهون لتلك الفتوح الى نقل مقار سلطانهم وحكومتهم من مكة والمدينة وصحراء الجزيرة العربية إلى غيرها من البلاد المفتوحة ٠

الفصل السادس

تحفظات على مناهج

دراسة العلوم

على طريق تأصيل المناهج المطروحة فى افق التعليم والثقافة الإسلاميين العربيين ، وتحريرها من الانحرافات والاخطاء وما يتصل بوجهات نظر الغرب إليها ، او ما وضعه كاسلوب لمواجهة تحديات مجتمعه ، أو لما تاثر به نتيجة لمفاهيمه الدينية او لغلبة الفكر الوثنى والمادى على هذه المناهج ، يتحتم علينا أن ننظر إلى مناهج دراسة العلوم .

والواقع أن منهج دراسة العلوم : فى كليات العلوم والطب وغيرها فيه نقص وفيه انحراف عن المنهج الإسلامى .

أما النقص فهو ذلك العجز الواضح عن « تأصيل المناهج » بإثبات دور المسلمين فى بناء هذه العلوم وتقديم المنهج التجريبى .

أما الانحراف فهو فى اعتبار فروض العلماء أمثال داروين ولامارك وغيرهما من العلماء : حقائق مسلماً بها وخاصة فى مسألة خلق الكون والإنسان التى لم يستطع العلم أن يصل فيها إلى شىء موثوق به .

المقدمات الأساسية :

ومن هنا فإن دراسات العلوم فى حاجة إلى مقدمات أساسية :

أولا : ان نظريات العلم هى فروض قدمها العلماء ، وهى تقبل الصواب والخطأ ، وأنها تتغير دوما ومازال تتغير كلما اكتشف العلم شيئا جديدا ، وأن الحقائق العلمية فيها قليلة جداً ، وما بقى فما زال فى دور البحث والتجربة حتى يصل فيه العلم إلى حقيقة ثابتة .

ثانيا : أن نظريات كثيرة ظهرت فى القرن التاســع عشر ، كانت دعامة من دعائم النظرية العلمية قد تجاوزتها الكشوف الجديدة وغيرت وضعها ، وخاصــة فيما يتعلق بنظرية (الجوهر الفرد) و (التطور المطلق) وغيره •

وقــد ظهرت فى الســنوات الأخيرة أبحاث علمية دقيقة كشــفت عن الأخطاء التى وقع فيها دارون ولامارك وهكسلى والتى اعتبرت فى وقت من الأوقات حقائق علمية ثابتة •

ثالثا : أن كثيراً من النظريات والفروض العلمية التى جاءت فى دائرة العلم البيولوجى ، قــد تجاوزها الفلاسفة إلى مجــالات نظرية تختلف عن منهج العلم نفســه (كالذى قــام به سبنسر) ، بل إن هنــاك وثائق تكشــفت تثبت أن بعض القوى العالمية كان لهــا أثرهــا فى تبنى بعض النظريات العلمية للتأثير بهــا فى مجال المجتمعات البشرية وهدمهــا (راجع بروتوكولات صهيون) •

رابعا : أن الخلاف بين العلم والدين فى الغرب ، كان له أثره الواضح فى الحملة على الدين بصــفة عامة ، مع أن الخلاف كان بين العلمــاء وبين تفســيرات دين الغرب نفســه ، ليس الدين بمجموعه ، فضــلا عن أن علماء الغرب لم يكونوا قــد أحاطوا تماماً بمفهوم العلم فى الإســلام • أو لم يكونوا قد اســتوعبوه فهو يختلف أختلافاً كبيراً عمــا يدينون به •

خامساً : أن العلم قــد مر بعدة مراحل : حين غالى أولا فى قدرته على فهم الحياة واستكناه أسرار الوجود ثم حين عاد فأعلن عجزه عن ذلك وحدد هدفه بأنه تفسير الظواهر ، وأن مهمته محدودة بالعالم المــادى المحسوس وحده وأن مــا سوى ذلك هو من شأن الفلسفة •

سادساً : عندما وصــل العلم إلى انفلاق الذرة حدث تحول خطير فى طريق العلم ، فقد تكشف الأمر عن حقائق مغايرة للنظرية المــادية • بل لقد قررت الحقائق العلمية الأصيلة أن العلوم الطبيعية لا تســتطيع أن تدرك

كنه الدين فى مجالاته الروحية والاجتماعية ، لأن العلوم الطبيعية مادية لا تستطيع أن تمارس غير المحسوس والملموس .

وفى نظام الكون وفى طبيعة النفس البشرية إحساسات ومشاعر لا تخضع للمحسوس ، ومن هنا يظهر خطأ خضوع المفاهيم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وغيرها من الدراسات الإنسانية لمناهج العلوم الطبيعية والتجريبية ، أو محاولة إخضاع الظواهر الاجتماعية لقوانين معينة على نمط قوانين الطبيعة فى علم الفيزياء .

سابعاً : عجز العلم عن حل كل المشاكل ، وخاصة حاجة النفس الإنسانية ، وقد كان الإنسان فى الغرب يظن أن العلم سيكشف له أسرار الكون ، ولكن العلم عجز إلا عن تفسير بعض الظواهر .

وكان الإنسان يظن أن العلم سيرد إليه الاطمئنان والسكينة ويدعم الصلة بينه وبين خالق الكون ، ولكن العلم فارق الارتباط بالحقائق الأساسية فانعزل عن الحقيقة الإلهية ، كما انفصل عن الالتزام الأخلاقى ، ومن ثم فإن تقدم العلوم أدى إلى الإلحاد وإلى انحطاط الأخلاق . وهذه مسئولية الذين فصلوا بين الروح والمادة والعلم والدين .

ثامنا : أن العلم يظل قاصرا لعدم اعترافه بعديد من الحقائق والمعانى التى أهملها العلماء اهمالا تاماً (غير المادة والشحنات الكهربائية) .

يقول ويتهد فى محاولة التقريب بين العلم والفلسفة فى كتابه (مقدمة فى الفلسفة المادية) : « إن هذه الحقائق الأخرى أعطت العالم صورته المعروفة وخلقت ما فيه من قيم ومثل ، وإن العلم بعدم اعترافه بهذه الحقائق يقف حجر عثرة فى وجه المبادىء الإنسانية والقيم الأخلاقية والمبادىء الدينية »

ويقول ويتهد : « إن خطأ العلم انه يدرس الأشياء بعد عزلها

وتجريدها من كل صـــفاتها وعلاقاتها مع الأشيـــاء الأخرى ، ومنها التفرقة بين المـــادة وصفاتها وبين الشيء ومحيطـــه ، وبين العقل والجســـم وبين الحياة والمـــادة ، هـــذا التفريق يعطى صـــورة مشوهة للعلم ، وهـــذا التفريق بين العقل والجســـم والحياة والمادة هو التجريد أو العزل اللذان يشـــوهان الحقيقة الكونية ويحـــولان دون معرفة حقيقتها ، وأن الأشـــياء الكونية مرتبطة بنفسها بعلاقات ونظم دقيقة فهى مرتبطة بماضيها وحاضرها ومستقبلها ومحيطهـــا فضلا عن ارتباطها بغيرها من الأشـــياء أن الحيـــاة والحس والعقل صـــفات من صفات العضـــوية ولا يجوز اعتبارها جوهرا مستقلا عن المـــادة مطلقا » ·

تاسعا : خطأ النظرة المـــادية فى النظر للانســـان : تلك النظرة التى تجعلـــه أقرب إلى الحيوان ،لتنكر عليه النوازع الروحية والمثل العليـــا ، وتحصره فى محيط ضـــيق لا يتعدى مطالب الجســـد ومدركات الحس ·

ومعنى هـــذا انه لا يؤمن إلا بالجـــانب المادى فى الإنسان ، وكذلك خطأ القول بالجبرية المادية التى لا تجعل للانســـان أمامها فرصـــة للاختيار والإرادة الحرة ·

عاشرا : كشف العلم أخيرا عن حقيقة خطيرة لهـــا أثرها فى تحـــول الفكر العلمى كله : فقد أثبت العلم أن كل ما كنا نتصـــوره ضدين متقابلين : (المـــادة والطاقة) ليس صحيحا ، فليس هناك طاقة ومادة ، وإنمـــا هناك طاقة مجمدة تأخذ صـــورة المادة ، ومادة مشـــعة تأخذ صورة الطـــاقة ، والانتقال من إحدى الصورتين إلى الأخرى مســـتمر ومتواصـــل ، ويخضع لقانون ثابت ، فالأصـــل الأولى للمـــادة أو للطاقة هى الإشعاع والإشعاع أحد عناصر الضـــوء فالضوء فى الأصل نقطة الابتداء فالوجود كله مشـــتق من الضـــوء · وهكذا تؤدى بنا الطرق كلهـــا إلى قيام جوهر واحدة وقوة واحـــدة ·

ويصدق على هذا قول القرآن الكريم : (الله نور السموات والارض) وهكذا تنهدم النظرية المادية التى يدرسها الطلاب فى الجامعات « على طول البلاد العربية والإسلامية وعرضها » هدما تاما وتنكشف عن خطأ نظرية الجوهر الفرد (١) .

حادى عشر : إن أخطر ما منى به الفكر العلمى الغربى هو : الانقسام والتمزق بين العقل والوجدان من حيث استقلال العلم بالطبيعة وما انتهت إليه من تطوير الحياة تطويراً جعل للآلة والتقنيات مكان الصدارة . فى حين ازور عن الجانب الآخر وأشاح عنه ، والنزعتان هما فى الحقيقة وليدتا أم واحدة ، ومن ثم وقع الايفصال تدريجيا بين العام والخاص والكل والجزء والجماعة والفرد ، ويوفق الإسلام فى نظرته إلى العلم بين العقل والإيمان والروح والعقل والقلب .

كذلك فإن الإسلام لا يعطى العقل أكثر من حقه الطبيعى ، ولا يرفعه إلى مرتبة القداسة ولا يرى أن العقل أداة مطلقة للوصول الى العلوم جميعا : وقد كشف الفلاسفة عن ذلك بوضوح حين قال (برجسون) : إن العقل ليس أداة صالحة لإدراك حقيقة الكون ، لأن نهاية مجهوده أن يقف عند ظواهر الأشياء وهو يجزىء الوجود ليتمكن من دراسته جزءاً جزءا مع أن الوجود فى حقيقته وحدة موصولة الأطراف .

ويقول (برتراند رسل) : إن التعارض بين أحكام العقل وأحكام البصيرة وهم وليس له وجود ، وإن كليهما ضرورى لوصول الإنسان إلى الحقائق .

ومن هذا كله نعرف أن (العلم) لا يستطيع أن يستقل وحده بتقديم نظرية عامة للكون والحياة وأنه يقصر عن ذلك لأن أدواته لا تمكنه من التحرك إلا فى حدود الملموس .

ثانى عشر : نظريتان سـقطتا :

(أ) نظرية ثبـات العلم •

(ب) ونظرية كمـال العلم •

يقول ول ديورانت : « أين ذهبت اليـوم قوانين نيوتن العظيم حين قلب انشتين وميكوفسكى وغيرهما الكون رأسا على عقب ، وبمذهب النسبية غير المفهوم وأين مكان نظرية عـدم فناء المـادة بقاء الطاقة فى الميتافيزيقيا المعاصرة ومـا يكتنفها من فوضى وتنـازع مما أصاب علومنا ، وهل فقدت فجأة قداستها ومـا فيها من حقائق أزلية ؟ أيمكن أن تكون قوانين الطبيعة سـوى فروض إنسـانية ، هذه الحقيقة الناصعة التى يجهلها الكثيرون : وهى أن القـواعد العلمية الحديثة ليست سـوى فروض قام الإنسـان بوضعها لتفسير الغوامض التى تحيط به من كل جانب ، وقد يكون نصيبها النجاح أو الفشـل ، وإذا أصابها النجاح فإلى أى مدى وزمن مقدر ، عندما ظهرت النظريات الجديدة التى أثبت العلم وجودها ببراهين رآها العلمـاء مقنعة ونسخت النظريات القديمة وحلت محلهـا ، فاذا بالجديدة تعجز عن تعليل بعض الظاهر !!

ويقول الكونت دى نوى ، إن القوانين العلمية قوانين نسبية للانسان الذى هو الآلة المفكرة التى تعبر عن الرابطة الموجودة بينه وبين السـبب الخارجى وهى تصـف تتابع الحـالات النفسـية التى تنتج عن هـذه القوانين بالضرورة : نسبية وذهنية ، وصـلاحها يرتبط بالإنسـان ويعتمد على تماثل الانعكاسات لدى مختلف الأشخاص لنفس المنبهات الخارجية •

ومن هنـا يتضح أن بعض التعابير كالحقيقة العلمية يجب أن تؤخذ بحدود ضـيقة وليس بالمعنى الحرفى كمـا يظن العامة ، فليست هنـاك حقيقة علمية بالمعنى المطلق •

وإذا كان العـالم فى القرن التاسـع عشر لديه الجرأة لأن يقول إن

الحالة (أ) تتبع الحــالة (ب) والحالة (د) تتبع الحــالة (ج) ، فإن العــالم فى القرن العشرين أكثر تحفظاً وأقرب إلى التواضع منه إلى الغرور ولا يجزم بشىء .

ويقول : « إن التغير لا الثبوت هو الطــابع الذى يتميز به العلــم (اليوم) وإن أبحــاث العلماء وأقوالهم تؤكد نقص العلم البشرى ، وإن هــذه النظرية الجديدة هى الصــحيحة التى تعبر عن الحقيقة والواقع ، وتســاهم بدفع العلم إلى الإمام ، بعكس النظرية القديمة التى تشــكل أكبر عقبة فى طريق ازدهار العلم وقطف ثمــاره » . وقد قرر القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنا قصور العلم (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) .

ثالث عشر : إن العلماء اســتغلوا العلم بعيداً عن قوى الروح والقلب وحكموا العقل فى القلب ، كمــا حكموا العلــم فى الدين ، فنتجت عن ذلك أخطار فاستأسدت الغرائز ، وأسرفت المطــامع ، فإذا آلة العلم تتجه نحو التدمير والتخريب والفتك والتقتيل ، حتى أصبحت القوة مقيــاس تقــدم الأمم وعظمتهــا ، ولو تدخل القلب واتجهت آلة العلم نحو البنــاء والإثمار لسمت المدنية وارتفع شــأن الإنسانية .

إن التقدم الذى وصــل إليه الإنســان بالعلم لم ينج بالإنسانية من الأهوال ولم يقض على المشــاكل العديدة التى يعانيها المجتمع .

إن العلم قد وضــع فى أيدى الإنسان قوة عظيمة إذا لم يحطها بسياج من الخلق والروح والقلب تحولت إلى قوة هدامة مدمرة ، كذلك فهم نظروا إلى الظواهر ولم ينظروا إلى صانعها وخالقها وإلى مــا وراءها .

رابع عشر : خطــأ القول بــأن العلم سيقضى على الدين أو أنهمــا لا يعيشــان معاً ، والحقيقة أن العلم لن يقضى على الدين بل إن العلــم ســوف يؤكد الدين ، فالدين أوســع إطارا من العلم ، لأنه يرسم الطريق الذى تتحرك فيه القوى كلهــا ومن بينها العلم (وذلك بمفهوم الإســلام

للدين لا بمفهوم الأديان الأخرى) فإذا تحرر العلم من روح الدين كان وبالا على الإنسانية ، إن روح العلم فى الإسلام هى فى صميمها التجرد للحق والصدق فيه • وقد وجه الإسلام المسلمين لابتغاء الحقيقة ، لا ابتغاء المنفعة • ولقد قررت الحقائق العلمية الأصيلة : أن العلوم الطبيعية لا تستطيع أن تدرك كنه الدين فى مجالاته الروحية لأن العلوم الطبيعية مادية لا تستطيع أن تمارس غير المحسوس والملموس ، وفى نظام الكون وفى طبيعة النفس البشرية إحساسات ومشاعر لا تخضع للمحسوس

ومن هنا كان خطأ إخضاع المفاهيم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وغيرها من الدراسات الإنسانية لمناهج العلوم الطبيعية والتجريبية ، ومحاولة إخضاع الظواهر الاجتماعية لقوانين معينة على نمط قوانين الطبيعة فى علم الفيزياء •

خامس عشر : ان خطوات العلم القائمة الآن تتجه كلها إلى كشف الحقائق التى ظلت « المادية » تروجها عشرات السنين ، وخاصة فكرة الحقيقة العلمية ، فقد أشار الكونت ذى نوى فى كتابه (مصير البشرية) : « أن بعض التعابير كالحقيقة العلمية مثلا يجب أن تؤخذ بحدود ضيقة وليس بالمعنى الحرفى كما يظن العامة ، فليس هناك (حقيقة علمية) بالمعنى المطلق • وأن السير نحو الحقيقة بواسطة العلم قول باطل ، فهناك فقط مجموعات من الإحساسات التى وجدنا بالتجربة أنها تتبع بعضها البعض بترتيب معين ، والتى تدعى أنها ستتوالى على نفس النمط فى فترة مستقبلية محددة ، تلك هى روح حقيقتها العلمية » •

وفى مسألة المادة والأثير يقول الأستاذ (ادنجتون) : « ليس الأثير نوعا من المادة فهو لا مادى ، ومعنى هذا أن شيئاً (ماديا) يحيل نفسه إلى (مادة) بواسطة بعض الالتواء الغامض أو دوامات ، ويصبح ذلك الذى لم يكن له (بعد) أو (ثقل) باضافة أجزاء منه بعضها إلى بعض مادة متميزة ويمكن أن توزن •

والعلم يقول الآن : « إن الجاذبية ليست إلا فرضـــا من الفروض ، وأن الأثير فضـــاء أو كالفضـــاء ، وهذه هى معركة الكهرباء والذرة : فقد أفلتت المـــادة من بين أيدى العلماء ، وأفلت من المـــادة كل شىء ثابت أو كانوا يحســـبونه مضرب المثل فى الثبوت • وقـــد تقدم العلم بالكهرباء ، والذرة ، فإذا بالمـــادة كلها كهـــارب وذرات ، وإذا بالذرات تنفلق فتنطلق شعاعاً كشـــعاع النور •

وكذلك فقد دخل الشـــك الى فرضية سبق المـــادة للفكر أو ســـبق الفكر للمـــادة •

وقد أخذ العلماء يتراجعون خطوة وراء خطوة بعد أن تخلوا عن البحث فى أولية المادة والفكر ، ثم بعد أن تخلوا عن البحث فى أولية التأثير المتبادل بينهما وانتهوا إلى الوقوف عند النشاط الإنساني •

ولاشكأن تنازلهم عن الإصرار على أن المـــادة أولا سيفقدهم المقدرة على الإصرار على أن المـــادة هى المؤثر الحاســـم فى عملية التطور ومن هذا وصـــل العلماء إلى إقتناع كامل أن الإنسان ليس من صنع المـــادة — كما تقول النظرية المـــادية — لأن المصـــنوع لا يحيط بصـــانعه والإنسان قد أحاط بكل صـــور المادة وخرج منهـــا إلى دائرة أوســـع منها هى دائرة الأثـــير •

وإذا تحولت المـــادة إلى حسبة رياضية يحتويها الفكر فإن ذلك يجعل المنطق القائل بأن المـــادة أسبق فى الوجود على الفكر فى مأزق علمى شديد التناقض مع العلم الجديد • وفى مأزق أشـــد حرجا مع مسلمات الماركسية التى قامت على أساس صحة هـــذا الافتراض ومـــا ارتبط به بعد ذلك من مصـــالح سياسية كبرى •

سادس عشر : يقول الدكتور كارل فى كتابه (تجديد الإنســـان) : إن معالمنـــا غير وافية ، فنحن نعلم كثيرا عن الشموس والمجرات ولكنـــا

عاجزون عن الملائمة بين نفوسنا والعالم الميكانيكى الذى خلقنـاه ، ولذلك يتعذر أن نعيش فى سـلام ، لقد فرقت الحضـارة منذ اليوم الأول بين المـادة والروح ، واعتمدت على المـادة ، فرق جاليلو بين خواص الأجسام الأولية كالأبعـاد والوزن وهى مما يسهل قياسـه و والخواص الثانوية كاللون والرائحة وهى ممـا لا يقاس ، حصر اتباع جاليلو همهم فى الكـم وأهملوا النوع ، أن حماستهم فى سبيل الوزن والقياس حولت الإنسـان إلى عوالم الطبيعة والرياضـة والكيمياء ، هـذا الخطأ يجب إصلاحه قبل أن يتمكن العـالم من إنقاذ الحضـارة ، لأن فى الإنسـان شيئا اكثر من الطبيعة والكيمياء ونواميسها ، كذلك فصـل ديكارت الأشـياء المـادية عن الأشياء الروحية فأصبحت مظاهر العقل بعد هـذا التفريق مما لا يمكن تفسيره • وغدا بناء الجسـم وطريقة مقـامه لوظائفه المختلفة فى نظرهم أشـد ثبوتا من الفكرة والنشـوة والحزن والجمال : هـذا الخطأ حول الحضـارة إلى الطريق الذى أفضت إلى انتصار العلم وانحطاط الإنسان • وإن منقذى العـالم يجب أن يتوافروا على دراسـة الإنسان من ناحيته الكمية والنوعية معـا •

سابع عشر : ظهرت حقائق كثيرة تشـكك فى نظرية التناقض ، التى يراها بعض المـاديين حتمية بين التطور والثبات فإن الثبات يبدو نظريـا لأول وهلة نقيض التطور والحركة ، ولكنا إذا تعمقنا وجـدنا أن للتطور أو الحركة ضوابط : هذه الضوابط بطبيعتها ثابتة •

* * *

هذه المجموعة من الحقائق يجب أن تكون بين يدى أبنائنا فى الدراسات العلمية فى الجامعات والكليـات العلمية ، لتضىء الطريق لهم أمـام شبهات النظرية المـادية التى تحـاول السيطرة على العلم التجريبى وتزاحمه ، وفى ضـوء الإسـلام نجد الحقائق الاصيلة •

المنهج العلمى فى ضوء الإسلام

العلم الحديث انمـــا هو كاشـــف لحقيقة صـــنع الله وليس منشئا لخلق من خلقـــه ، والعلم الحديث يرتكز أساسا الى القـــانون الإلهى : (لا تبديل لخلق الله) ومن هنـــا جاءت طريقة العلم الحديث فى الملاحظة والتجربة التى تتحول إلى نظرية ، فإذا مـــا ثبتت النظرية على كل الوجوه من العلماء والباحثين ، وأصبحت حقيقة يقينية فهى فى هـــذه الحالة وحدها تكشـــف عن حقيقة علمية لو بحث الباحثون لوجدوا أنهـــا حقيقة ثابتة فى العلم القرآنى ، وكل مـــا يثبت كشفه فى العلوم الحديثة إنمـــا جاء كاشفا ومقرراً لحقيقة من حقائق خلق الله قـــال بها كتاب الله صراحة أو إيماء .

والعلم الحديث أخذ هـــذه الطريقة من علمـــاء المسلمين ، وقد اعترف علماء الغرب بأنهم أخذوا طريقهم من علمـــاء العرب المسلمين ، وكـــانوا يعرفون نجاح طريقهم إلى اجتمـــاع عبادة الله والإيمـــان به مع البحث العلمى والتجارب العلمية فى فكر العالم الإسلامى واجتهاده .

فقد ارتقى المسلمون إلى درجة علمية أساسها (التجربة والملاحظة) وهى الأساس فى إرساء المناهج العلمية الحديثة ، ولم يبتدع المسلمون هذه الطريقة ولكنهم أخذوها من منهج القران فى طرح العلم القرآنى ، ومن ثم فإن منهج العلم الحديث يتفق مع العلم القرآنى . فالعالم فى بحثه إنمـــا يتجه إلى الملاحظة والفرض ، ثم التجربة والنظرية ، حتى تبلغ الوقـــائع المفسرة بهذه النظرية من الكثرة مـــا يجعلها (حقيقة يقينية) فتكون قانوناً عاما كاشفا لقانون الفطرة : أى سنن الله فى الكون ، وإذا تأيدت انطبقت على القانون الطبيعى (الفطرة) . فإذا تنافرت معها فهى لا تكون حقيقة ثابتة بل تخضع للتغيير .

ثانيا : التجربة والتجريب :

يقـــول الدكتور عبد الباسط محمد حسن فى كتابه (أصـــول البحث

الاجتماعى) : لقد كان نصيب العرب (يقصد المسلمون) فى خلق المنهج العلمى كبيرا ، فالفكر العربى فى جوهره كان فكرا تجريبيا ، تجاوز الحدود الصورية لمنطق أرسطو ، واتخذ الملاحظة والتجريب مصدرا لعلمه •

وكان هـذا الفكر التجريبى يربط بين التـأمل النظرى والممارسـة العلمية ويتجه إلى التحديد الكمى (وهذا هو التكامل) •

وقد اختلف منهج العرب عن منهج الإغريق اختلافاً بينـاً ، وهـذا هو مـا تحقق بالفعل ، فقد عارض العرب المنهج القيـاسى وخرجوا من حدوده الى حدود الملاحظة والتجربة ، ذلك لأن الأقيسـة المنطقية كمـا قال ابن خلدون أحكـام ذهنية والموجودات الخارجية متشخصة • فالتطابق بينهما غير يقينى لأن المـادة تحول دونه • اللهم إلا ما يشـهد به الحس من ذلك ، فدليله شهوده ، لا تلك البراهين المنطقية •

وقد اهتم العرب بالعلوم التى تصطنع منهج الاسـتقراء واتخذوا الملاحظة والتجربة أداة لتحصـيل المعارف العلمية واسـتعانوا بالأدوات العلمية فى القياس ليحصلوا على نتائج جديدة •

وقد عملوا فى الفلك والطبيعة والكيمياء والطب وظهرت منهم أسـماء لامعـة فى هـذه الميادين : (البيرونى ، الخـازن ، البصرى ، الحسن بن الهيثم ، جابر بن حيـان ، أبو بكر الرازى ، ابن سـينا) وقد اصطنع هؤلاء المنهج الاسـتقرائى •

قال (جابر بن حيـان) عن قيمة التجربة : « إن واجب المشتغل فى الطبيعيات والكيمياء هو العمل واجراء التجـارب • وإن المعرفة الحقيقية لا تحصل إلا بهـا » •

وحدد(الحسن بن الهيثم) أصـول المنهج الاستقرائى تحديداً دقيقاً حين قال : « نبتدىء فى البحث باستقراء الموجودات ونتصفح حال المبصرات ونتميز خواص الجزيئات » •

وكلنوا يســمون التجربة (الاعتبار) وقــد بينوا أهميتها فى دراســة الظواهر تحت ظروف مختلفة [لتجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه اســتعمال العدل ، لا اتباع الهوى ، ونتحرى فى ســائر مــا نميز، وننفذه طلب الحق لا الميل مع الآراء] •

دراسة الحالة :

وقد قاموا بإجراء التجارب على الحيوانات فتجرعت القردة الزئبق ، واختبروا آثار الأدوية عليها وســجلوا جميع ما شاهدوه تســجيلا دقيقا ، كمــا عرفوا منهج : (دراســة الحالة) فكانوا يدعون المريض إلى رواية تاريخ حياته ويسأل عن أحوله الحاضرة والظروف الاجتماعية المحيطة به •

وقد اســتعان الأوربيون بمــا نقلوه عن العرب ، وفصــل العلماء بين القيــاسى (اليونانى) والاســتقراء (العربى) ملاحظين أن الثانى هو سبيل الوصــول إلى المعرفة العلمية ، على حين أن الأول يقــوم على حقائق معروفة من قبل ، لذلك نادوا باستخدام الملاحظة والتجربة للوصول إلى الحقــائق •

وفى مقدمة من أرسى دعائم التفكير العلمى فى أوربا (روجر بيكون ١٢٩٤ م) الذى دعــا إلى استخدام الملاحظة والتجربة وفرض الفروض للوصــول الى الحقائق العلمية ، ثم حمل فرنسيس بيكون على المنهــج القياسى حملة قاسية ، ودعــا إلى استخدام التجربة التى يعتبرها المعلم الصادق والوسيلة الناجحة لفهم ظواهر الحياة • ووضع كتابه (الارجانون الجديد) ليفصــل فيه قواعد المنهج التجريبى وخطواته الذى كشف فيه عن (١) أوهام الجنس التى ترجع إلى نقص العقل الإنسانى (٢) وأوهام الكهف التى هى ضرب من الضعف العقلى ، فلكل فرد مغارته وكهفه الخاص ، (٣) وأوهام السوق وهى التى تنشأ من الاخطاء الناشئة عن التخــاطب والتعامل مع الناس (٤) وأوهام المسرح وهى التى تنشأ عما يقوله الفلاسفة والعلماء دون تمحيص •

وأوضـــح بيكون أن أصول المنهج التجريبى الصحيح هى : جمــع الحقائق وتقســيمها إلى طوائف منفصلة والمقارنة بينهــا وموازنة بعضها ببعض والتحقق من النتــائج ، وهــذا كله مســتمد مما كتب جابر وابن الهيثم وغيرهم ثم جــاء جون ستوأرت مل فصاغ المنهج التجريبى فى قالب أتــمل وحدد شروط التجربة ، ووضــع القوانين التى تمكن من صـــدق الفروض العلمية أو خطئهـا ، ثم دعا كلود برنارد إلى اســتخدام المنهج التجريبى على أوســع نطاق ، وهاجم اســتقاء الحقائق من الأدلة النقلية وحذر من الاطمئنان الى شهرة السابقين •

هذا الذى أورده الدكتور عبد البــاسط يكشــف بوضوح الخلفية الأصيلة وراء (مناهج العلوم) التى يزدهى بهــا الغرب والتى تدرس فى جامعاتنا على أنهــا من علم الغرب والتى تبدأ عــادة بمــا كتبه بيكون وروجر وفرنسيس ، وهو استهلال ناقص وظــالم فى نفس الوقت : ذلك أن مــا قدمه هؤلاء العلمــاء إنمــا جاء بعد دراســة واستيعاب لكل مــا كتبه علماء المسلمين الذين سبقوا على الطريق والذين تعدوا القواعــد فى منهج البحث التجريبى وفى طليعتهم عشرون عالما •

(ابن سينا ، ابن الهيثم ، البيرونى ، جابر بن حيان ، ابن النفيس ، الخوارزمى ، الخــازن ، ابن يونس الصــوفى ، الزهراوى ، ثابت بن قرة ، البوزجانى ، البغدادى ، ابن البيطــار ، ابن ماجد ، المجريطى ، الغافقى ، ابن مسكويه ، ابن خلدون ، المقدسى) •

هــؤلاء الذين حين بدءوا صــححوا أخطــاء بطليموس وإقليدس وأرشميدس وجالينوس ، ثم انطلقوا صــوب الإبداع والإضــافة الواسعة فى مختلف المجالات (الرياضيات ، الفلك ، الحساب ، الجبر ، الكميــاء ، الطب ، الصيدلة ، النبات ، الحيوان ، المعــادن) •

وقد اعترف علماء الغرب اعترافاً واضــحاً جازماً بأكثر من صــيغة وعصر وكتاب ، بأنه لولا أعمــال العلماء المسلمين لاضطر علماء النهضــة

الاوروبية أن يبدءوا من حيث بدأ أولئك ، ولتأخر سير المدينة عدة قرون ، وقالوا :

كان لا بد من ظهور ابن الهيثم والصوفى والبيرونى وأمثالهم لكى يظهر : جاليلو وكبلر وكوبر نيك ونيوتن من أعلام النهضة الاوروبية .

ومن هنا وجب إحقاقا للحق واعترافاً بالأمانة العلمية أن يقدم هذا الدور فى دراسات الجامعات الإسلامية والعربية وأن يسبق دراسات الحضارة المعاصرة ، ونحن حين نفعل هذا إنما نقرر حقيقة أصبح الآن معترفاً بها فى مختلف دوائر العلم الغربية ، من أن أوربا مدينة للمسلمين وان المسلمين هم أساتذة الغرب فى مختلف العلوم .

وقد أشار كثير علماء الغرب إلى أن كثيراً من النظريات « حسباها من صنعنا وإذا بالعرب قد سبقونا إليها » .

وكما قدم المسلمون منهج العلم التجريبى ، فقد قدموا منهج صياغة العلماء وقد عرف العلماء المسلمون بالتواضع والارتفاع بعلمهم عن الغرض وزهدهم فى الترف والسلطان ، وعزوفهم عن الصغائر ، مما أعلى شانهم إلى جانب استعدادهم الذهنى وجلدهم العجيب على العمل ، ومثابرتهم وما أتيح لهم من حرية فى الفكر العلمى ولعدم الحجر على آرائهم العلمية أو اضطهادهم بسبب تلك الآراء ، كل ذلك هيأ لهم الإبداع الفكرى وغزارة الإنتاج . . وبذلك كانوا هم بناة منهج « صياغة العلماء » كما كانوا المنشئون لـ : « المنهج العلمى التجريبى » .

ثالثا : كانت نظرتهم الى العلم تقوم على إيمان صادق بالله تبارك وتعالى ، ويقين بأن العلم كله والعمل كله موجه إليه تبارك وتعالى ، خالصاً ، لا يلتمس به مطمع ولا جزاء لا شهرة ، وإنما يراد به خدمة الإنسانية والمجتمع والناس .

ثم ان هـذا العلم ليس علما دينياً خالصاً ، ولكنه علم فى مختلف مجالاته مستمد من القرآن متصل به ، فالقرآن هو الذى أعطى المسلمين ذلك الضوء الكاشف الذى هداهم إلى النظر فى الطبيعية والبحث فى الأرض ، وهو الذى مضى بهم حتى أنشؤا « المنهج العلمى التجريبى » الذى كشف آفاق المجهول فقدموا من خلاله إضافات جديدة تقدمت بها الإنسانية حين نمتها باسم الحضارة الحديثة •

ولقد ظلت أوربا خمسة قرون كاملة تنكر هـذه الأسبقية الأصيلة فى بناء العلم ، وقد خلت كتبها من الإشارة إلى هـذا العمل الضخم الذى قدم القواعد التى بنوا عليها عملهم من بعد ، ولما دخل الاستعمار بلادنا فرضت علينا فى المدارس • والجامعات مناهج لا تعترف بهـذا الدور كله ، وتنكره تماما ولا تشير إليه أية إشارة ، حتى يخيل للطالب والباحث أن هـذا العلم غربى الأصل والمنزع ، وأن المسلمين لم يكن لهم شأن فيه — أى شأن — ولقد ظل علماء كثيرون غربيون يتجاهلون هذا الإنجاز البعيد المدى ، الذى أحدثه الإسلام فى النهضة الأوربية الحديثة وفى الحضارة العالمية ، بل إن هـذه الاستهلالات الاسلامية لكثير من العلوم والإصناف قد جرى تجريدها من إطار الإسلام حتى تصبح من إبداع الفلاسفة والعلماء الغربيين •

وفى السنوات الأخيرة تحدث مجموعة من المؤرخين والباحثين عن هـذه الحقيقة المهضومة التى ما كان لها أن تظل فى طى الخفاء سنوات طويلة ، وفى مقدمة هؤلاء : جوستاف لوبون فى (حضارة العرب) وتوماس كارليل فى (الأبطال) وبريفولت فى (بناء الانسانية) ودرابر فى (مقدمة العلوم) وكان آخر هـذه الصيحات وأعمقها كتاب (أوربا ولدت فى آسيا) وكتاب (شمس الله تشرق على الغرب) للدكتورة سجريد هونكه ، ويجىء الانصاف ليشير إلى دور المسلمين فى الكيمياء والطب والفلك والعلوم الرياضية ، ولكن المراجعة الدقيقة للدور الذى قام به الإسلام وحضارته وفكره ، يكشف عن أثر أبعد عمقاً ، فالفكر الإسلامى لم يقف إضافته

عند العلوم وحدها ولكنه أضــاف إلى الاجتماع والسياسة والاقتصاد •

ومن هنا فإن هنــاك ضرورة ملحة أن تتصــدر دراسات العلوم فى جامعاتنا العربية والإسلامية مقدمة تكشف عن حقيقة هذا الدور وتضعه فى مكانه الصحيح تاريخ العلم الحديث • ونحن نعرف أن تدريس العلوم إنما يتم بناء على المنهج الإنجليزى أو المنهج الفرنسى ، وأنه تجرى دراســة المذاهب الفكرية العالمية شرقية وغربية مع تجاهل كامل للمنهج الإسلامى ، وذلك فيما يتصل بفلسفة العلم نفسه ومفهوم الإسلام له •

وعندما أنشئت كلية العلوم بالجامعة الاصيرية عام ١٩٢٥ سيطر على مناهجها مجموعة من العلمــاء الغربيين (أوليفر هوجيوم ، بنجهــام ، نيو وغيرهم) وأن الجمــاعة الأولى من العلماء الذين برزت شــهرتهم : محمد خليل عبد الخالق ، ومشرفة ، وأحمد زكى ، وعلى إبراهيم ومصطفى نظيف ، ومحمد رضــا مدور ، وحسن صــادق ، وقد حاول كثير منهم أن يقــدم المنهج الإســلامى للعلم ، ولكن ذلك لم يتحقق على الوجه الأمثل •

هــذا ومن أهم ما يعترض مفهــوم العلم الطبيعى فى الســنوات الأخيرة ويغير كثيراً من المسلمات : أن نظرية دارون (التى مــا تزال تدرس فى المدارس والجامعــات العربية) قد تكشف فســادها بعــد أن أثبتت التجارب أنه لا علاقة بين الجنس البشرى والأجنــاس الحيوانية ، وأنه لا توجد علاقة مشتركة بين الجنسين •

وقد أعلن الدكتور رونالد جونســون أستاذ علوم الأجناس البشرية عام ١٩٧٤ : أن العلماء يستطيعون الآن أن يقولوا بعد دراسات وتجارب امتدت ســنوات طويلة بنسبة ٩ر٩٩ بالمائة من الدقة ان الإنســان ســار منتسبا على قدميه منذ أن وجد على الأرض ، أى أنه بدأ تاريخه الإنســانى منذ أكثر من ثلاثة ملايين سنة • بعد أن عثر على مجموعة من العظام يرجع تاريخها إلى ثلاثة ملايين سنة •

وكذلك ظهرت عظام ترجع إلى خمسة ملايين سنة وكل هذا يشير إلى أن الإنسان القديم كان يسير منتصب القامة منذ ذلك الوقت ٠

ويؤكد العالم الفرنسى جان بيفتو — رئيس المجمع العلمى الفرنسى سابقا — بعد أن أوقف من عمره نصف قرن لدراسة أصل الإنسان : « إن الإنسان ليست له علاقة تجانس بالقرد ، وإن كل المشابهات بين القرد والإنسان غير كافية لتجزم بوجود أصل واحد للانسان والقرد » وهو يرفض هذا الافتراض لاعتقاده أن الإنسان لم يظهر على الأرض ممجرد مصادفة بل إنما كان الهدف الأخير من تنظيم الكون ولذلك جاء مركبا فى أكمل تقويم » ٠

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فما تزال قضية تعليم العلوم باللغة العربية عقبة كبيرة يقيمها خصوم الإسلام والعاملون على الحيلولة دون دخول المسلمين دائرة العلم ، وهى عقبة يجب القضاء عليها خاصة بعد أن أفرزت المجامع اللغوية مئات المصطلحات القيمة التى تمكن العلماء اليوم من تقديم دراستهم باللغة العربية وهى ضرورة أساسية فى بناء المنهج العلمى الإسلامى الجديد ٠

---

(١) لا يجوز شرعا نسبة النور بمفهومه المادى الى الله تبارك وتعالى فهو سبحانه منزه عن الشعاع وغيره من آثار الماديات ويترتب على هذا انه من الخطأ الاعتقاد بأن الكون مخلوق من بعض نور الله ، أو انه صدر عن ذات الله تعالى نور تشكل منه الكون كما يرى أصحاب نظرية الفيض والحق انه لا تشابه بين الخالق والمخلوق ، والكون مخلوق لله لا جزء منه اذ التجزىء محال على الله تبارك وتعالى ٠

الفصـــل السابع

منـــاهج الإســـلام

فى العلوم السياسية والفكر السياسى الإســـلامى

فوارق عميقة بين الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية :

تدرس الجامعات الفكر السياسى والعلوم السياسية دراســة غربية خالصــة ، ســواء فى مجال الليبرالية والديمقراطية ، أو الوطنية القومية ، او الرأســمالية والمـاركسية ، أو فى مجال السياق التاريخى الذى يدرس العلوم الســياسية على أساس تطبيقهـا فى المجتمع الأوربى والأمريكى ، خلال مراحل العصور القديمة والوسطى الحديثة ، دون أن يدرس ما سبق ذلك وما صاحبه من مفهوم العلوم السياسية فى المجتمع الإسلامى ، منـذ ظهور الإسلام إلى اليوم .

ظهور حركات الاستقلال والمثل العليا :

ومنــذ الاحتـــلال الغربى للأقطـــار العربية بدأت فكرة التحرر من الاستعمار ، من خلال الحركات الوطنية مرتبطة بالنظام الغربى (الديمقراطية والليبرالية) على أنهـــا المثل الأعلى لإقامة حياة سياسية عصرية على أساس الدستور والانتخاب والنظام البرلمانى ، وقد عدت هــذه الأقطـــار تطبيق النظام الغربى الديمراطى كسباً كبيراً حققته .

ومن ثم فقد نشـــأت هذه الأجيال فى إطار المفاهيم السياسية الوافدة دون أن تعرف كثيراً عن العلوم السياسية الإســـلامية أو النظام السياسى الإسلامى ، أو تتعمق وجوه الخلاف الواســـع بين الدين والدولة فى مفهوم الإسلام ، فى حين تنفصل النظرية الغربية عن هذه القيم .

أصــول النظرية الغربية :

هذا فضــلا عن أن النظرية السياســية الغربية ، التى تغرق الآن مجــالات التعليم والدراســة والصحــافة ، نظرية قائمة على الأصــول اليونانية والرومانية القديمة ، التى كانت تجعل الحرية والديمقراطية والعدل للسادة وحدهم ، فى حين لا يطبق هذا على المجموعات العــامة من العبيد •

وقد انبعثت هــذه المفاهيم فى الفكر الســياسى الغربى حين قــدم « ميكافيلى » نظرية السياسة التى اعتنقتها أوربا منذ ذلك الوقت ، ومــا زالت تؤمن بهــا وتطبقها ، دعا ميكافيلى فى كتابه « الأمير » إلى فصــل الســياسة عن الأخلاق ، واستقلال السياسة وأولويتها على الأخلاق •

وكان هــذا الاتجاه من ميكافيلى والسياسة الغربية مناقضــا للفكرة النصرانية وللمفهوم الإنســانى بعامة ، ولم يقف أمر ميكافيلى عند هــذا الحد بل إنه دعا إلى القسر فى حمل الناس على معتقده • •

وقداعتبر الفكر السياسى الغربى كتــاب « الأمير » إنجيلا لأصحاب الســلطة السياسية ، ومنه خط واضــح فى الفكر السياسى والفلســفة السياسية الأوربية •

فقد جحد ميكافيلى تعاليم الدين النصرانى ، وتنكر لمبادىء الأخلاق ، ونظر إلى السياسة نظرة واقعية مجردة ، فهو يرى أن الغــاية تبرر الواسطة وأن السياسة لا خلق لهــا ، وأنه على الأمير أن يحقق رغبتــه دون النظر إلى مبادىء الأخلاق ، بل ينظر فقط إلى الوســائل التى يحافظ بهــا على المركز الذى يصــل إليه •

يقول ميكافيلى : « على الحاكم أن يكون رجلا له بأس وخطر وشدة ، لا تحجزها رهبة ولا يصــل إليهــا تردد ، فهو يعمل لينجح ، ثم يحــافظ

على هـذا النجاح » وأكبر تناقض يهن الحـاكم عنده هو ضعف الإراده أو التبرير •

وقد مضى على الأسـاس الذى وضـعه ميكافيلى للفكر السـياسى الغربى فلاسـفة آخرون ، فصـلوا وعمقوا ووسـعوا هذه المفاهيـم : منهم نيتشـه وجيتى وابسن ، بل إن المؤرخين يؤكدن أن تدبير مذبحـة « سنت بارتلمى » ترجع إلى تأثير هذا الكتاب على كاترين دى ميديتشى •

أما هيجل فقد أيد ميكافيلى ولكنه كان ينكر أى خلاف بين السياسـة والأخلاق بحسـبان أن الحكومة هى التى تحقق الفكرة الأخلاقية ، وأنهـا غاية فى نفسـها ، وليس لها واجب أكثر من المحافظة على كيانها •

وفى رأى ميكافيلى أن الإنسـان مطبوع على الشر ، وأنه أقرب إلى الحيوانات منه إلى الملائكة ، وعنده أن السياسة لا تقوم إلا على الدسائس والمؤمرات لنيل القوة •

وقد ألف ميكافيلى كتابه فى مطلع القرن السـادس عشر الميـلادى متأثراً بواقع أزماته ، ثم كانت نظريته بعيدة الأثر فى الفكر الغربى كلـه ، وخاصة فى الفكر السياسى •

ويختلف الفكر الغربى السـياسى فى هذا المفهوم ، عن الفكر الإسلامى الذى يربط بين السـياسة الأخلاق (كمـا يربط بين القيم المختلفة) ، إذ يقـر الفكـر الإسـلامى إخضـاع أعمال وسـلوك الإنسـان لامقياس الخلقى ، للتميز بين الأعمـال السياسية القائمة على النفع ، والقائمة على الشر والضرر • وعن طريق هـذا التمييز يمكن الوصول بالدولة إلى إسعاد المجتمع ودوام رقيـه •

وكما يختلف الفكر السياسى الإسـلامى عن الفكر الغربى فى هـذه القضـية الأسـاسية ، فإنه يختلف فى جوهر مفهوم السياسة نفسه ، وهو

مبدأ « سيادة الأمة ويعد مبدأ سيادة الأمة ، من أهم المبادىء الدستورية التى تقوم على أساسه « الديمقراطية الغربية » .

وقد اختلفت الآراء حول نظرية السيادة ، ومن هو صاحب السيادة فى الدولة : هل هو فرد ؟ أو طبقه ؟أو فئة ؟أو الأمة ؟

ونظرية « سيادة الأمة استنبطها رجل الفقه الفرنسى ، فى عهد الحكم المطلق القديم أثناء الخلاف بين الملوك والبابوات ، الذين كانوا يعملون على بسط نفوذهم وسيطرتهم على الملوك ومن أجل إقرار سلطتهم داخل المملكة إزاء الحكام الإقطاعيين ، الذين كانوا ينازعونهم ويشاركونهم قسطا من السلطان ، ومن ثم أخذ الفقهاء الفرنسيون منذ القرن الرابع عشر ، ينادون بأن الملك يستمد سلطة من الله ، فيما يسمى نظرية الحق الإلهى أو التفويض الإلهى ، والهدف هو تخليص ملوك فرنسا من سلطان الأباطرة والبابوات .

وحين جاءت الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر ، نقل قادتها السيادة من الملك إلى الأمة هو التعبير القانونى عن نظام الحكم الذى يوصف بالنظام الديمقراطى .

وقد تبين للسياسيين والمؤرخين أن مبدأ سيادة الأمة هذا — الذى هو قمة النظام الديمقراطى — لا يكفل منع الاستبداد ومنع الاستئثار بالسلطة المطلقة ، وأن هناك وسائل أخرى تمكن أصحاب السلطان المستبد من الوصول إلى الحكم عن طريق النظام الديمقراطى (١) .

أما الإسلام فإنه يقرر مبدأ الشورى ، الذى يختلف اختلافاً كبيراً عن مبدأ سيادة الأمة الذى ظهر بعد الإسلام بعدة قرون .

وقد أشار المؤرخون إلى أن نظامين استبداديين قاما استناداً على

---

(١) كان زعماء الثورة الفرنسية هم اول من خان مبدا سيادة الامة بالاستبداد فجرفهم لهيب الثورة واعدموا بالمقصلة قبل ان تعود السلطة الملكية الاستبدادية من جديد .

مبدأ سيادة الأمة ، هما النظام الدكتاتورى الذى أقامه نابليون سنة ١٧٩٩ ميلادية ، والنظام الذى أقامه لويس نابليون سنة ١٨٥٢ ميلادية ، وفى هذه الظروف أودعت الأمة صاحبة السيادة هذه السلطة فى يدى الرجل الذى أحرز النصر ، وهو القيصر (الدكتاتور) الذى تركزت كل السلطات فى يده ، وقد تخفى القيصر وراء هيئة نيابة منتخبة من الشعب ، ولكن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد رمز أو صورة وراء سلطة ديكتاتورية مستورة وراء الاستفتاء الشعبى ٠

ومعنى هذا أن مبدأ سيادة الأمة الذى يباهى به النظام الديمقراطى الغربى لا يكفل منع الاستبداد أو الاستئثار بالسلطة المطلقة ٠

ويشير كتاب الغرب بأن الليبرالية السياسية التى نقلت إلى أفق المجتمعات الإسلامية قد فشلت فشلا ذريعا ، ولم تحقق الشورى أو العدل ،يقول مؤلف كتاب « الثورة العقائدية » :

« إن الليبرالية السياسية لم تنم نمواً موضعياً فى آية بلاد إسلامية ، وإن بعض المحاولات التى جرت لنقل اللبرالية الأوربية فى القرن الراهن إلى بعض البلاد الإسلامية قد فشلت » ويبرر المفكرون المسلمون هذه الظاهرة بأن الإسلام دين ديمقراطى فى جوهره ، كما ينطوى على مساواة من الناس ولما ينص عليه من شورى قبل تقرير الأمور ، ولما يؤكده من إجماع ويصر عليه من ضرورة خضوع الحاكم للشرع ٠

وهم يقولون إن إخفاق الليبرالية الغربية فى البلاد الإسلامية ، يعود إلى الظروف التاريخية ، لا إلى ميل الفكر الإسلامى — كما يشيع الغربيون — إلى الطغيان ٠

ومع اعتراف المفكرين الغربيين بإخفاق اليبرالية الغربية فى البلاد الإسلامية ، فإن معاهد المسلمين وجامعاتهم ما زالت تدرس لهم العلوم السياسية وفق هذا المنهج الغربى ، وتستمر فى ذلك على نحو يعطى

انطباعا بأنه لا يوجد فى العالم إلا هـذا النظام الذى يتصارع فى الغرب ، فى حين نرى كبار علماء السياسية يقولون :

« لقد وصلت الديمقراطية الغربية اليوم إلى مرحلة الفشل والهزيمة والانهيار ، بعد أن اقتحمتها الأخطاء من كل جانب ولم يعد الغرب يثق بها أو يجد فيها نظاما صالحا •

ولم تعد أحزاب الغرب تستطيع أن تنال ثقة الناس ، وقد كتب كثيرون من أمثال أرونولد توينبى وغيره كاشفين عن عورات هـذا النظام وفساده فى محال الاضطراب الاقتصادى والتحلل الاجتماعى والفساد الأخلاقى ، واتساع الهوة بين الفقراء والأغنياء •

ومن هنا فإن هناك فارقاً بعيداً وعميقاً بين « الشورى الإسلامية » والديمقراطية الغربية ، ولا يمكن الجمع بينهما ، والخطأ هو أن يظن البعض أن « مبدأ » الشورى الذى يأخذ به الاسلام ، هو نفس المفهوم الديمقراطى الغربى الذى يستند إلى مبدأ سيادة الأمة ، ويأخذ بنظام الاقتراع أو الانتخاب العام ، فذلك شأن الديمقراطية •

ولكن الواقع أن ثمة فارقاً عميقاً بين الشورى الإسلامية التى لا تعرف مبدأ نظرية سيادة الأمة ، ولا تتطلب الأخذ بنظام الانتخاب العام ، كما هو فى الديمقراطية الغربية المعاصرة •

الإسلام دين ودولة :

إن أخطر ما يحاول الفكر السياسى الغربى الذى تدرسه جامعاتنا فى عالم الإسلام هو مبدأ « فصل الدين عن السياسة » وهو مبدأ غريب عن الإسلام وتاريخه ، فالإسلام فى جوهره ليس مجرد إيمان دينى ، إنه نظام حياة يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية الدينة منها والزمنية •

فالشريعة هى القاعدة التى يجب أن تتم على أساسها المعاملات بين المسلمين ، وتبنى عليهـا حياتهم المدنية بكاملها ، كمـا أن الجمع بين الحياة الروحية والحياة السياسية واجب دينى ، لأن وحدة الأمة روحياً منوطـة بوحدتها سياسيا ولذلك فالأمة فى الإسـلام لن تكتمل ما لم تتحقق فى دولة تتيح للمسلمين أن يعيشـوا بحسب فرائض دينهم ، لذلك ينبغى أن يكون على رأسـها قائد يحوز السـلطة السياسية ليسهر على تطبيق القرآن ، وحفظ الشرائع وحماية مصالح المسلمين •

هكذا فهم المفكرون الغربيون الإسلام على هذا النحو فكيف بالمسلمين الذين أنزل عليهم •

ويقول الدكتور فيتزجيرالد :

ليس الإسـلام دينا فحسب ، ولكنه نظام سياسى أيضـاً ، وعلى الرغم من أنه ظهر فى العهد الأخير أفراد من المسلمين ممن يصـفون أنفسهم بأنهم عصريون ، يحاولون أن يفصـلوا بين الناحيتين ، فإن صرح التفكير الإسلامى قد بنى على أسـاس أن الجانبين متلازمان لا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر

ويقول شـاخت :

إن الإسـلام يعنى أكثر من دين ، إنه يمثل نظريات قانون وسياسة ، إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معا •

تكامل الإسلام :

وقال هاملتون جيب :

صـار واضحا أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية ، وإنمـا استوجب إقامة مجتمع مسـتقل له أسـلوبه المعين فى الحكم وقوانينـه

وأنظمته • الحق أن الإســلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات ، إنه أعظم من ذلك كثيراً فهو مدنية كاملة ، ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا : العــالم النصرانى ولم نقل النصرانية ، ولقلنــا الصين بدلا من أن نقول ديانة كنفوشيوس ، وهو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس دينى ، ويشــمل كل مظاهر الحياة الإنســانية •

وقد أكد هــذه النزعة الأصيلة وتمثل ذلك فى صوغ القانون الإسلامى والتنظيم الاجتمــاعى ، وهو مجتمع لا تزال تتردد فى صميمه بكل قــوة هــذه الفكرة •

والحق أن نمو هــذه الفكرة فى الإســلام فاق كثيرا مــا وصــلت إليه أوربا من متانة الصــلة بين الحكومة والحياة الدينية والاجتمــاعية ، فقد كانت ركناً أســاسياً من فكرة المسلمين عن نظام العــالم ، حتى كان اضطراب هذه الصلة من أكبر أسباب الأزمة الحديثة فى الإسلام •

ويقول ليوبولد فابس (محمد أسد) مقارناً بين مفهوم الفكر السياسى الغربى ، إن مبدأ فصــل الدين عن السياسة ليس له من مكان يمكن أن يستمسك عليه ، ضمن كيان الإسلام ، والعالم الاسلامى وفى سبيل النظر فى كون هذا الاتجاه له ما يبرره فكرياً وتاريخياً ، وكونه قادراً على التحقيق العلمى •

متى بدأت فكرة فصــل الدين عن الدولة :

يقول الدكتور فاضل الجمالى : إن عزل الدين عن الدولة بدأ فى ظروف تاريخية خاصــة فى أوروبا ، حين كان الصراع بين الكنيســة وبعض ملوك أوروبا صراعا عنيفا ، وحين كان الصراع بين الطوائف النصرانية الواحدة مع الأحرى ، يسبب حروباً دموية تدوم عشرات الســنين ، وحين كــان المتعصبون من رجال الكنيســة يقاومون النظريات الحديثة العلمية ، كل هذا أدى إلى فصــل الدين عن الدولة ، وهو مــا يسمى « بالعلمانية » ، ويمكننا القول بأن العلمــانية اليوم هى بمثابة حركة رجعيــة ، من حيث

تاريخها ، فقد زالت الظروف التاريخية التى كانت تتطلبها ، ورجعية من حيث جعلهـا الدولة تهمل واجباً من واجباتها ، وتنكمش عن تأديته ، ألا وهو واجب الروح •

ولا نعتقد أن العلمانية حققت أهدافها فى البلاد التى طبقت فيهـا ، بل وقعت فى تناقضـات واضحة ، والشعب المسلم التركى لم يقبل هـذه العلمانية ، ولم يهضمها •

رد الفعل فى تركيـا :

لذلك جاء الحزب الديمقراطى معبراً عن مشـاعر الشعب التركى حين قام « عدنان مندريس » بتشييد مـا يقرب من ألفى مسـجد فى القرى التركية ، وقـام بتجديد المواقع العظيمة التاريخية •

ولا ريب أن تطبيق العلمانية فى البلاد المسيحية أسهل منه فى البلاد الإسـلامية ، وذلك : أن النصرانية لم تشتمل على تشريعات تفصـيلية واسعة تؤثر فى الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للأفراد والجماعات ، أمـا الإسلام ففيه العقائد العبادات والأخلاق ، وأنه جـاء بنظام شامل يمس حياة الإنسـان فى شتى مناحيهـا ، وهو نظام يتفق مع طبيعة الحياة الإنسـانية وقد أكـد غير واحد من أسـاطير القانون فى العلم أهميـة « الشريعة الإسـلامية »وما تحويه من ثروة زاخرة ، أما علمانية الدولة فى البلاد الإسـلامية بمعنى أن تنفصـل الدولة عن الشريعة الإسلامية بصفة عامة ، فإنها لا تلائم الشـعوب الإسلامية بصـفة خاصة ، وذلك لأن الأمة العربية مدينة للاسـلام فى تكوينها الحاضر ، ويجب أن تكون حاملة رسالته إلى الإنسـانية جميعاً ، فالفصـل بين الدين والدولة معناه تجريد الحكومة العربية من أهم مقومات القومية ، فالأمة العربية منفصـلة عن الإسلام ورسـالته تصبح كجسم منفصل عن حياته ، وعن روحه ، والفصـل هذا يجعل من الجسم قشراً فارغاً لا لب فيه ، يسـهل دخول المبادىء الوافدة على اختلاف أنواعها •

الدولة الثيوقراطية :

كذلك فقد حاول التغريب والغزو الثقافى الادعاء بأن الإسلام : أقام الدولة الثيوقراطية ، أى الدولة الدينية ، التى عرفها الغرب بـ « حكم البابوات » والواقع أن الإسلام لم يعرف هذه الدولة الثيوقراطية التى عرفتها أوربا فى العصور الوسطى ، عندما سيطرت طبقة من رجال الدين على السياسة العليا وليس هذا النوع من الحكومة مما يقره الإسلام أو يعترف به ٠

فالإسلام لا يعترف بنظام الكهانة ، أو وجود طبقة ممتازة تدعى رجال الدين ، ولا يعترف بأن هناك طبقة أو شخصاً ما يستطيع أن يتميز بنوع من القداسة دون الناس جميعاً ٠

والنظام الإسلامى الاجتماعى نظام خاص ، يختلف من وجوه عديدة عن الأنظمة التى عرفها الغرب ، لذلك فالقول بأن الدولة الإسلامية كانت دولة « ثيوقراطية » هو قول باطل ومردود ، ذلك أن النظام الإسلامى نظام شامل للأمة جميعا ، يستمد مصادره الأولى من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ويفسح الطريق إلى الاجتهاد فى الفروع فيما لم يرد فيه نص ، ويقوم على إطارات واسعة مرنة ، قادرة على ايجاد حلول يسيرة لقضايا العصور والبيئات المختلفة والمتجددة ، مع التمكن من مواجهتها والاستجابة لها ، بما يحقق العدل ، دون أن يكون الإسلام فى ذلك مطية لأهواء المجتمعات أو خادماً لانحرافاتها ٠

فالتشريع الإسلامى لا يقر مذهبا يفرض مفهوما ماديا خالصا أو روحيا خالصاً على المجتمعات ، أو مذهباً يقدم الاقتصاد على الأخلاق والعقائد ، أو يفترض نسبية الأخلاق أو الهبوط بالإنسان إلى تجارب الحيوان ٠ ٠ ٠

أو التسليم بالإباحية المطلقة باسم الحرية والتطور المطلق ، ويقر

المفاهيم التى تقوم على الربط بين القيم وضوابط الحرية والمسئولية الفردية وإقامة حركة التطور من داخل دائرة الثبات •

دعـــوة باطلـــة :

ولقد كان من أغرب المحاولات التى قام بها التغريب والغزو الثقافى من أجل تثبيت المنهج الغربى للعلوم الســياسية ، الادعـــاء بالباطل بأن الإســـلام لا يملك فكراً سياسياً ، وقد ظل الدكتور طه حسين وعـــدد من كتاب العرب الجارين فى فلك التغريب والتبعية الثقافية ، يلحون على القول بأن المسلمين والعرب لم يكن لهم نظام سياسى أصـــيل ، وأن مصدر النظرية السياسية هو فكر رومانى ، وأن العرب المسلمين كانوا نقلة لهذه الدراسات •

وقد ظل هذا الاتهام قائما كالسيف المصلت سنوات طويلة ، حتى قام دكتور ضـــياء الدين الريس بالكشـــف عن زيفه ، وتأكيد خطئه ، بمؤلف ضخم فصـــل فيه النظريات السياسية الإسلامية وكشف عن حقيقة الأمر فى هـــذا الصـــدر بما لا يدل فقط على أصالة النظرية السيايية الإسلامية بل على أنها كانت المصدر الأول للدولة الحديثة •

يقول الدكتور الريس : «لقد كان الذى يدرس لنا فى أوربا هى نظريات الإغريق والرومـــان وأمثالهم من المفكرين الأوربيين ، فأين مكـــان الفكر الإســـلامى بين هذا الإنتاج الإنسانى اليوم ، ولمـــا كانت الإجابة عن هذا السؤال يجب أن تكون مبينة على أســـاس علمى ، فلابد لنا من دراســـة شـــاملة للتراث الإسلامى الخالد ، وتعقب الأفكـــار التى بثت هنا وهناك فى ثنايا الكتب التى ألفهـــا القدماء فى العلوم المأثورة المختلفة ، ولا تزال مكتوبة بلغتهم الاصطلاحية التى لم تعد مألوفة اليوم ، ولن يكون الجواب بالسلب •

ذلك أولا : لأن إنتاج الفكر الإســـلامى فى مختلف نواحى العلـــوم

إنتاج حافل فلا يعقل أن يظن أن هـذه الناحية الهامة من نواحى الثقافة الإنسانية قد أهملت ، ونعنى بها الناحية السياسية •

وثانيا : لأن المجتمع الإسلامى من خلال العصور المتعاقبة قد نجح فى إنشاء دول بل امبراطوريات بلغت من الدقة فى أنظمتها وإدارتها وأساليبها ما لم تبلغه النظم السياسية والإدارية التى ألفها العالم قبل وجود هذا المجتمع •

اقتباسات النظم الأوربية :

ومن الحقائق التى لا تزال غير معروفة للكثيرين ، أن الدولة الحديثة — وهى إحدى العوامل التى كانت سبباً فى انتقال أوربا من العصور الوسطى ، أو الفوضى الاجتماعية التى سميت بالنظام الاقطاعى — هذه الدولة الحديثة كانت اقتباسا إلى حد قريب أو بعيد من الدول التى كانت موجودة فى بلاد الشرق الإسلامى لهذا العهد •

كما أن النهضة القانونية التى حدثت فى أوربا وأدت إلى أن تكون تلك الدولة ، كانت صدى لنشاط الدراسات القانونية فى الممالك الإسلامية التى كان القانون أو الفقه هو المادة الأولى للدراسة فى جميع كلياتها ، فنشأت الجامعات فى إيطاليا وفرنسا متأثرة بهذه الروح عاملا على تنفيذ المنهج على النمط الذى شهدته فى الشرق •

فإذا كان هذا هو أثر المجتمع الإسلامى فى ميدان السياسة العملية ، وذاك هو إنتاج الفكر فى مختلف نواحى العلوم ، فلا يتوقع إلا أن يكون لها مثل هذا الإنتاج فى أفق السياسة النظرية مع مراعاة الحدود بطبيعة الحال التى أنتهت إليها الثقافة ، ووصل إليها التطور الاجتماعى فى ذلك العصر •

اسس الحكم فى الدولة الإسلامية :

فالمسلمون قد فكروا فعلا فى السياسة ، وكونوا لهم نظريات عنها ،

غير أن بحثهم كان تحت اسم آخر ، وتكلموا بلغة أصبحت غير مألوفة فى العصر الحاضر ، فالنظريات التى وصلوا إليها كانت إما جزءاً من مباحث علم الفقه والكلام أو التاريخ أو الفلسفة أو الأدب ، ويوجد بعضها أيضا فى تفاسير القرآن ، وفى شروح الأحاديث ، ولذا فإنه ينبغي لمن يريد أن يفهم هذه الآراء فهماً حقيقياً ويلم بها إلماماً تاماً ، أن يرجع إلى تلك العلوم جميعا .

وهذه النظريات فى مجموعها وهى تكون ثروة عظيمة القيمة جديرة بالدراسة ، تضاهى ما أنتجته أوربا فى بعض عصورها الزاهية بل إن من بين هذه الدراسات ما لم تصل أوربا إلى معرفته إلا بعد أن قطعت شوطاً طويلا فى طريق التطور ، وما يمكن أن يوصف بأنه يعبر عن أسمى المبادىء السياسية التى وصلت إليها الإنسانية .

ومن أبرز المميزات العامة للتفكير الإسلامى والتى تميزه عن التفكير الغربى فى كثير من عصوره أنه كان مرتبطاً دائما بالقيم الأخلاقية لا يستطيع أن ينفصل عنها أو يتجاهلها ، بل إن هذه القيم كانت هى غاياته الأساسية وجوهر حياته الذى يفقد كيانه إذا فقده ، وأنه منذ نشأته رسم الله له حدوداً جعلت تطوره ينتهى إلى غاية لا يعدوها ، وإن كان من الممكن فى العصر الحاضر أن يجعل ما أنتهى إليه من نتائج كأساس ، ويبدأ فى تحديد ووضع نظام محدث له .

وهكذا نجد أن معالم الفكر السياسى الإسلامى قائمة فعلا بطابعها المستقل ، التى لا يمكن أن توصف بأنها مستمدة أو متشابهة مع الفكر السياسى الغربى ، فإذا وجدت مشابهة فى بعض الفروع ، فإنها تختلف فى الأساس والغايات كل الاختلاف ، ويقوم الفكر السياسى الإسلامى على أساس قانونى هو الشريعة الإسلامية التى تضع أهمية كبرى للمجتمع وسعادته .

والحريات الإسلامية هي حريات فعلية حقيقية ، وهى مقيدة وموصوفة بمبدأ معين ، هى المشروعية الإسلامية ، فهى ليست حريات لا موضوع لها كما فى النظم الديمقراطية الحديثة •

وقد سبق الإسلام الغرب فى تقرير حقوق الإنسان ، عندما أعلن أعلن حق المساواة فى الإنسانية ، وكانت المجتمعات الغربية زاخرة بالفوارق والخلافات •

كذلك سبق الإسلام الفكر السياسى الغربى إلى صيانة حقوق المرأة ورد الاعتبار الإنسانى إلى الطوائف المستضعفة ، والقضاء على الرق بطريقة تدريجية ، والقضاء على النظام الطبقى ونظام العبودية والغاء الفوارق الجنسية والعرقية •

كما أعلن الإسلام قبل أربعة عشر قرنا حرية العقيدة والتفكير ، وحق التمتع بحياة آمنة يتوفر فيها الأمن والرزق ، الإطعام من جوع ، والأمان من خوف •

السياسة الشرعية فى مؤلفات المسلمين :

وقد ألف المفكرون المسلمون القدامى أكثر من خمسين كتابا فى علوم السياسة والإدارة ، وهذا ينفى الزعم القائل بأن مفكرينا لم يولوا هذه الموضوعات عنايتهم ، كما أن الفقهاء قد وضعوا استمدادا من القرآن والحديث ، الأحكام القانونية فى جميع نواحى السلوك الفردى والجماعى ، ومنها السلوك السياسى وسيتكرر البحث الفقهى السياسى فى بحث ما أطلق عليه « السياسة الشرعية والأحكام السلطانية » وفى كتب الماوردى « الأحكام السلطانية » ابن تيمية « السياسة الشرعية » •

كما تناول الفكر السياسى الإسلامى : بحث أخلاقية السياسة وما يجب أن تكون عليه أخلاق الحكام من خلفاء وسلاطين وملوك وأمراء ، وفى

هــذا ألف النويرى « نهاية الأرب » ، والطرطوشى « سراج الملوك » وابن طباطبا « الفخرى فى الآداب السلطانية ، وتلك أبرز مفاهيم الفكر السياسى للاســلام وهو عدم وجود خط فاصل بين السياسة والأخلاق ، وأن يكون الســـلوك السياسى أخلاقيا ، فالمفكر السياسى الإسلامى ، يقرر اخضاع أعمال وســلوك الإنسان لنظام معين ، هذا النظام هو المقيــاس الخلقى للتميز بين الأعمال السياسية القائمة على الخير والنفع ، والقائمة على الشر والضر ، وما ذلك إلا لأن مناهج السياسة الشرعية مناهج الهية المصــدر نبوية الشرح والتطبيق ، تابعها إجماع الأمة ــ فقهاء وعلماء ــ واجتهادها •

وجوه الاختلاف :

ويختلف الفكر السياسى الإسلامى عن الفكر الغربى الديمقراطى فى وجوه كثيرة :

أولا : أنه يؤكد وحدة العقيدة أكثر مما يؤكد وحدة الإقليم •

ثانياً : التأكيد على النظرة الجامعة المتكاملة بين ما هو مادى ومــا هو روحى •

ثالثاً : الاستناد على القاعد الخلقية ، فهناك مقياس خلقى لكل عمل ســياسى •

رابعاً : وبينما تستقر السيادة فى النظام الديمقراطى على الشعب بصورة كلية ، فإن الأمة فى الفكر السياسى الإسلامى مرتبطة ســيادتها بتعاليم الشريعة الإسلامية ، بعيدا عن الأهواء البشرية •

خامساً : لا يسمى المفهوم الإسلامى بأنه ديمقراطى ولا اشتراكى ولا ديكتاتورى ، لأنه مناهض لها جميعا ، فهو بعيد عن التطرف والإكراه والتســلط •

سادساً : السيادة فى النظام الإسلامى ليست فى يد الأمة (الديمقراطية) ولا فى يد رئيس الدوله (الديكتاتورية) ولكنها فى تطبيق الشريعة الإسلامية بما يبعد النظام الاسلامى عن أى منهج مخالف •

سابعا : يقرر الفكر الاسلامى أن المجتمع ضرورة لدوام حياة الأفراد وان المجتمع لا يمكن أن يستقيم دون وجود سلطة يلقى عليها مسؤولية تحقيق التقدم والاستقرار ق

ثامنا : الدولة فى الفكر السياسى الإسلامى ، تقوم على القانون الإسلامى (الشريعة) وأن القوانين المنظمة للمجتمع ، لا يمكن أن تكون فعالة إلا إذا اكتسبت صفة التطبيق ، من السنة النبوية واجتهادات أهل الحل والعقد ، وأن على الدولة مراقبة سلوك الأفراد لانها المنوطة بمسئولية تحقيق سعادة الآخرين ، وسعادة ووحدة الأمة بأجمعها ، ومسئولية الحفاظ على التعاليم والأهداف الإسلامية •

تاسعاً : لا يعترف الإسلام بالحاكم المطلق بل بالحاكم الأمين على مبادئه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وعلى الحاكم أن يكون متجرداً من الهوى ملتزماً جانب الحق والعدل ، وللأمة حرية اختيار الحاكم وتقويمه إذا انحرف ، وتنحيته إذا اخطأ •

عاشراً : يقر الفكر السياسى الإسلامى حرية الفكر وحرية الاعتقاد ، فلكل إنسان — طبقاً للشريعة الإسلامية — أن يعتنق ما شاء وليس لأحد أن يحمله على ترك عقيدته •

حادى عشر : يقوم النظام الدستورى الإسلامى مستمداً من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على أسس ثلاثة : العدالة والشورى والرحمة ، وفى علاقات القانون الدولى يعتبر القرآن الكريم أول تشريع نادى بالمساواة بين بنى الإنسان •

ثانى عشر : إن مرونة الشريعة الإسلامية وقابليتها للتطور تخضع لقيد الالتزام بالاصول الشرعية ومقاصد الشريعة وكلياتها ، وأن هناك فرقا بين الانطلاق والهدم وبين التطور والملاءمة ، ولا شك أن هناك جزءاً من أحكام الشريعة لا يقبل التطور ، وأن ما جاء فيه نص ، فإنه لا يجوز العدول عنه أو تعديل تطبيقه مهما طال الزمان ، بل إن مراعاة المصالح ليست أمراً لا قيد عليه بل هى محكومة بأصول الشريعة .

وبالجملة فإن كان نص وجب اتباعه ، وإذا كان أمر يقاس تقيدنا بالقياس وإذا لم يكن هناك نص نظرنا إلى مصالح الشرع مع حفظ الضرورات الخمس ودفع الحرج وتحقيق المنافع .

ثالث عشر : يختلف النظام السياسى عن كلا النظامين : الرأسمالى والاشتراكى ، فالنظام الرأسمالى مقصور على تأمين الحريات الفردية والحقوق الخاصة ، والنظام الاشتراكى ينحصر هدفه فى منع أسباب الصراع والاستقلال الطبقى .

أما النظام الإسلامى فيقوم على تحقيق ما يسمى بالمقاصد الشرعية وهى تتلخص فى التضامن فى تنفيذ ما أمر الله تعالى به ، ومنع ما نهى عنه ومن بينها : تأمين الحريات الفردية ومنع الصراع والاستغلال ، ولكنها أوسع فى جوانبها ومقتضياتها فهى لا تقتصر على الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية بل أشمل فى نواحيها المعنوية والخلقية ، التى تضفى على الاقتصاد والاجتماع فى الإسلام شمولا واتساعاً لا تعرفه النظريات الاقتصادية المعاصرة (مصطفى كمال وصفى) .

رابع عشر : الفكر السياسى الإسلامى لم يجعل الوالى هو صاحب الحق فى السيادة بل اعتبر السيادة حقاً للأمة وحدها ، وتقوم الشورى الإسلامية على أهل الحل والعقد ، ولم يمنع الإسلام المرأة من أن تشارك بالرأى فى الشئون العامة ، كما لم يحرم الأرقاء من المساهمة فى الرأى والشورى .

والشورى لها مرحلتان : مرحلة الملاءمة ومرحلة المشروعية ، والملاءمة هى سؤال أهل الخبرة فيما هم خبراء فيه ، أما المشروعية فهى وزن رأى أهل الخبرة قياسا على الشرع ، فالمشروعية مقيدة بما أظهره أهل الخبرة وبما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من الأحكام .

خامس عشر : إن الفكر السياسى الإسلامى يرفض مصطلحات الديمقراطية ، والاشتراكية والقومية ولا يربطها باسمه ، ويرى أنها مذاهب غربية تختلف اختلافا واضحا عن مفهوم الإسلام الجامع ، وأن الغربى حين يستخدم هذه المصطلحات فإن يستحضر فى ذهنه أحداث تاريخ الغرب والظروف التى مر بها والتحديات التى واجهته .

سادس عشر : الفرق بين خواص الدولة فى الإسلام ، وخواصها فى العصور الحديثة يكشف عن نظام فريد للإسلام خاص به لا يتطابق مع أى نظام من النظم الحديثة ، قوامه الربط بين الدين والدولة .

سابع عشر : العقد الإسلامى السياسى هو الاتفاق السياسى بين الراعى والرعية وبين الحاكم والحكومة ، والعقد السياسى فى الإسلام يقوم على أفكار أصيلة حرة ، لا تقل شأناً عن الأفكار السياسية الحديثة ، وأهمها حرية الاختيار ، والموافقة من جانبى الحاكم أو الخليفة أن يتولى السلطة نيابة عن الأمة ، ومن هنا سبقت يظرية العقد السياسى الإسلامى نظريات روسو ولوك .

فساد المنهج البشرى :

ويكشف الدكتور محمد عبد الله العربى عن تجربته الخاصة فى دراسة النظام السياسى الغربى ، فيقول : « لقد أدركتُ كما أدرك غيرى من علماء أوربا أنفسهم : أن هذه النظم التى عكفتُ على درسها وتدريسها أكثر من ثلاثين عاما كانت من أهم الأسباب فى كل ما حاق بالبشرية وما زال يحيق بها من ويلات وكوارث وشقاء شامل » .

ويمكن أن يوصف ذلك بما يسمى فســاد المنهج البشرى ، فالنظم الأوربية تقوم على اضطراب وتناقض لأنها من تفكير البشر ، ومن صنع البشر الذين لا يرون إلا ما هو مكشوف لهم فى فترة محدودة من الزمن وفى قطاع محدود من الأرض ، رؤية فيها كل قصور الإنسان وانفعالاته العابرة وشهواته الجامعة ، فتفكيره من أجل ذلك لا مناص من أن يكون تفكيرا جزئيا وتفكيرا وقتيا ، ومن هذه الجزئية يقع النقص والقصور ، ومن هذه الوقتية يقع الاضطراب فى التمييز بين الحق والباطل فيكون الباطل حقا فى عصر ويكون باطلا فى عصر آخر .

لقــد احتجبت حضارتنا الإسلامية أمام غزو حضارة أجنبية وكــان تقليدنا لما خبث منها أسرع من اقتباسنا لما صلح منها .

واجبنا نحو شباب الجامعات :

واليوم نجد شبابنا فى الجامعات لا يُدَرَّسون إلا النظم السياسية والاقتصادية كما تعرفها أوربا ونجد تشريعاتنا الوضعية فى شئون الحكم والاقتصاد والاجتماع تحتذى حذو التشريعات الأوربية ، وتنهج عــلى منوالها فيما تحرمه وفيما تبيحه ، وفى سياستنا الاقتصادية والمالية اقتبسنا نظمهم المصرفية والربوية ، التى سيطر من خلالها اليهود على اقتصاديات العالم ، وفى سلوكنا الاجتماعى أصبحنا نقلد مُجونهم وازيائهم ومباذلهم الفاجرة ، ومع كل هذا التقليد فقد عجزنا وتقاعسنا عن أفضل ابتكاراتهم الفنية وكشوفهم العلمية .

إننا مطالبون بتصحيح المفاهيم ، وتحرير المناهج الدراسية فى مجال الفكر السياسى الاسلامى حتى يعرف أبناؤنا أن لنا مفهوماً سياسياً ، ومنهجا إسلاميا يختلف ويتميز ويسمو عــلى المنهج السياسى البشرى المعــاصر .

الفصـــــل الثـــامن

القانون الوضعى والشريعة الإسلامية

عملان هامان فى مجال المناهج التعليمية والتربوية والثقافية :

أحدهما : إضافة تلك الصفحات المشرقة التى كتبها المسلمون لهـــذه العلوم التى تدرسها الجامعات والمدارس من قانون واقتصاد وسياســة واجتماع ونفس وأخلاق وتربية وعلوم تجريبية ، فليس هناك علم من هذه العلــوم التى تدرسها ، إلا وكـــان للمسلمين فيها دور وجهد وعمل هـــو بمثابة المقدمات التى مهدت للعلماء المعاصرين وضع هـــذه العلــوم فى الصورة القائمة اليوم •

أما العمل الثـــانى : فهو تأصيل المنـــاهج المطروحة فى أفق التعليم والثقافة الإســـلامية ، وتحريرها من الانحرافات والأخطاء وما يتصـــل بوجهات نظر الغرب لها ، وما وضعه كأسلوب لمواجهة تحديات مجتمعه ، أو لما تأثر به نتيجة لمفاهيمه الدينية ، أو لغلبة الفكر الوثنى والمادى عليه فى هـــذه المناهج •

ولقـــد أصبح من الضرورى فى مطلع القرن الخامس عشر : انتقالا من عصر اليقظة والرشد الفكرى إلى عصر النهضة والأصالة ، إعادة النظر فى مناهج القانون والاقتصاد والسياسة والتربية والتاريخ ، لتحريرها من من التبعية ولكشف وجوه أصالة الفكر الإسلامى فى هذه الميادين ، لتعود الأمة الإسلامية الى منابعها الأصلية التى تحقق لها امتلاك الإرادة والتمكن فى الأرض ، والقدرة على دفع غزوات الصهيونية والشيوعية والاســـتعمار الغربى •

القانون الوضعى فى الشريعة الإسلامية :

على المثقف المسلم أن يعرف وهـــو يفتح أول صفحة من دراسات القانون الوضعى ، أن هناك قانوناً إسلامياً هـــو الشريعة الإسلامية :

الذى كان مطبقا فى العالم الإسلامى والبلاد العربية ، منذ دخلت هذه البلاد فى الإسلام وارتضته نظاماً اجتماعياً لها ، بالإضافة الى أنه دين عبادة وأخلاق .

ومنذ دخل الاستعمار العالم الإسلامى فى العصر الحديث ، وسيطر بالاحتلال على البلاد الإسلامية ، كان أول مسعاه أن يبدل هذا النظام القانونى الإسلامى بالقانون الوضعى الغربى ، وقد جاءت مؤمراته هذه — فى أول الأمر — تحت اسم « محاولة » إيجاد نظام قانونى لمعاملة الأجانب فى علاقاتهم بأهل البلاد .

ومع أن الأجانب عادة يحاكمون بقانون البلاد التى يقيمون بها ، فإن هذه القاعدة لم تنفذ فى العالم الإسلامى نظراً لوقوعه تحت سيطرة احتلال الغرب ، ونظر للعلاقات التى كانت قائمة قبل ذلك عن طريق الامتيازات الأجنبية التى حصلت عليها الدول الغربية فى الدولة العثمانية التى كانت تضم البلاد العربية بالإضافة إلى البلاد التركية ، والتى كانت تحكمها أنظمة الشريعة الإسلامية .

وقد أعطت هذه الامتيازات الأجانب الحق فى محاكمة قومهم أمام محاكم خاصة أطلق عليها اسم « المحاكم المختلطة » ، وكان من نفوذ هذه المحاكم الفصل فى قضايا الوطنيين الذين يتعاملون مع هؤلاء الأجانب .

وفى مصر خلال حكم الخديو إسماليل وبعد اتساع نفوذ الدول التى خضعت مصر لها بالاستدانة فقد فرض عليها اقامة (المحاكم القنصلية) وكانت كل محكمة تطبق قانون الدولة التى تتبعها ، وقد طبقت هذه القوانين على المنازعات التى كان يرفعها المصريون على الأجانب لدى هذه المحاكم ، ثم تطور هذا النظام بإنشاء (المحاكم المختلطة) عام ١٨٧٥ ، وهى مشتركة بين قضاة أجانب وقضاة مصريين ، اختصاصها الفصل فى المنازعات فى المواد المدنية والتجارية فيما بين المصريين والأجانب ، وفيما بين الأجانب المختلفى الجنسية ، وظلت حتى ألغيت بعد معاهدة ١٩٣٦ .

كانت هذه المحاكم بقوانينها هى نواة الأنظمة التى جاءت من بعـد للقضاء الوطنى ، فقد أصدرت الحكومة عدداً من القوانين :

القـانون المـدنى :

القانون التجارى ، التجارة البحرية ، المرافعات ، العقوبات •• تحقيق الجنايات ، وقد نقلت هذه التقنينات عن القانون الفرنسى ، مع تضمين القانون المدنى القليل من الأحكام الشرعية الإسلامية •

وكانت هذه القوانين مقدمة لانتزاع البلاد الإسلامية من نظام القضاء والقانون الإسلاميين : ذلك أنه بعد الاحتلال البريطانى لمصر — أى فى عام ١٨٨٣ — أنشئت المحاكم الأهلية ، على غرار الأنظمة الأوربية ، لتحقيق وقضاء المنازعات المدنية والتجارية بين الكافة فيما عدا الأجانب المستفيدين من نظام الامتيازات الأجنبية •

وكان هـذا العمل شبيهاً بما تم بالنسبة للتعليم ، حيث وضـعت المناهج فى مدارس الارساليات ثم نقلت إلى المدرسة الوطنية بعـد ذلك بوجهات نظرها (المعارضة للعرب والإسلام) •

وقـد رافق هذا أيضا إنشاء المصرف الربوى — البنك الأهلى ١٨٩٨ — وذلك للسيطرة على مختلف وجوه العمل الاجتماعى كله (القضاء ، الاقتصاد ، التعليم) •

يقول الدكتور أحمد عز الدين عبد الله : وكـان إصدار التقنينات المختلطة والتقنينات الأهلية حدثاً هاماً فى تطور القانون المصرى إذ وجد به : (قانون وضعى) مصرى ، بعد أن سادت مصر خلال عدة قرون شريعة دينية هى : الشريعة الإسلامية التى « ضـيِّق على مجال تطبيقها فى ميدان المعاملات بحيث أصبح مقصوراً على مسائل الأحوال الشخصية والوقف مما تختص به المحاكم الشرعية » •

كما بقى بجانبها عدد من الشرائع الدينية للطوائف غير المسلمة تطبقها المجالس الملية •

هـذا هـو مدخل دراسة القانون الوضعى الذى سيطر على نظام القضاء فى البلاد العربية والإسلامية • بعد أن فصلت هـذه البلاد عن الشريعة الإسلامية بالتآمر والكيد وأبعدت الشريعة الاسلامية التى كانت الدولة العثمانية قد قننتها تحت اسم مجلة الأحكام العدلية •

ومن هنا نجد أن وجودنا داخل نظام القانون الوضعى هو وجـود اضطرارى وغير طبيعى ومؤقت ومن الضرورى التحول عنه بعد السنوات التى مرت — والشريعة الاسلامية محجوبة عن التطبيق — إلى الشريعة الإسلامية نفسها •

ومما يلاحظ أن ما حدث فى تركيا بعد سقوط الدولة العثمانية هو ما حدث فى إيران ، وهـو ما حدث فى الشام (بأجزائه) ، ومصر والسودان والمغرب بأجزائه الأربعة التى وقعت تحت الاحتلال : ليبيا وتونس والجزائر والمغرب •

* * *

بدأ التحول نحو القانون الوضعى منـذ عهد محمد على ، وبعد أن اتسعت صلات مصر بالدول العربية وخاصة فرنسا التى كانت قد هاجمت مصر عام ١٧٩٨ ، وقضت الثورة الشعبية على محاولتها فى احتلال البلاد •

ثم جـاء عصر محمد عـلى ، حيث توقفت الاتصالات السياسـية والاجتماعية فى الغرب على فرنسا بالذات ، وكان والى مصر قـد أوفـد عددا من الطلاب الى فرنسا ١٨٢٨ لدراسة القانون ، وعادوا ١٨٣١ ، بعد أن درسوا : القانون الطبيعى والقانون الدولى والقانون العام والاقتصـاد السياسى والاحصاء والادارة ، فكانوا نواة لرجال القانون الوضعى فى مصر •

وفى عام ١٨٣٦ ، أنشئت مدرسة الألسن ، التى خصص جزء من مناهجها لدراسة القانون ، وقام طلابها بترجمة مجموعات القانون الفرنسى وبعض المؤلفات القانونية ، وقد استمرت الحكومة المصرية منذ ذلك الحين فى ايفاد البعثات الى أوربا لدراسة القانون حتى أنشئت مدرسة الحقوق والإدارة عام ١٨٦٨ ، مندمجة فى مدرسة الألسن ثم انفصلت عنها ١٨٨٢ ، وفى عام ١٨٨٦م حملت اسم مدرسة الحقوق •

وقد كان برنامجها دراسة القانون المدنى المصرى مع مقارنته بالتقنين المدنى لأهم الدول الأوربية ، والقانون الطبيعى والقانون الرومانى وقانون التجارة البحرية والمرافعات المدنية والتجارية وقانون العقوبات وقانون تحقيق الجنايات والمحاسبة التجارية ، وأضيف الى ذلك كله مادة واحدة ، هى الشريعة الاسلامية التى بدت وكأنها جسم غريب فى الكيان الغربى الخالص •

كان يتولى ادارة المدرسة ، ناظر فرنسى ويتولى التدريس أساتذة فرنسيون ، ثم رأس المدرسة ناظر إنجليزى بعد الاحتلال البريطانى ، وأدخلت اليها القوانين الانجليزية ، ثم جرى « تمصير » مدرسة الحقوق بعد الحرب العالمية الأولى حيث حل أساتذة مصريون محل الانجليز ، وفى عام ١٩٢٥ أطلق عليها اسم كلية الحقوق ، وضمت الى الجامعة المصرية (الرسمية) وظلت وما زالت تقوم بدراسة القوانين الأجنبية الوضعية ، مع غلالة صغيرة عن الشريعة الاسلامية لا توحى للدارس بأى أهمية للشريعة الأصلية التى هى أصول الحكم فى هذه البلاد ، والتى غابت عن نفوذها ومكانها منذ سنوات طويلة •

ولقد عاشت كلية الحقوق هذه التجربة القاسية التى فرضت نظاما وضعيا مجافيا لروح هذه الأمة وعقيدتها طوال هذه الفترة ، وفى هذه الكلية تخرج رجال كثيرون عملوا بصدق فى سبيل اعادة الشريعة الاسلامية الى مكانها الصحيح •

واكنت القوانين الوضعية قد صدرت : قانون العقوبات ١٩٠٤ وجدد ١٩٣٧ ، القانون المدنى ١٩٤٨ ، قانون المرافعات ١٩٤٩ وجدد ١٩٦٨ ٠

ويجمع الباحثون للى أن عام ١٨٧٥ ، هو بداية ميدان القانون فى مصر الحديثة ، أى اننا الآن بعد مائة عام ، نحاول أن نؤصـــل هذه العلاقة ونضع المقدمات الحقيقية لدراسة القانون فى مصر والتى هى ضرورية لفهم حقيقة الوضـــع : سياسيا وتربويا ٠

بدأت المحاولة بروح التغريب والاستعمار والسـيطرة على العالم الاسلامى والبلاد العربية ، وتحويلها عن شريعتها القرآنية الربانية التى جاء بهـا الوحى من رب السـموات والأرض ، والتى هى عماد المجتمع الاسلامى ودعامته ، وتجمعت هــذه القوى لفرض القانون الوضعى الذى يحجب كثيرا من القيم الأساسية والضوابط والحـدود التى نظمت بهـا الشريعة الاســلامية المجتمع وحفظته من الأخطار ، ولقد عمـد القانون الوضـــعى الى تغريب هـــذا المجتمع فى مجالات كثيرة وخاصة فى مجال الأسرة ، وعلاقـــات الرجل والمرأة ، والتعامل الاقتصـــادى (الربـــا) والاجتماعى (الزنـــا) ٠

* * *

كان الهـــدف هو تحويل المسلمين والعرب عن الشريعة الاســـلامية كمنهج أصـــيل عاش المسلمون يطبقونه منـــذ بزغ فجر الاسلام ، لذلك فقد كانت أولى شروط استقلال تركيا بعـــد هزيمة الدولة العثمانية ، هـــو ما أشارت اليه شروط « كرزن » بالغاء الشريعة الاسلامية فى نظام الحكم والقضـــاء والاقتصاد واستبدالها بالنظام الغربى والقانون الوضعى ٠

فى الدولة العثمانيـــة :

كانت الشريعة الاســـلامية هى شريعة البلاد لعدة قرون ، الى أن أوقفها مصطفى كمال أتاتورك عـــام ١٩٢٢ ، وحلت بدلا منهـــا القوانين الوضعية التى حلت بمصر ١٨٨٢ ، ولقـــد كان القانون المدنى الذى طبق

فى الدولة العثمانية تحت اسم (المجلة العدلية) عام ١٨٦٩ ، عبارة عن تقنين لاحكام تلك الشريعة أخـذا بمذهب الإمـام ابى حنيفة • وقـد جرى تطبيق أحكامها على جميع رعايا الامبراطورية العثمانية • سواء من المسلمين أو غير المسلمين •

وقد ظلت أحكام الشريعة فى صورة هذا التقنين وهو المجلة العدليـة مطبقة فى سوريا ولبنان ، حتى بعد أن زالت عنهما السيادة العثمانية حتى انقلاب حسنى الزعيم حيث أحل محلها القانون الوضعى عام ١٩٤٩ بعد أن مهد الاحتلال الفرنسى لذلك •

وكانت الثغرة قد جاءت منذ بدأت العهود والمواثيق التى وقعتها الدولة العثمانيـة مع الدول الأوربية عـام ١٥٢١ ، والتى يطلق عليهـا أسم (الامتيازات) •

تلك المواثيق التى حولتها الدولّ الأوربية بعد ضعف الدولة العثمانية فىالقرن ١٨ ، ١٩ من عهود أمان واتفاقات تجارية مؤقتة ، الى امتيازات فعلية استطاع الأوربيون بواسطتها إحكام السيطرة على البلاد والتأثير الخفى فى ثقافتها وسياستها واقتصادها •

نصت هذه العهود التى يُطلق عليها (الامتيازات) ، بصورة عامة ، على السماح للأوربيين بدخول الاراضى العثمانية والاستقرار فى أى جزء من أجزائها ، دونما ضغط أو ازعاج ، والمتاجرة والتنقلّ واستيراد مختلف البضائع ، فلما ضعفت الدولة العثمانية استغلت أوربا تلك الروح الانسانية الكريمة فوسعت حق القضاء الممنوح لها ، حتى أصبح لكلّ دولة قضـاء خاص ينظر حاجاتها ، كما أنشئت المحاكم المختلطة •

وفى مصر : بدأت الحملة على الشريعة الاسلامية ظاهرة منذ جـاء الاحتلال البريطانى ، وكانت تصريحات اللورد كرومر فى تقريره ١٩٠٣ ، التى تراجع عنها ظاهريا فيما بعد عندما واجهته ردود كتاب الاسلام ،

فأشار الى أنه عنى بما كتبه الفقه وليس الشريعة الاسلامية وبذلك فتح الباب واسعا أمام التغريبيين الذين كانوا لا يتجاوزون ما أشار اليه من أن الشريعة لا توافق مدينة هذا العصر ، لا تنطبق على مصالح أهله .

فى نفس الوقت الذى تثبت فيه وقائع التاريخ ، أن حملة نابليون فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى فى مصر ، قد استطاعت عن طريق بعثتها العلمية المرافقة لها أن تنقل أنظمة الشريعة الاسلامية فى المعاملات من بيع ورهن وشراء وهبة وجرائم ، وذلك فى مدونة أطلق عليها (مجموعة قوانين نابليون) صدرت عام ١٨٠٤ ، أرجع الباحثون معظمها الى كتاب فى المذهب المالكى هـو (شرح متن خليل للشيخ الدردير) — رحمه الله .

من هذه النقطة بدأت عملية الاقتباس الغربى الحديث ، حتى جاء كرومر بعد مائة سنة ليهاجم الاصل الـذى أخذت منه أوربا قوانينهـا الحديثة ، وإن كانت قد أعرضت عن العقوبات والحدود . وغيرت فيمـا أخذت كما شاء لها هواها .

هذا القانون الذى قال عنه نابليون : ليس مجدى وفخرى فى أربعين معركة ، ولكن الاثر الذى سوف يبقى خالدا الى أبد الأبدين هـو : القانون المدنى .

وعندما ضيق الخناق على مصر فى أواخر عصر اسماعيل للأخذ بالقوانين الأوربية الوضعية ، جرت محاولة لتطبيق الشريعة الاسلامية غير أنها لم تكن جادة ، ولم تكن فى نفس الوقت مما يرغب فيه النفوذ الاجنبى الزاحف الذى كان يطمع فى أن يجد سبيلا الى السرقة والرشوة والفساد واستعمال الربا والفائدة المركبة .

ويشير السيد رشيد رضا الى (قعود) أهل الأزهر هن اجابة طلب الخديو اسماعيل ، فى تأليف كتاب فى الحقوق والعقوبات ، موافق لحـال العصر ، سهل العبـارة مرتب المسائل ، على نحـو ترتيب كتب القوانين

الأوربية ويشير الى أن رفضهم هذا الطلب هــو السبب فى انشاء المحاكم الاهلية ، واعتماد الحكومة فيها على قوانين فرنسا ، والزام الحكـــام بترك شريعتهم وحرمانهم من فوائدهــا ، وهو السبب فى توجه عــزائم الكثيرين من نابتة الأمة الى درس تلك القوانين فى مصر وأوربا (المنار مجلد ٧ — ص ٢١٢) • وقد أشير فى هذا الحديث الى قول اسماعيل بأن أوربا تضطره الى الحكم بشريعة نابليون ، وأن هذا من أهم آثار سيطرة النفوذ الاجنبى نتيجة الاستدانة »

وهكذا استبدل القانون الفرنسى بالشريعة الاسلامية عام ١٨٨٥ ، وقــد اشترك رفاعة رافع وقدرى باشا ، وصالح مجدى ، فى تعريب قوانين العقوبات والمرافعات ، وتحقيق الجنايات وطبعت جميعها بالمطابع الأميرية عــام ١٢٨٣ هـ •

وقــد حفظ التاريخ لمحمد قدرى باشا أنه اتجه الى تقنين أحكــام الشريعة الاسلامية ، وأنه اشتغل بالتوفيق بين أحكــام القانون المختلط الجديد عن القانون الفرنسى وبين أحكام الشريعة الاسلامية ، وألف كتابا فى تطبيق ما وجد فى القانون المدنى الفرنسى موافقا لمذهب أبى حنيفة •

وقــد وصف محمد قدرى باشا ، بأنه أول من قنن الاحكام الشرعية وبوبها وفهرسها فى مواد مرموقة فى كتبه الثلاث : الاحــوال الشخصية والمعاملات والاوقاف •

ومن الذين عملوا فى هذا الميدان (على أبو الفتوح) ، بكتابه « الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية » ، وفيه دعوة الى اســتخراج « الشريعة الاسلامية ، ووضعها فى أسلوب عصرى صالح للتطبيق •

ولقــد ووجه اتجاه اسماعيل الى التقنين الغربى بمعارضة شديدة ، وكان مفتى الديار المصرية فى طليعة المعارضين فاخرجه الخديو من منصبه •

وبعد (القانون الجنائى) ، اخطر القوانين الوضعية وأشدها مخالفة

للشريعة الاسلامية (وضع عـام ١٨٨٣ ، وأعيدت صياغته ١٩٠٤) ، ثم أعيدت مرة أخرى ١٩٢٧ ، وفى كل مرة تعاد صياغته دون أن يتقدم نحو الشريعة الاسلامية الا خطوات ضيقة ، ذلك لأن المشرع الوضعى قد اعتبر الزنا (الوطء فى غير حلال) عملا مباحا لا مسئولية فيه ولا عقوبـة ولا تعويض ولا يعتبر جريمة •

ولقد بدت القوانين الوضعية منذ اليوم الأول لتطبيقها عـاجزة عن الاستجابة للنفس والمجتمع ، وللطابع المصرى — الذى هو عربى اسلامى أصلا — والذى يستمد مفاهيمه من الشريعة الاسلامية ، ومن هنا جرى التفكير أكثر من مرة فى تنقيح القوانين (الاهلية) وفى كل مرة ينـادى الناس بالرجوع الى الشريعة الاسلامية ، وفى عام ١٩٣٦ ، أدخل النص على أن تكون الشريعة الاسلامية مصدرا تشريعيا من الدرجة الثالثـة ، مسبوقة بالنص القانونى ، ثم بالعرف وهكذا أصبحت الشريعة الاسلامية ضمن المصادر الاحتياطية التى لا يرجع اليها القاضى الا فى حالة عـدم وجود نص فى القانون ولا قاعدة فى العرف •

وفى عام ١٩٢٣ ، جرت محاولة خطيرة ابان وضع الدستور المصرى الأول : تلك الدعوة التى أطلق عليها (مدينة القوانين) ، وهى دعـوى مسمومة طالب أصحابها — وهم من أتباع المحافل الماسونية — محمود عزمى وعزيز ميرهم — بتوحيد التشريع والقضاء ، وجعلها مدنيين فى الاحـوال الشخصية كما فى المعاملات وقد ووجهت هذه الفكرة بمعارضة شديدة فقال الشيخ رشيد رضا (مجلد ٢٣ — المنار) : ان مدينة القوانين هى سعى المتفرنجين الى نبذ بقية الشريعة الاسلامية من مواد الدستور الاساسية : ان دين الدولة المصرية الرسمى هـو دين الاسلام ، وقد ساءت هـذه المواد بعض الملاحدة المتفرنجين • وقام منهم من يقترح أن تؤخذ قوانينها فتجعل كلها مدينة لوضع قانون مدنى للاحوال الشخصية من زواج وطلاق ، والهدف هو ترك الشريعة الاسلامية ونبذها وراء الظهور حتى فى الاحكام الشخصية التى تتعلق بمـا يدين المسلمون ربهم به • هـذا الفريق من

المتفرنجين ، ربيب بعض ساسة الفرنجة الذين سعوا لتحويل حكومة مصر وغيرها عن أحكام الشريعه الاسلاميه فى المعاملات المالية والعقوبات وغيرها واستبدال قوانينهم بها ، فكان لنجاحهم تاثير عظيم على إضعاف مقوماتنا باعراضنا عن أصول التشريع الذى قامت عليه مدنيتنا العربية الزاهرة .

واشــار الى ان هناك خطه استعمــاريه ترمى الى حل (الرابطــة الاسلاميه) فى شعوب المسلمين عن طريقين : أحدهما ، تعليم المــدارس الخاصه بهم كمدارس دعاة المترين فى بلاد الاسلام ومدارس الحكومه التى يسيطرون عليها .

والطريق الثانى : هــو اقناع المتفرنجين من الادباء والكتاب بوجوب الفصل بين الدنن والحكومة ، وبأن الشرع المبنى على أصول الدين لا يصلح لترقى البشر الدنيوى ، وبأن الشرع الاسلامى قــد وضع لأمة بدوية فلا ينطبق على مصالح الناس فى هذا العصر وبوجوب توحيد قوانين الامة وجعلها موافقة لجميع أهل الاديان .

غير أن هذه الصيحة المسمومة لم تلبث أن سقطت بعد أن تكشفت مصادرها .

* * *

عندما أعلن استقلال البلاد العربية ، ونظمت حياتها السياسية وفق النظام الديمقراطى الغربى ، وأنشأت الدساتير نص على أن دين الدولة الرسمى هو الاســلام ، وقــد وضع هــذا النص فى الدســتور المصرى عام ١٩٢٣ ، وهو نص لم يترتب عليه أى التزام من الدولة بتطبيق الشريعة الاسلامية ، (أو على حد تعبير بعض الباحثين ، إن هــو الا بمثابة تحية كريمة للعقيدة الدينية التى تدين بها الاغلبية ، أو كفــارة تقدمها الدولة لعدم التزامها أحكام الشريعة فى قانينها) .

أما تركيا بعد الحرب العالمية الالى ، بعد أن سقطت الدولة العثمانية ، فقد نصت فى دفستورها على أنها دولة علمانية ، كما فعلت لبنان .

غير أنه جد من الامور ما جعل أعادة النظر فى تطبيق الشريعة أمراً لا محيد عنه ، فقد حملت حركة اليقظة الاسلامية لواء الدعوة الى تطبيق الشريعة فى القوانين المعمول بها فى البلاد العربية ، وقد حقق هذا الاتجاه الذى جند عشرات من رجال القانون الذين آمنوا بأن الشريعة هى السبيل الصحيح للحياة القانونية والقضائية . حقق فى سوريا شيئا أضيف الى دستور الجمهورية السورية عام ١٩٥٠ وهو (المادة ٣ فقرة ٢) التى نصت على أن الفقه الاسلامى هو المصدر الاساسى للتشريع (٢) . وقد تابعت دولة الكويت هذا الاتجاه فاعلنت فى دستورها عام ١٩٦٢ ، أن دين الدولة الرسمى الاسلام والشريعة مصدر رئيسى للتشريع ، وقد أخذت مصر بذلك عام ١٩٧١ ، بعد أن استجابت رغبة الشعب فى تطبيق الشريعة ، وكان النص الذى تمت عليه الموافقة هو : الشريعة الاسلامية المصدر الاساسى للقانون ، وجرى تعديل طفيف باستبدال المصدر الاساسى بكلمة مصدر أساسى ، ثم عادت مصر الى الأصل .

وهكذا أخذت الشريعة الاسلامية تستعيد مكانها الاصيل حثيثا ، وظهر تحرك واسع فى انحاء البلاد العربية نحو العودة الى تطبيق الشريعة الاسلامية وفقهها ، وشعور بالتفريط السابق ، وبوجوب الرجوع الى الخط الاسلامى الذى يحمى المسلمون من تألب الدول عليهم .

ويقول الدكتور مصطفى الزرقا : وقد زاد هذا الشعور بعد كارثة ١٩٦٧ التى انهزمت فيها الدول العربية أمام اسرائيل . وقد تألفت فى مصر لجان غير رسمية فى مجمع البحوث الاسلامية فى الازهر من فقهاء المذاهب ورجال القانون لتقنين الفقه الاسلامى من كل مذهب على حدة ، تمهيدا لصياغة قانون مستمد من مجموع هذه المذاهب ، وقد اتجه التغيير فى ليبيا الى الاستمداد من الشريعة الاسلامية وفقهها فى جباية الزكاة ، وفى اعلان بعض الحدود من العقوبات الاسلامية .

وفى المملكة الاردنية جرى وضع مشروع قانون مدنى مستمد من الفقه

الاسلامى بمعناه العام ، كما جرى بحث توحيد التشريع فى البلاد العربية على اساس الشريعة الاسلامية ، وقد أشارت أبحاث عديدة فى هذا الصدد الى أن الجماهير المسلمة كانت دائما قائدة لمسيرة الاتجاه نحو الشريعة ، والعمل بها ، فضلا عما يوجد فى مبادىء الشريعة من عمل وفى ونظام أدق ٠ وقد أدخلت الى القانون المدنى من أحكام الشريعة عدة مواد أهمها :

١ ــ أحكام أهلية القاصر والمجنون والسفيه وذى الغفلة ٠
٢ ــ أحكام نظرية التعسف فى استعمال الحق ٠
٣ ــ مبدأ الحوادث الطارئة ٠
٤ ــ حوالة الدين والابراء منه ٠
٥ ــ أحكام مجلس العقد وخيار الرؤية فى البيع ٠
٦ ــ مبدأ الغبن فى بيع القاصر وبيع المريض : مرض الموت ٠
٧ ــ ايجار الاراضى الزراعية وأيجار الوقف والحكر ٠
٨ ــ غرس الاشجار فى الارض المؤجرة ٠
٩ ــ فسخ الاجارة بالعذر والشفعة ٠
١٠ــ أحكام العلو والسفل والحائط المشترك ٠

ومع ذلك فان القانون الوضعى فيه تخلف كبير عن الشريعة الاسلامية فى احكامها ، وفيه نقص عنها ومخالفة لها ٠

* * *

ان من أبرز عيوب القانون الوضعى السائد الآن فى العالم الاسلامى كله ، أنه لا يستوآعب فكرة تحرير الانسان ورفعه عن الماديات والاهواء على النحو الذى قصدت اليه الشريعة الاسلامية ، من أجل ذلك تجد أن هناك بنودا كثيرة تخالف الشريعة الاسلامية وتترك فجوات واسعة دون احكام ، وخاصة موقف القانون الوضعى من السرقة والقذف والزنا

والسـكر وبيع الخمر وترويجها والحرابة والقتل والربا وأكله والتعـامل معه والردة

والقوانين الوضـعية حين تقدم الأحكام فى هـذه المواد فانها تجىء عاجزة عن تحقيق أمن المجتمع وسـلامة الفرد ، بذلك تتعـارض مع غاية الشريعة الاسـلامية ، وقد أجاز القـانون المدنى الحالى أمرين يخالفان أحكام الشريعة الاسـلامية مخالفة صارخة :

أولهما : أجاز تقاضى فوائد ربوية فى الديون المدنية والتجـارة بحد أقصى هو سـبعة فى المـائة • والربا فى مفهوم الاسـلام : هو أبشـع أنواع اسـتغلال الانسـان لاخيه الانسان ، وقد حرم الله الربا بنصوص قطعية كما حرم كل أنواع المققامرة (الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) البقرة : ٢٧٥ •

ثانيهما : أنه أجاز بعض أيواع المقامرة

أما فى القانون الجنائى فان هناك فجوات واسـعة تتيح الفرصـة لاكبر افسـاد اجتماعى للاسرة والعرض ، فان القوانين الحـاضرة تقضى بعـدم توقيع العقوبة على الزانية اذا كانت سـنها ثمانية عشرة سـنة فصـاعدا اذا حدثت الجريمة برضـاها وكانت غير متزوجـة ، أو كانت متزوجة ولم يرفع زوجهـا الدعوى عليها أو قام بالاجراءات ثم أوقفها •

وتقضى هـذه القوانين كذلك ، أنه لا توقع عقوبة على الزانى اذا زنى بأمرأة غير متزوجة برضـاها ، وكانت سـنها ١٨ سنة فصـاعدا ، أو زنى بامرأة متزوجة ولم يرفع زوجهـا الدعوى •

كذلك لا توقع عقوبة على الزانى المتزوج فى الحـالات السابق ذكرها اذا ارتكب جريمته فى غير منزل الزوجية ، أو ارتكبها فى منزل الزوجية ولم ترفع زوجته الدعوى عليه •

وتقضى هـذه القوانين كذلك أنه لا توقع عقوبة على هاتك العرض اذا كان من هتك عرضـه ذكرا أو أنثى قد بلغ ثمـانى عشرة سنة ووقعت الجريمة برضـاه ، ويقصد بهتك العرض مـا يقع بين الذكر والذكر من أعمـال الشذوذ الجنسى ومـا دون المواقعة من الاعمـال الجنسية التى تقع بين الذكر والانثى •

هـذه الحالات التى يعفى فيهـا الزانى والزانية وهاتك العرض من العقوبة بحسب القـانون الوضعى تشتمل فى الواقع على معظم الحـالات التى تحدث فيهـا هذه الجرائم • فقانون العقوبات المصرى قـد أعفى اذن من العقوبة جرائم الزنا وهتك العرض والشذوذ الجنسى •

وهذه المواد مقتبسة من قانون العقوبات الفرنسى ، وعن هـذا القانون استخدمت معظم القوانين الأوربية و الأمريكية •

وقد وضـعت هذه المواد فى القوانين التى صـدرت فى مصر والبلاد العربية إبان الاحتلال ، وقصـد بها فتح الباب واسـعا أمام افسـاد المجتمعات الانسـلامية استهدف بهـا الاستعمار القضـاء على مقومـات المجتمع ، وتغيير العرف الاسـلامى القائم على القيم الاخلاقية المسـتمدة من الدين ، وقد نقلت أسـاسا من القوانين الغربية التى وضعت لمجتمع غير مجتمعنا ، ولعرف غير عرفنـا ، وفى ظل ظروف تختلف تماما ، فالمجتمـع الاسـلامى يقدس العرض ، ويكرم العلاقة بين الرجل والمرأة ويضعها فى أعلى مكـان ، ومن المسلم به أن القانون فى أمة من الامم ، انمـا يسـتمد مواده من قيم المجتمع وأخلاقياته وعاداته وأعرافه ، ولما كانت هـذه القيم والاعراف فى المجتمع العربى والاسـلامى غاية فى الرعاية للفضـيلة فان هذه المواد تشـكل تعارضا شديدا مع هذه القيم •

والمعروف أن الاستعمار عندما أقر هـذه القوانين • كان يسـتهدف أن تكون هـذه البلاد مشاعا لكل الامم ، وكانت الانظمة والقوانين توضـع بهدف اسـتغلال هـذه البلاد لفائدة الاغيار ، ومن هنا كانت الحمـاية

القانونية التى تتمتع بهـا الحانات وبيوت الدعارة ، مما لا نظير له فى البلاد العريقة فى الإباحيه والفوضى ، كل ذلك وليد سـياسة الاسـتعمار التى ترمى الى هـدم القيم الاسلامية بحصانة القانون .

ولا ريب أن عقوبات الشريعة الاسلامية فى هذا المجال وغيره عقوبات زاجرة رادعة ، بينما عقوبات القوانين الوضـعية ، هى أقرب الى الإغراء بالمعاصى ، والتسـاهل فى غشـيان الفواحش والآثام منهـا الى الزجر والـردع .

ولا ريب أن مقصـد الشريعة الاسـلامية من إقامة الحدود واضح . وهو حمـاية الاعراض والانسـاب وصيانة العقول والاموال ، وقد ثبت عجز القوانين الضـعية عن اصلاح المجتمعات .

ولا ريب أن شـوع الزنا والفاحشـة وشرب الخمور وتفشى سرقة الاموال ، هى نتيجة ضـعف العقوبات فى القوانين الوضـعية ، ونتيجة أنها ليست زاجرة ولا رادعة .

وليس صحيحا مـا يقال من أن تنفيذ الحدود يخلق فى المجتمعـات الانسانية مجتمعات تسودها القسوة والإذلال ، وشيوع العاهات ، قد أحاط الشـارع هذه الحدود بشرط وتحوطات جعل تنفيذها يتم فى حدود ضيقة . ولقد كانت المجتمعات الاسـلامية ابان تنفيذ الحدود ، تمر بهـا الاعوام والاعوام دون أن يرجـم أحد أو يجلد أو تقطع يده لان العقوبة الرادعة تحول دون وقوع الجريمة .

* * *

لقد تنبه علماء القانون الغربيون الى عظمة الشريعة الاسلامية ووفائها بحاجات المجتمعـات منذ وقت بعيد ، وتوالت كتاباتهم وتعالت صيحاتهم فى نفس الوقت الذى كانت فيه البلاد الاسـلامية مقيدة بسلاسل القوانين الوضعية ، لا تسـتطيع منها فكاكا ، ويكفى أن أعترف بالشريعة الاسلامية

كمصدر عالمى للتشريع والقــانون عدد من المؤتمرات التى عقدت منذ عام ١٩٣٢ الى اليوم :

* القانون المقارن الدولى فى لاهاى عام ١٩٣٢ ٠
* مؤتمر لاهاى المنعقد فى عام ١٩٣٧ ٠
* مؤتمر القانون المقارن فى لاهاى سنة ١٩٣٨ ٠
* المؤتمر الدولى عام ١٩٤٥ فى واشنطن ٠
* شــعبة الحقوق بالمجتمع الدولى للقانون المقارن ١٩٥١ بباريس ٠

وقد صدرت عن هذه المؤتمرات قرارات متعددة :

١ ــ اعتبار التشريع الاســلامى مصدرا رابعا لمقارنة الشرائع ٠

٢ ــ الشريعة الاســلامية شريعة مســتقلة ، وصالحة لمجــاراة التطور الحديث ٠

٣ ــ الشريعة الاسلامية قائمة بذاتها لا تمت الى القــانون الرومانى أو الى شريعة أخرى ٠

٤ ــ صلاحية الفقه الاسلامى لجميع الازمنة والامكنة ٠

٥ ــ تمثيل الشريعة الاسلامية فى القضــاء الدولى ومحكمة العدل الدوليــة ٠

ومنذ وقت بعيد أشــار علماء القانون الى سماحة الشريعة الاسلامية واتساعها وأثارها البعيــدة على السلام والعدل العالمين ، وهــذه عبــارة الاستاذ ((لامبير)) الفقيه الفرنسى المعروف ، فى المؤتمر الدولى للقانون المقارن فى لاهاى عام ١٩٣٢ ، حين أشــار الى ظاهرة التقدير الكبير للشريعة الاسلامية الذى بدأ يســود بين فقهاء أوربا وأمريكا فى العصر الحــاضر ثم قال : ولكنى لا أرجع الى الشريعة نفسهــا لأثبت صحة مــا أقول ، ففى هذه الشريعة عناصر لو تولتهــا يد الصياغة فأحسنت صياغتها ، لصنعت

منهــا نظريات ومبادىء لا تقل فى الرقى والشــمول وفى مســايرة التطور عن أخطر النظريات الفقهية التى تتلقاها عن الفقــه الغربى اليوم ، وفى مقدمة هــذا :

١ — نظرية التعسف فى استعمال الحق .

٢ — نظرية الظروف الطارئة .

٣ — نظرية تحمل التبعة .

٤ — مسؤلية عدم التمييز .

فان لكل نظرية من هــذه النظريات أساســا من الشريعة الاسلامية لا تحتاج الا الى الصياغة والبناء .

* * *

واليوم والامة الاسلامية العربية تتجه نحو العودة الى تطبيق الشريعة الاسلامية ، نجد أن هناك محــاولات تبذل للحيلولة دون ســلامة هــذه العودة ، بأراء تتحدث عن أســلوب يرمى الى تعديل القــانون الوضعى القائم ، والرأى الاصــواب هو (إنشــاء قانون اسلامى أصــيل) ، فى متابعة ومصــادره ومواده ، ذلك لان القــانون الوضــعى لا يصلح أصلا لمشروع تشريع اســلامى ، لأن مصطلحات القانون الوضــعى تختلف فى معــاينها عن مصطلحات الشريعة الاسلامية ، ذلك أن القــانون الاجنبى صــادر عن عرف خاص وبيئة خاصــة وفلسفة خاصة يختلفان كثيرا أو قليلا عن الروح الاســلامية ومن ثم فان إقرار مــا يبدو منه فى ظاهره متفقا مع الشريعة الاسلامية يجر حكما خاضعا للروح الغربية التى صــدر عنها القانون الوضــعى . كذلك فان القانون الوضــعى يعبر عن قيم اخلاقية معينة ســادت فى المجتمع الغربى فى عصر من العصور .

أما القــول بتنقية القوانين الموجودة بمــا فيها من أحكام متعارضة مع أحكام الشريعة فهو رأى تغريبى ، فالقوانين الوضــعية لا تجدى معنا

تنقية لانعدام الصلة بينها وبين الشريعة الاسلامية حتى فى الأحكام التى تبدو أنها تتفق مع أحكام الشريعة ، ومحاولة تنقيتها مما يكون فيها من أحكام متعارضة مع أحكام الشريعة خطوة خطيرة • وهى فى الحقيقية محاولة إسباغ الشريعة على باقى الاحكام والاغراق فى الوهم بالتماثل والتشابه بينها وبين الشريعة مع اختلاف نسيج هذه عن نسيج تلك اختلافا واضحا مبينا ، كذلك فان القوانين الوضعية المسماة باسم الشريعة قد يرسخ فى الاذهان بعد مدة أنها أحكام شرعية بالرغم من البعد بينهما بعد المشرقين •

لذلك فان الضرورة تقضى ، بأن يكون الفقه الاسلامى فى منطقه وصياغته وأسلوبه فقها اسلاميا خالصا ، لا مجرد محاكاة للقوانين الغربية ، ومن ثم فان القوانين الوضعية لا تصلح أساسا لتقنين شرعى ، فهى لا تجدى معها تنقية ، ولا يصلحها ترقيع ، ولابد من وجود قوانين اسلامية لحما ودما نابعة من واقع الشريعة الغراء ، ولذلك فنحن نرحب بمجموعة القوانين الاسلامية التى أعدها المستشار على على منصور لدولة الامارات العربية المتحدة ، والتى نأمل أن ترى النور فى القريب ان شاء الله •

الفصــل التاســع

من علمانية التعليم الى اسلامية التعليم

ان احتواء التعليم فى اطــار التغريب قد حقق مجموعة من الاهداف فى وقت واحد :

أولا : القضــاء على « الذاتية الاســلامية » المتسـمة بأخلاقهـا وايمانها بالله وصــدق الوجهة ، فى التعرف على الحقيقة الاساسية ، وهى : ان الله تبارك وتعالى هو الخالق ومن وراء كل معطيات الحضــارة ، وليست القوانين الجبرية التى يدعى أنها تحكم مسار الكن دون تغيير •

ثانيا : القضــاء على « الفصــاحة العربية » التى أوجدتها منابــع البلاغة العربية ممثلــة فى القرآن الكريم والســنة النبوية وذلك بعد أن استطاعت وســائل التعليم الحــديث أن تقطع الشباب المســلم عن تراثه جميعــــه •

ثالثا : القضــاء على « الاحساس بعظمة العطاء الذى قدمته الامة الاســلامية » للبشرية حين قدمت اليها منهج الحضارة الذى حرر الانسان من عبودية الانسان وحرر العقل البشرى من العبودية للوثنيات والخرافات والاســاطير وأعظمهم هذه المعطيات انشــاء المنهج التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الغربية المعاصرة •

رابعا : القضــاء على تمثل « الدور التاريخى الذى قام به الاسلام » حين نشر عقيدة التوحيد فى العالمين ، فأخرج هــذا العالم من ظلمات الوثنية والاباحية والرهبانية الى مفهوم الحرية والكرامة والعمل والســعى فى الارض •

ومــا كان لابطال الاسلام من دور فى تقديم الاســلام للبشرية ، وحمله الى أقصى الارض بروح الايمان واليقين والصدق والجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الله •

لقد استطاع احتواء المناهج التعليمية الوافدة القائمة على النظرية المادية ،المنكرة للدين الاخلاق وبناء الفرد على القيم والمثل ، هذا الاحتواء للمدرسة الاسلامية بفرض مناهج الغرب ، كان له أبعد الاثر فى تدمير الشخصية الاسلامية الناشئة وحرمانها من التعرف على حقيقتها ودورها وهدفها •

وفى هذا يقول مستر نيروز أحد رؤساء الجامعة الامريكية فى بيروت : « لقد برهن التعليم على أنه أثمن الرسائل التى استطاع الميشرون ان يلجأوا اليها ، فى سعيهم لتنصير سوريا ولبنان ، أن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقى مقدس أمرا صعبا جدا » •

وما يتحدث عنه المبشر الامريكى ليس قاصرا على سوريا ولبنان ولكنه منبث فى أنحاء العالم الاسلامى من أرخبيل الملايو والجزيرة الهندية الى تركيا الى مصر الى شمال افريقيا الى الجزائر والمغرب •

فان خطة السيطرة على المناهج التعليمية التى قام بها النفوذ الاجنبى (وورثها لمن جاء به من حكومات وقيادات نشأت فى اطار الايمان بالغرب والاعجاب به والتسليم له) قد شملت مختلف الميادين من السلوك الفردى الآداب الاجتماعية الى الآداب والفنون •

وقد تحولت الاساليبمن التبشير المباشر الى التبشير الخفى الذى يتصل بالثقافة والصحافة حيث يقوم الكتاب التغريبيون بأداء دور خطير فى تحويل الاهداف الماسونية الى حقائق مطبقة •

وقد أسهمت المنظمات الدولية فى هذا المجال بما فى ذلك الامم المتحدة ، واليونسكو ، والتربية الاساسية على وجه الخصوص ، التى تعتبر امتدادا لمخططات ترمى الى فصل الدين عن الدولة ، وتخريج شباب متميع منهزم خاضع للاهواء والشهوات •

وقد استعانت على ذلك بالمسرح والسينما والاذاعة والتلفاز ، بما

يحيط بالعقل والقلب من كل أقطاره ، ويسيطر على ويفرض عليه سمومه ، وبذلك استطاع النفوذ الاجنبى المستخفى اليوم وراء هذه المنظمات والمؤسسات تطويع برامجنا التعليمية لكثير من أهدافه وأغراضه .

ولم تستطع الدول المحتلة — بعد لااستقلال — أن تحرر ارادتها أو تحقق وجهتها فى التماس أسلوب التربية الاسلامية ذلك لان النفوذ الاجنبى قد أسلم قيادة الثقافة والصحافة والتعليم فى أغاب بلاد الاسلام الى مجموعة من أهل الولاء للغرب — بشقيه : الشيوعى والرأسمالى — فهم مستغربون أكثر من الغربيين أنفسهم وهم يقدمون سمومهم تحت اسم التجديد والعصرية والتقدمية .

مواجهة التخطيط :

ومن أجل هذا الخطر فقد أوصت مؤتمرات عديدة ، عقدت فى السنوات الاخيرة ، لدراسة هذه التحديات بانشاء هيئة علمية على مستوى العالم الاسلامى، تعمل على التحرر من الاستعمار الفكرى والثقافى وصياغة المناهج التعليمية وفقا للعقيدة الاسلامية .

ولا ريب أن هناك ثلاث تحديات خطيرة تواجه الامة الاسلامية فى هذا المجال :

أولا : منهج علمانى قومى فى البلاد .

ثانيا : الارساليات المفتوحة فى البلاد العربية تلتقط أبناء المسلمين .

ثالثا : شبابنا المسافر فى بعثات الى الغرب .

أما المنهج العلمانى القومى : فانه ميراث قديم تشكل ابان الاحتلال الاجنبى للبلاد الاسلامية ثم لم تتمكن هذه البلاد بعد استقلالها من التحرر منه ، وقد قام أولا :

على الاقتباس من مناهج الارساليات ومدارس التبشير ، التى كانت

قد شكلت منهجها على أساس اخراج شباب المسلمين من دينهم ، ثم جاء المبشرون الفرنسيون والانجليز والهولنديون ،فسيطروا على مناهج التعليم الاسلامية التى كانت مبثوثة فى المدارس القومية فأزالوا منها كل ما يتصل بالدين والاخلاق والتاريخ وعظمة الاسلام والامة الاسلامية واللغة العربية .

وفى بعض البلاد أعدمت هذه الكتب السابقة لعهود الاستعمار حتى لا يبقى لها أى أثر فى دور الكتب القديمة كتراث يمكن الرجوع اليه أو التعرف على وجهة هذه المناهج أو يقيم مقارنة بينها وبين ما صنعه الاستعمار .

وقداعتمدت المدرسة الوطنية بعد الاحتلال على مناهج الارساليات مع تعديلات يسيرة ثم جاءت موجة (مذهب ديوى) وتشكلت معاهد التربية التى فرضت على المعلمين أن يتخرجوا منه ، فانداحت تلك الفكرة المسمومة الخبيثة فى مجالات التعليم فى العالم الاسلامى وهى حجب الاسلام أو مفهوم الدين والاخلاق عن هذه المناهج .

ويبقى الخطر الثالث قائما : وهو المتمثل فى أبنائنا الذين تتلقفهم مؤسسات التبشير والاستشراق فى عواصم العالم الغربى لتشكلهم كما تشاء ، حتى يكونوا على ولاء لاهدافها وهم يتابعون بعد عودتهم بالمناصب والمؤتمرات والجوائز والنياشين ويردون عنهم أى خطر يتهددهم حتى يحققوا أهداف التغريب فى مجال التعليم على النحو المنشود .

حقيقة المنهاج التغريبى :

أما المنهج الغربى الذى أعتمدته المناهج المدرسية ، فهو شىء مختلف تماما عن منهج الاسلام فى التربية وفى الحياة ، فالتعليم الغربى يحمل روحا مستقلة ، ويعبر عن أفكار أهل الغرب ومجموع أقدارهم وقيمهم ، فاذا طبق فى بلاد مسلمة أو مجتمع اسلامى فانه يحدث صراعا

عقليـــا يتدرج ثم يتدرج الى تدمير العقيـــدة والى خلـــق الردة الفكرية والدينية .

يقـــول الاستاذ محمد أســـد (المعروف باسم ليوبولد فابس) : ان الاسلام والمدينة الغربية يقومان على فكرتين فى الحياة متناقضتين تماما ، لا يمكن أن يتفقا ، فاذا كان ذلك كذلك ، فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئةأحداث المســـلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة فى مجموعها على التجـــارب الثقافية الاربية ، على مقتضياتها ، خالصة من شائب النفوذ المعـــادى للاســـلام .

ان التنشـــئة الغربية لاحداث المسلمين ستقضى حتمـــا الى زعزعة ارادتهم فى أن يعتقـــدوا ، أو أن ينظروا الى أنفســـهم على أنهم ممثلوا الحضارة الربانية الخاصـــة التى جاء بهـــا الاسلام ، وليس ثمة من ريب فى أن العقيدة الدينية اخذة فى الاضـــمحلال بسرعة بين المتنورين الذين نشأوا على أسس غريبة .

وقد أشـــار أحد الباحثين الى أنه بمراجعـــة المناهج التى تدرس للمســـلم فى المدارس الاعدادية والثانوية نجد الآتى :

أوربا (٣٧٠ صفحة) .

الحضارة الاســـلامية ٢٥ صفحة .

الثورة الفرنسية ٣٥ صفحة .

الدعوة الاسلامية ٢٣ صفحة .

نابليون ١٦ صفحة .

عمر بن عبد العزيز صفحة واحدة .

فاذا ذهبت تبحث عن مضمون الحضـــارة الاسلامية ، وجدتها كلها تنصب على القول بأن المســـلمين أخذوا فكر أرسطـــو وأفلاطون ، وأنه

مصـــدر فكرهم الاســـلامى ، وأن المعتزلة والفلاســـفة هم الذين أنشأوا الحضـــارة الاسلامية ، وان هـــذة الحضارة لم تلبث أن انهزمت عندمـــا ســـقط المعتزلة وجـــاء أمثال الغزالى وابن تيمية •

هذا مـــا يقال عن فكرنا وحضـــارتنا ويتعلمه أبنائنا على صـــورة جماعة من المغامرين المندفعين الى الصراع والقتل والتآمر •

« وقد أدرك أعداء الاســـلام أن النظام التعليمى والتربوى له أثره الفعال فى توجيه حاضر الشـــعوب الاسلامية ومستقبلها نحو المصـــير • نجد ذلك فى مؤتمرات اليهود فى بازل عام ١٨٩٧ ،حين أكد حكماء صهيون أن أفضـــل طريقة لتحقيق سيطرتهم على الشـــعوب الاخرى هو التأثير على النظام التعليمى والتربوى بتدريس الناشئة التاريخ القديم ، المشتمل على المثل السيئة أكثر من اشتماله على المثل الحسنة ، وعلى ضرورة طمس العصور المضية فى ذاكرة النشء الجديد التى قد تكون معارضة لمخططات اليهود وأمانيهم فى تحقيق السيطرة على العالم •

وليس اليهود فقط هم الطامعون فى تزييف أهداف التعليم الاسلامى ، وانما يشترك فى ذلك النفوذ الغربى القائم على مفهوم التبشير والتنصير والاستشراق الذى يطمع دائما فى تصوير الاسلام على أنه دين عبادى وليس دينا ودولة •

ويجرى مغالطته على محـــاولة تزييف منهج الاسلام الاجتمـــاعى والسياسى وذلك بـــاقامة القانون الوضعى بديلا للشريعة الاسلاميـــة واقامة منهج الربا فى الاقتصاد الاسلامى ، ومنهج التعليم العلمانى بديلا عن التعليم الاسلامى •

وقـــد جاءت موجة الغزو الماركسى لتحمل معها مفاهيم مســـمومة للثقافة والتعليم ترمى الى تفسير يقوم عـــلى المقاييس المادية ومحاولة القول بأن الفتح الاسلامى كان بهدف البحث عن الطعام •

أهداف التزييف :

وهكذا تتكاثف القوى الغاضبة على تزييف منـاهج التعليم والتربية والثقافة فى العالم الاسلامى ، وذلك كله انما يهدف الى تخريج شباب غير مؤمن بوطنه أو دينه أو تاريخ وقيم وأمجاد أمته •

وقـد احتقر هذا الوجود والتاريخ كلـه ، بينما عرف عن الغرب وأبطاله ومواقعه وخاصة الثورة الفرنسـية أكثر مما يعرف عن الدعـوة الاسلامية وعن نابليون أكثر مما يعرف عن خالد ابن الوليد ••

وما تزال كتب التـاريخ المقررة فى مدارسنا تحوى كثيرا من هـذه السموم حيث تركز على المواقع التى تتعرض للخلافات والخصـومات والحركات المضادة للاسلام ، مع أن هذه الصفحات كلها لا تصل الى جزء من معطيات الاسلام وايجابياته وحضارته وثمراته الباذخة ، ولكنها محاولة لتصوير التاريخ الاسلامى بصورة سوداء قاتمة فى نفوس الشباب المسلم ، وكيف لا ؟ اذا كان الذين يدرسون له هذه المادة ماركسيون أو ذوو ولاء فرنسى أو بريطانى أو يهودى أو كانوا هم فى ذاتهم غير مسلمين •

مغالطات ومفارقات :

وفى دراسة الجغرافيا تجد أن ما كتب عن الولايات المتحدة متضاعف عن مجموع بلاد الوطن الاسلامى •

ويمتد هذا المخطط الهدام الى مجالات الكيمياء والفزياء والرياضيات فلا ذكر فى هذه الدراسات للدور الهام والخطير الذى قام به المسـلمون منشئو المنهج العلمى التجريبى ، وانما يبدأ البحث من المرحلة التى تولاها الغربيون وتبدو المسألة غاية فى الصعوبة والغرابة حين يكون معروفا للعالم كله واعتراف المنصفين من كتاب الغـرب فى العصر الحديث (درابر — هونكة — جوستان لوبون ••• الخ) ان علم الفيزياء انما أوجده المسلمون ، فالحسن بن الهيثم هو واضع علم البصريات ، وكثير من مكتشفاته لم يضف اليها العلم الحديث أى شىء •

وفى المناهج الاخرى عن الرياضيات والفلك والتقدم العلمى لا يذكر مطلقا اية منجزات للحضارة الاسلامية مما سبقت فيه الغرب بقرون ٠

ولا يذكر مثلا ان (ابن النفيس) هــو الذى اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل ولادة (وليم هارفى) الذى يقترن اسمه باكتشافها بثلاثة قــرون ٠

ولا يعلم الطالب المسلم أن (الرازى) هو الذى أجرى أدق العمليات الجراحية للعيون بأدوات جراحية دقيقة تثير الدهشة والاعجاب ٠

ولا يوضح أن ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والنحل » قــد اثبت كروية الارض بدلائل من الكتاب والسنة قبل تسعة قرون ٠

ولا يدرس طلبة الجغرافيا أن قطر الارض ومحيطها قد قيسا على عهد المأمون على أيدى محمد وأحمد إبنى موسى بن شاكر ٠

هذا جزء يسير مما حاول خصوم العرب والمسلمين طمسه ، بتزييف مناهج التعليم فى المدارس الوطنية مما لا يزال كثير منه قائما الى الان فى الكتب ، وذلك فى محاولة لتفريغ عقــول الناشئة من أمجاد أمتهم ، وحتى يؤمنوا بأن الغرب هو الذى صنع هذه العلوم ٠

ومن هنا يتكشف للباحث المتعمق أن : القول بدراسة الدين فى المدارس وحتى الجامعات هو انجاز هام ، فان حركة اليقظة الاسلامية تتطلع الى أن يصبغ الاسلام كل ما تقدمه المناهج من المدرسة الابتدائية الى أرقى درجات التعليم الجامعى ، وانه لا يمكن فصل الاسلام عن دراسات : (١) اللغــة (٢) التاريخ والجغرافيا (٣) العلوم والتكنولوجيا (٤) علوم الاجتماء والنفس والاخلاق والاقتصاد والسياسة والتربية ٠

وأنه فضلا عن دور المناهج الوافدة فى عزل دور المسلمين الايجابى والاساسى فى بناء هذه المناهج ، فانها تصوغ الفكرة فى أغلب هذه الدراسات

على عزل روح الاسلام ، ووفق مفهوم الفلسفة المادية التى تقوم على المحسوسات والطبيعة ، وليس فيها روح الايمان بالله خالق كل شيء والنائم على نواميس الكون وسننه ، والقادر على تحويلها كذلك ، أما فى علوم النفس والأخلاق والاجتماع والنقد الأدبى ، فان نوع الانسان يدرس على أنه حيوان يضطرم بشهوتى البطن (الماركسية) والجنس (الفرويدية) وهما اللذان يتحكمان فى كل تصرفاته ، فردا وجماعة سلما وحربا وتقدما وهزيمة ٠

بينما نرى المفهوم الاسلامى يختلف عن ذلك اختلافا كبيرا ، ويجعل للروحيات والمعنويات وللعقيدة الدينية والاخلاق آثار كبيرة فى تفسير الاحداث والوقائع وتحولات المجتمعات وهزيمة الامم وسقوط الحضارات ٠

وفى مجال العلوم الاجتماعية : يجرى المنهج الذى تدرسه جامعاتنا ومدارسنا على مفهوم غربى خاطىء بالنسبة لعقيدتنا وقيمنا ، وان كان مقبولا فى الغرب ، وهو أن المجتمع ظاهرة متطورة يصنع مبادئه بنفسه ولا يأخذها من الله تبارك وتعالى ، وعلى هذا الاساس تكون الاخلاق من صنع المجتمع غير مفروضة عليه ، ولا يكون لها مفهوم روحى ، ويكون عمل عالم الاجتماع أن يسجل الواقع المتطور للمجتمع ، وقد تقدم لهذا المجتمع قواعد للسلوك مستمدة ، من القواعد التى يمنحها العلم ٠

ووفق هذا الاتجاه فليس من المنطق العلمى أن يقال : ان الواقع صحيح أو خطأ أو صالح أو سيء ٠

كما يصبح (الدين) مجرد ظاهرة من ظواهر المجتمع ، تملأ فراغا فى نفس الفرد ، وهو قابل للتطور مع التطور الاجتماعى ومع متطلبات العقل البشرى ٠

هذا المفهوم المادى كله مضاد لمفهوم الاسلام فى علم الاجتماع ، الذى يقوم على أساس المفهوم القرانى للانسان وعلاقته بالآخرين ، وعلى أساس النظر الى السلوك نظرة واقعية يفرق فيها بين الصحيح والخاطىء وعلى أن يوجه المجتمع الى الطريق الصحيح ٠

والمعروف أن الاخلاق فى الاسلام جزء من بنائه لها ثباتها وليست من صنع المجتمع ، ولذلك فهى لا تتطور وهى أمر من أمر الله وليست ظاهرة تتغير بتغير الزمان أو المكان .

وفى المفهوم الاسلامى لعلم الاجتماع لا يمكن فصل التطور الاجتماعى عن المسئولية الاخلاقية ، والفرد فى الاسلام لا يخضع لأوضاع المجتمع اذا انحرفت ولكن عليه أن يغير هذا الواقع بالتماس مفهوم الاســلام الصحيح .

وفى دراسة العلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ : يجب أن تكــون روح القرآن واضحة على أساس أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق والصانع وان الكون فى قبضته تبارك وتعالى ، وان الحياة فى هذه المجتمعات يجب أن تقوم على أمره ، وان يسعى الانسان فى الكون لاقامة المجتمع الربانى ، وان يلتزم بالمسئولية الفردية والاجتماعية والاخلاقية التى تقرر الجــزاء الأخروى والبعث والحساب بعد الموت .

ولابد أن تقوم دراســات الحضارة والتاريخ على : أن لله تبارك وتعالى سننا لا تتغير ، وان لحياة الامم وتقدمها وكبوتها قانونا حاسما ، وان كل أمة تغرق فى الترف والتحلل وتغفل عن المرابطة والقيام على حدود الله ، بالاعداد والتأهب للجهاد ومدافعة الاعداء لابد أن تعاقب بالسقوط والهزيمــة .

ولابد أن تتجه العلوم الطبيعية لتكون أداة لاثبات قدرة الله وتوحيده وهو عكس ما نراه اليوم مطبقا فى مناهج التعليم .

منهج العقيــدة :

وليس ارتباط مناهج التعليم بعقيدة الامة ونظرتهــا العامة بالامر المستغرب ، أو أنه مطلب جديد ، بل هو ما تفعله كل أمة .

فاليابـــان البوذية والهند البرهمية وروســـيا الشيوعية واسرائيل الصهيونية ، وكل أمـــة قد جعلت التعليم والثقافة مصطبغان بصبغتهـــا الحضارية وفلسفتها العقائدية فلماذا بعد المسلمون وحدهم عن عقيدتهم ، ولماذا هم الخاضعون للمناهج الوافدة ماركسية أو غربية ، وهم يملكون أعظم المناهج وأرقاها وأصلحها لسعادة البشرية •

ففى روسيـــا :

لم تأخذ بمبدأ التعليم والتربية من حيث هو مبدأ انسانى عالمى ، ولم يسمح باستيراد منهج من مناهج التعليم من خارج المعسكر الشيوعى ، ولا بادخال العلوم والآداب التى نشأت فى حصانة الليبراليين أو الرأسماليين • خوفا من أن تضعف مفاهيمهم ونزعاتهم العقيدة الشيوعية أو تشكك فيها •

لقد أخضعت روسيا جميع العلوم والآداب النظرية فيها والتطبيقية ، حتى علوم الطبيعة والجغرافيا والتـــاريخ لمبادئها الشيوعية ولنظريـــات قادتها ومؤسسى دعوتها (ماركس ، وانجلز ولينين) وربطت بين هـــذه العلوم وبين أسس أولئك القادة رباطا وثيقا مقدسا ، على حد عبارة الكاتب الذى نقلنا عنه هذا النص — فهى تغار عليه غيرة المؤمنين القدامى عـــلى عقائدهم وحرماتهم يقول « جورفين » العالم الطبيعى السوفيتى :

« ان العلم الروسى ليس قسما من أقسام العلم العالمى ، أنه قسم منفصل قائم بذاته يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف فان سمة العلم السوفيتى الاساسية أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة •• ان التحقيقات العلمية لا تزال فى حاجة الى أساس وان اساس علومنا الطبيعية : « الفلسفة المادية » التى قدمها ماركس وانجلز ولينين وستالين • أننا نريد أن نخوض وفى أيدينا هذه الفلسفة فى معترك العلم الطبيعى ونصارع جميع التصورات الاجنبية التى تناهض فلسفتنا المادية والماركسية بكل حزم وقوة •

وبذلك استطاعت المناهج التربوية والتعليمية الروسية أن توفق بين

العلوم التى احتاجت اليها والمبادىء التى آمنت بها ، وجعلت منها وحدة متناسقة ولم تترك فجوة بين الحياة التى تعيشـــها أو تسعى اليهـــا وبين المبادىء التى تؤمن بها ، وتدعو اليها فى حماسة فسلمت من الاضـــطراب الفكرى الذى يسود فى عالم تتوزعـــه القوى المتناقضة ويسوده النفـــاق والتناقض .

وكذلك اسرائيل بعد الاتحاد السوفيتى تقيم منهج التعليم من أصل دعم نظرية الصهيونية ، وتقوم على أساس احياء لغة ماتت منذ ألف سنة تقريبا فى كافة المواد ، والعناية بالدراســـة الدينية — لاثبات البـــاطل فى العقل الباطن — ورغم اختلاف الاحزاب فهى تلتقى جميعهـــا فى الفكـــرة الاساسية ، ويرى بعضهم أن التقاليد اليهودية هى النبراس الذى ينبغى أن تستهدى به نظم التعليم وتحتم بعضها على المعلمين أن يحرصوا عـــلى التقاليد اليهودية حتى صدقهم العالم رغم خرافة المنهج .

وبعد : أليس من الاهداف الهامة أن يكون التعليم فى جميع العلوم باللغة العربية ، وهناك تجربة صادقة منذ سنوات طويلة فى احدى الجامعات العربية (فى سوريا) ، فعلى الجامعات العربية أن تنطلق من هذا البدء لبناء الحضارة الاسلامية التى لابد أن تقدم العلوم والتكنولوجيا فيها من خلال اللغة العربية ، وهذا لا يعنى عدم معرفة اللغات الأجنبية ، ولكن ايماننا بأن اللغة العربية هى لغة الحضارة والثقافة كانت ولا زالت من أقوى لغـــات العالم فى قدرتها على النمو والاشتقاق والتعريب والتصريف ، وقد ثبت بالحجة الدامغة التى قامت بها كلية طب دمشق منذ زمن بعيد نجاح التجربة ، واودت ما يفحم المعارضين وما يوضح أن لغتنا الحبيبة قادرة على الاطلاع باعباء التعليم الطبى والعلوم الاخرى .

الفصـــل العاشر

مولد المدرسة الاسلامية فى علم الاجتماع

أعتقد أنه قد آن الأوان بمطالع القرن الخامس عشر الهجـرى أن يقوم المسلمون بتأصـيل العلوم باستمدادها من منابعها الاسلامية بعد أن عاشوا خلال هـذه الفترة الطويلة يتعلمون ويطبقون مناهج وافـدة صاغتها طبيعـة وظروف وتجديات مجتمعـات أخرل تختلف عن المجتمع الاسلامى عقيدة ووجهة وثقافة ، وفرضتها محاولات احتواء خطيرة سيطرت على التعليم والثقافة لادخال المسلمين فى اطار الفكر العالمى الأممى القائم على النظرية المادية وعلى المفهوم الاباحى •

فالمجتمع الغربى الذى صدّر للعالم الاسلامى تجربته ، قد تشـكل على نحو مختلف عن مجتمع الاسلام الذى كان قد عـاش أكثر من ألفى عام فى اطار رسـالات السماء هـذا المجتمع الغربى الذى تشـكل ابان الامبراطورية الرومانية على نحو غاية فى استعلاء السادة والامراء وذلة الطبقات المستعبدة ، وعلى نحو من الترف والاباحية والفساد والطغيان • مجتمع القياصرة والفراعنة والاباطرة والاكاسرة ، الذى كان يعبد الحاكم ويسجد له •

هذا المجتمع لم يلبث أن عـرف الرحمة والسماحة عندمـا دخلت النصرانية فازالت كثيرا من غروره وغطرسته ، وأحلت محلها رهبـانية ابتدعوها ما كتبها الله عليهم فما رعوها حق رعايتها ، فأصبح مجتمعـا منفصلا عن الحياة ، راغبا الى العزلة منقطعا عن الدنيا •

ثم جاءت مرحلته الثالثـة مع النهضة ، انقلابا آخـر بالعودة الى الاستعلاء بالجنس والاستعمار والحضارة ، وانصرافا عن الدين جملة فى محاولات متعددة ، لاقامة منهج حياة ونظام مجتمع يقوم على المطـامع

والاهواء والتسلط ، منكرا حاجات الروح والنفس والمعنويات ، مما نتج عنه ما يعيشه الان المجتمع الغربى من صراع شديد بين الفرد والمجتمع وبين المجتمعات الرأسمالية والمجتمعات الماركسية ، وما يتصل من دعوات الى المادية والاباحية والوجودية والهيبية ، ومن اضطراب فى علاقات الاسرة والمرأة والشباب على النحو الذى يهدد كيان الحضارة كلها بالانهيار ويهدد كيان النفوس الانسانية بالتمزق ٠

فى اطار التحول الخطير من الرهبانية الى الاباحية ، وضعت مناهج علم الاجتماع الذى سيطر على الثقافة الغربية والذى نقله علماء الجامعات الغربيون الذين استقدموا لهذا الغرض فى بلاد العرب والمسلمين والذين سافروا الى الغرب من شباب المسلمين أمثـــال منصور فهمى وطه حسين ومحمود عزمى وعلى عبد الواحد وافى وعبد العزيز عزت ٠

وقد تلقى هؤلاء علوم الاجتماع على قادة مدرسة العلوم الاجتماعية ، التى كانت قد ظهرت فى فرنسا فى العشرينات ، والتى ظلت مسيطرة على مناهج الاجتماع حتى اليوم وهم دور كايم وليفى بريل وموسى وفوكونيه ، وهى مدرسة تقول بأن قواعد الاخلاق ليســـت الا ظواهر اجتماعية ، لا نستطيع فى علاجها شيئا ، وكل ما يجب علينا عمله هو أن نرصدها لنستخرج منها قواعد عامة ، وأن الانسان مادة فحسب ، وان مبادىء الاخلاق التى هى ظواهر اجتماعية ، انما تملى على الافراد دون أن يكون لهم دخل فى بنائها أو فضل الايمان بها ، وان ارادة الانســـان الحرة التى يعتز بهـــا ليست الا وهما لان المرء لا يملك لنفسه شيئا وانما هـــو مسير بغرائز وقـــوى ٠

ولا ريب أن هذا المفهوم لا يتفق مع الدين المنزل ولا الفطرة البشرية وأنه يحاول أن يهدم مفهوم الاخلاق الدينى الذى عرفته الاديان السماوية جميعا وأن جماعة مدرسة العلوم الاجتماعية اليهود انما يسيرون فى نطاق المخطط الذى رسمته الصهيونية لهدم الارادة الفردية والاخلاق والاسرة ٠

وتقوم نظرية مدرسة العلوم الاجتماعية المادية ونظرية دارون على مفهوم الفلسفة ونظرية فرويد ، وتحاول أن تخضع مفهوم العلوم الاجتماعية الى النظرية التجريبية المطبقة على المادة من ناحية أو على مفهوم الحيوان من ناحية أخرى ، ولا ريب أن ذلك كله يختلف مع مفهوم العلوم الانسانية المتصلة بالنفس والروح والاخلاق مما لا يمكن اخضاعه لمناهج العلم المادى.

ذلك أن الجوانب النفسية والروحية والوجدانية التى تشكل السلوك والاحاسيس والتصرفات انما تتصل أساسا بالعقائد وترتبط بالايمان بالله ، ولقد وجدت هـذه الدعوى معارضة شديدة وأثبتت الابحاث العلمية عجز المناهج التجريبية المطبقة على المادة عن تحقيق نتائج صحيحة بالنسبة لمشاعر الانسان وعواطفه وأخلاقه وتصرفاته .

وتستهدف النظرية الاجتماعية المطروحة القضاء على الشخصية الفردية قضاء تاما ، بدعوى خضوع الفرد للتجربة الاجتماعية التى تقول بأن الانسان محكوم بعدة عوامل ، هى التى تدفعه فى طريق الحياة ، وهى بذلك تحاول القضاء على قاعدة وطيدة فى الاسلام وفى المجتمع الاسلامى : وهى قاعدة الارادة الفردية والمسئولية الفردية والالتزام الاخلاقى .

كذلك تحاول هذه المدرسة انكار أصالة قيام الاسرة منذ العهود البشرية الأولى ، وفى مفهوم الاسلام ان الاسرة تكونت فى بداية البشرية ولم يخل منها جيل من الاجيال .

ولا يعترف الاسلام بأى نظرية عن تطور العائلة أو القول بأن المرأة كانت مشاعة فى عهد البشرية الاول ، فالقرآن الكريم يقرر صراحة أن نظام الاسرة نظام أصيل فى الطبيعة البشرية .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » النساء : ١

ولا ريب أن مدرسة العلوم الاجتماعية تستهدف التشكيك فى نظام الاسرة ، توطئة للدعوة الى القضاء عليه على النحو الذى يحدث الآن فى المجتمعات الغربية •

وقد جرت محاولات للقضاء على الاسرة على مر التاريخ ، ولكنهـا عجزت عن ذلك وسيظل نظام الاسرة ثابتا مكينا على مر الازمان وسيظل أى نجاح يتحقق لخصومه فى القضـاء عليه ، عملا جزئيا يسـقط بمرور الزمن ، ولا يأخذ صفة الشمول أو الاستقرار •

وتنطلق نظرية علم الاجتماع من مسبقة فرضية هى أن الانسان مادة وجسم وأنه ليس له قوى أخرى (شأنها فى ذلك شأن علوم النفس والتحليل الفرويدى) ولا ريب أن مثل هذه العلوم الاجتماعية والنفسية انما تخضع لاهواء الفلاسفة ومزاجهم الشخصى وهى نتاج عامل واحد من عدة عوامل تسيطر على المجتمعات والفكر البشرى ، هذا العامل هو العصر وأحداثه •

وأغلب هذه العلوم تعتمد على الاسـطورة الاغريقية وتتخذ منهـا تصورا عاما للحياة ، ومع أنه قد تكشف لمدرسة العلوم الاجتماعيـة أن الظاهرة الانسانية ليست كالظاهرة الطبيعية وأنها من نوعية مخالفة ، وأن الظاهرة الاجتماعية ليست شيئا ملموسا يقاس كما تقاس الظاهرة الطبيعية فان هناك خطة للاصرار على الخطأ وقد أشار العلماء التجريبيون الى أن الظاهرة الانسانية لا تخضع للمقياس المادى وتشذ عنه وتتميز بحريـة باطنة فيها ، ولا يمكن التنبؤ بمجراهـا أو وقت وقوعها ، وأن الظـاهرة الانسانية أقرب الى الذات ، والانسان ذات وليس موضوعا ، بالرغم من هذا كله فان أصحاب الفلسفات المادية ما زالوا يخدعون ويغالطون •

* * *

وفى الجامعات المختلفة فى العالم الاسلامى درست مواد علم الاجتماع منقولة ومترجمة من كتابات الغربيين ، الذين قايسوا هذا العلم وفق مفهوم

النظرية الليبرالية الغربية والأساتذة الأجانب الذين كانوا يقدمون هـذه المـادة فى الجامعات العربية كانوا ينتقون المدرسـة التى ينتمون اليهـا فالمتخرجون من الجامعات الفرنسية كانوا يتبعون منهج المدرسة الفرنسية وكذلك المتخرجون من الجامعات الانجليزية والامريكية ، كل حاول توجيه دراساته ومؤلفاته وفق الثقافة التى تخرج فيها والولاء الخاص بها ، لذلك لم تكن الاصالة على وجه العموم واضحة .

والاصالة لا تظهر على العموم الا عند محاولة دراسة النظم الاسلامية ومقارنتها بالنظم الاوربية الحديثة أما فيما عدا ذلك فهى ترديد للافكار الوافدة ، وكل الكتب التى صدرت عن علم الاجتماع فى هذه الفترة متأثرة بمؤلفات أصحاب النظريات العضويـة التصورية التى كانت سـائدة فى أوربا — على حد تعبير الدكتور شحاته سعفان — مثل كتاب نقولا حـداد الذى وصف بأنه أول مؤلف باللغة العربية فى علم الاجتماع وكذلك كتابات سلامه موسى وطه حسين وكلها متأثرة بنظرية التطور ، وقائمة على حدود المفهوم المادى للفرد ، وتقوم على أن الانسان حيوان خـاضع لشهوتى الطعام (ماركس) والغريزة (فرويد) ، وأنه مسوق بهاتين الشهوتين فى كل تصرفاته ، وهو مفهوم لايعترف بالقيم المعنوية والروحية ، ولا يحفل بأثر الدين ودعوته فى تغيير نظم المجتمع ، كمـا أنه متأثر بمفاهيم جمهوريـة أفلاطون التى تقوم على أساس الاعتراف بالفصل بين السادة والعبيـد وضرورة وجود مجتمع العبودية فى خدمة السادة وقد أقر أرسطو هـذا المفهـوم .

مـاذا يريدون ؟ :

هذا من ناحية ، من ناحية أخرى فقد أكد الباحثون (علم الاجتماع) القائم اليوم فى المجتمعات العالمية ، ليس علما قائما بذاته يعمل على النحو الذى يفرضه العلم الصرف ، ولكنه يعمل فى خدمة النظام الغربى وما يتصل به ، من تثبيت سلطانه ونفوذه فى عالم المستعمرات أو البلاد الخاضعة له

اقتصاديا ، ومن هنا فقد أشار باحثون كثر الى أن علم الاجتماع الامريكى مثلا لم يقف عند حدود مجتمعه بل تعداه الى بحوث استهدفت مقاومة التغيير فى العالم الثالث وضرب الحركات التحريرية •

وأثبت علماء أخرون ارتباط البحث الاجتماعى فى الغرب بأدوات السياسة والقوة العسكرية ، وأن بحوث علم الاجتماع تستخدم كوسيلة فى الفراغ العالمى وتثبيت تبعية العالم الثالث للنظام الرأسمالى فكرا وتوجيها •

كذلك ففى الاتحاد السوفيتى نجد أن جانبا كبيرا من الفكر الاجتماعى موجه نحو كشف مآسى وتناقضات المجتمع الرأسمالى على وجه العموم وأن الباحثين السوفيت يدرسون قضايا المجتمعات النامية بهدف كشف أثر الرأسمالية والاستعمار على أوضاعها وتغيراتها ، ومعنى هذا أن علم الاجتماع فى الغرب ليس علما أصيلا وانما هو علم موجه ، فهو فى داخل المجتمعات الغربية لخدمة أهداف النفوذ والسيطرة ، وفى داخل المجتمعات الماركسية لكشف عوامل أو أخطار السيطرة الغربية ، ومعنى هذا أن علم الاجتماع الآن بصورته الحالية هو علم تبرير الواقع ، وأنه ملتزم بتوجيهات الايدولوجية والحزب •

ويقول الدكتور عبد الباسط عبد المعطى الذى يكشف هذه الحقائق فى كتابه : (اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع) •

أن دور كايم وفيبر ومن قبلهما أوجست كونت ، أرادوا جميعا التنظير لصعود الرأسمالية الاوربية والمحافظة على منجزاتها وتبنى توجه ليبرالى غالى فى الفردية التى هى جوهر المشروع الرأسمالى ، وان الرواد لعلم الاجتماع لم يكونوا قادرين على وضع نظرية عامة شاملة ، وأنهم خضعوا لمجتمعاتهم ولتحديات عصرهم وبيئتهم فى حدود فرنسا وألمنيا ، وبذلك جاءت ملاحظاتهم متعايشة مع هذا الواقع متحددة به •

كما أن هؤلاء جميعا كانوا منظرين للطبقات الحاكمة والمسيطرة ،

فتحول العلم لديهم الى تحكم ذى بعـد واحد ، قضى على واحـدة من خصـائص العمومية ؛ أى نسيج البنـاء الاجتماعى بطبقاته وجمـاعاته وقطاعاته • وانهم اتخذوا جميعهم موقفا تبريريا من أوضاعهم الاجتماعية . وتلك أقوى مقـاتل علم الاجتمـاع الذى نقله المسلمون فى مدارسـهم وجامعاتهم ، وحاولوا أن يصوغوا مجتمعاتهم على ضوئه الكئيب •

كذلك فقد أشـار الدكتور عبد الباسط فى أحدث دراسـة عن علم الاجتماع تأثر هذا العلم بمنهج العلم الطبيعى ، كما أشرنا من قبل ، كذلك فقد أنكر الباحثون أن علم الاجتماع قادر على الوصول الى قواعد عامة للتطور الاجتماعى •

ويرى الباحثون أن علم الاجتماع — على هذا النحو — يمكن أن يكون علما إنسانيا ويمكن أن يكون ضد الانسان وبمعنى آخر أنه يمكن أن يسهم فى حل المشكلات ويمكن أن يؤكد التخلف ويخدم الاقلية •

وقد بلغ الأمر أن يقول أحد علماء الاجتماع « هوارد بيكر » الى جانب من نقف : هل نأخذ جانب المسيطرين أم الخاضعين : الحكام أم المحكومين ، وليس أقسى من هذا التساؤل ليكشف أمام أبصار المسلمين فساد تجربة علم الاجتماع الذى يخضعون له منذ أكثر من سبعين عاما •

فساد منهج أوجست كونت :

وفى مراجعة لفكر الاربعة الكبار فى علم الاجتماع : أوجست كونت ودور كـايم وماكس فيبر وليفى بريل ، نجد أن القاعدة الاساسية هى : نظرية دارون التى تقول ان الانسان حيوان ناطق وتدرجه فى نظام الحيوان ، وتفرض عليه أحكامه متجاهلة جوانبه الروحية والمعنوية ، وهى أساس النظرية المادية ، بالاضافة الى نظرية فرويد فى الجنس والتفسير المادى التاريخ الماركسى •

ولا شك أن القانون الذى وضعه أوجست كونت وأطلق عليه اسم (المراحل الثلاث) قد فشل فشلا ذريعا ووجهت اليه انتقادات جمة ذلك لأنه نجاهل ظاهرة الدين الموحى به والقادر على تغيير المجتمعات ، ويقف عند النصرانية ولم يجد من الشواهد التاريخية ، ما يؤيده عمليا فضلا عن خضوعه لفكرة التطور المطلق الذى لا يعترف بالثوابت ٠

وكذلك يقوم الاطار الفكرى لمفاهيمه على أساس الفلسفة الوضعية التى تحكم المجتمع على أساس القوانين الطبيعية التى لا تتغير وهو يؤمن بأن الفرد شىء لا قيمة له ٠

ويهدف علم الاجتماع عنده لان يكون أداة للمحافظة على الواقع القائم وتأكيد السلطة الحاكمة ، ولذلك نادى بالحد من حرية التفكير وهلل عندما قبض نابليون على ناصية السلطة بيد من حديد ، ونادى بضرورة محاكاة علم الاجتماع للعلوم الطبيعية ، وقد حرص على أن يكون علم الاجتماع الوليد أداة محافظة وتبرير ، وهو يرى أن على الانسان أن يتواءم مع ما هو قائم ، فليس له من ارادة ولا يجب أن تكون له ، وأن العيب كل العيب فى الانسان وأخلاقه ، لا فى الظروف المحيطة به ، وهذا تصور — كما يقول الدكتور عبد الباسط عبد المعطى — ليس ضد الانسان فحسب بل هو مشوه ومزيف لتاريخ الانسان ٠

مذهب دور كايم ضد الفطرة :

وكان دور كايم قد انتقل بعلم الاجتماع نقلة حاسمة الى أفق التلمودية ، التى صيغت مفاهيمها فى قوالب علمية مرتين : فى نظرية فرويد (النفس والاخلاق) وفى نظرية دور كايم (الاجتماع) ٠

فدعوة دور كايم تقوم على الجبرية المطلقة للفرد فى اطار المجتمع واقراره بعجز الانسان عن تغيير المجتمع وضرورة خضوعه له ، وقوله أن العامل الفعال التى يؤثر فى المجتمع هو البيئة الاجتماعية ، وهو الغاء

كـامل لدور الفرد ، وقد شهد له الباحثون بالتناقض والخلط ، وكـان يثير التساؤلات ولا يجيب عليها ، ويتركز خطؤه فى دعواه أسبقية المجتمع على الفرد ، وخضوعه لفكر البرجماتية والنفعية • وتسير كتاباته المتنوعة فى مسـار تأكيد ضرورة انصـياع الانسان لما هو قائم ولما هـو محيط فالظاهرة الاجتماعية اجبـارية والزامية وان دراسـاته فى نظر كثير من العلماء وأراءه يعوزها كثير من الصدق العلمى •

ومن أخطائه اعتباره الجريمة هى الفطرة والاسرة هى الشذوذ وهو خليط من جميع المذاهب المادية الماركسية والفرودية والبرجماتية وبه تحول علم الاجتماع الى دراسة الظواهر دون أن يكون له أثر فى تغيير المجتمع ولا شك أن من أكبر أخطائه دعواه العريضة بأن المجتمع هو الذى أنشأ العقيدة وأن الدين لم ينزل من السماء ، وانما أوجدته الجماعة على النحو الذى حمل لوائه الدكتور طه حسين ودعا اليه فى الثلاثينات •

ولا ريب أن مفاهيم دور كايم اليهودى ربيب المذهب الماركسى أصلا والنظرية المادية ، معارض تماما لكل القيم الاساسية التى تقوم على الفطرة ، والتى جاءت بها الاديان فى منهجها الربانى القائم على الاصالة وعلى التكامل بين المادة والروح •

وقد بدأت خطوات التبعية فى العالم الاسلامى لمفهوم علم الاجتماع الغربى ، عندما قدم الدكتور منصور فهمى أول رسالة فى فلسفة الاجتماع لجامعة باريس ١٩١٣ تحت اشراف اليهودى ليفى بريل ، عن حالة المرأة فى التقاليد الاسلامية ، وقد صاغها فى اطار المدرسة الفرنسية الاجتماعية ، التى كان عميدها دور كايم ، وقـد وقع تحت تأثيرات تفسـير كثير من المستشرقين المتعصبين ضد الاسلام فأتت رسالته مجافية تماما لقواعد الاسلام وما يجب أن يتصف به المسلم ، اذ تناول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعدد زوجاته بكثير من الخلط والفساد وقال ان المرأة بعـد الاسلام ساء موقفها لانها أصبحت تعامل كفرد لا كقريبة ، وقال ان محمدا

(صلى الله عليه وسلم) يشرع للجميع ويستثنى من ذلك نفسه ، ومضى يتحدث عن ذلك كله بأسلوب المستشرقين ، واحتوى فصل من الرواية نقدا لأكثر من موقف للنبى صلى الله عليه وسلم • ولحياته الزوجية والاجتماعية ، وقال ان الاسلام هو الذى فرض الحجاب على المرأة والاستقرار فى المنزل (وقد رجع الدكتور منصـــور فهمى عن هذه الآراء فيما بعـــد وكتب عن الاسلام كتابات رائعة) وقال : انه وقع تحت تأثير المستشرقين اليهود ، كما وقع الدكتر طه حسين فى ارائه عن أن الدين خرج من الأرض كمـــا خرجت الجماعة ومحمود عزمى الذى كان يفرق بين مفهوم الاقتصـــاد السياسى ومفهوم الربا فى الاسلام ويقول : اذا ذكر الاقتصاد فلا يذكر الدين •

كما أعلن طه حسين أن ابن خلدون غير كامل الاهلية العلمية ، ونقده نقدا جارحا وأعلن عدم اعترافه بأن ابن خلدون مؤسس علم الاجتمـــاع أو حتى مبشر بعلم الاجتماع الحديث ، مخالفا بذلك الاغلبية الساحقة لعلماء الاجتماع المعاصرين الذين أعترفوا لابن خلدون بفضل السبق والاصالة ومنهم توينبى البريطانى وفريرو الايطالى وجملبو فنتز البولندى وذلك جريا وراء التبعية لرأى اليهودى دور كايم فى ابن خلدون حقدا وغلوا •

كذلك فان الدكتور على عبد الواحد وافى الذى وكل اليه انشاء قسم الاجتماع فى الجامعة المصرية ، ظل والى اليوم خاضعا لمفهوم دور كايم والمدرسة الفرنسية ، وهو الذى روج له وقدم مفهومه بالعربية فى كتاب ضخم ولقد كان كل أساتذة الاجتماع على هذا النحو ومن جاء بعدهم عبد العزيز عزت والساعاتى والخشاب ، فقد تعاموا على فوكونيه وماسينيون وكان هؤلاء يبحثون عن المفكرين المسلمين الخاضعين للفكر اليونانى أمثال ابن مسكويه الذى تأثر فى بحثه باخلاق بأفلاطون فى جمهوريته وبأرسطو فى كتابه الاخلاق •

وقد خضع الدكتور حسنى الساعاتى والدكتور مصطفى الخشـــاب

لمفاهيم علم الاجتماع الغربى وتلقــاه على أيديهم عشرات من المثقفين فى العالم العربى ، وقد عالجوا جميعا المجتمع العربى الاسلامى على أنه مجتمع محكوم عليه بنظام علمانى خالص فى اقتصاده وسياسته وقوانينه ،فلم يكن هناك ما يفتح الباب أمام المفاهيم الاسلامية فى علم الاجتماع وقد أحيا هؤلاء دراسات أوجست كونت صاحب المذهب الوضعى وسان ســيمون وفكر المدرسة الفرنسية (دور كايم وليفى بريل) كما عنوا بالانثروبولوجيا والأساطير والفلكلور على اعتبار أنها المادة التى تصنع منها المجتمعات البــدائية ، وجروا شوطا طويلا وراء مفاهيم علم الاجتماع الغربى الوافد الذى لم يكن يلتقى مع الفكر الاسلامى فى أى أساس من أسسه ما عدا بعض علامات بسيطة أظهرت مفهوم الاسلام • منها كتابات الدكتور حسن سعفان عن رفض المجتمع الاسلامى للنظرية الماركسية فى تفسير التاريخ ، وقــد قال أحدهم : ان كل ما لدينا من علم الاجتماع هو من صناعة الأربعة الغربيين الماديين أوجست كونت وهربرت سبنسر واميل دور كايم وماكس فيبر •

فجر جديد لعلم اجتماع اسلامى :

ولكن الامور لم تكن لتمضى على هذا النحو بعد أن علت صيحة حركة اليقظة الاسلامية بالعودة الى المنابع ، والبحث عن الاصالة وترشيد الفكر وتحريره من التبعية وتصحيح المفاهيم ، وهى الدعوة التى تعــالت فى العقدين الاخرين من القرن الرابع عشر ، والتى امتدت الى كل جوانب البحث والثقافة ، وخاصة فى مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية ومن ثم ظهرت خيوط رقيقة من الدراســات التى استحصدت وقويت ، وخاصة ما قدمه الدكتور مصطفى محمد حسنين فى كتابه « نحو علم اجتماع اسلامى » الذى صدر منذ عشر سنوات •

ويرى الدكتور مصطفى حسنين أنه حيث يجعل دور كايم الظواهر الاجتماعية أساس الدراسة وتجعل المدرسة الانجليزية والامريكية النظام الاجتماعى

أساس الدراسة ، فان الاسلام يجعل من واقعات العمران البشرى موضوع الدراسة ، وأن كثير من علمائنا قــد أخطأوا فى ظنهم أن واقعة العمران البشرى — كما عرفها ابن خلدون — هى بذاتها الظاهرة الاجتماعية عند دور كايم ، ولكن طبيعة الواقعة الاجتماعية تختلف فى وظيفتها وبنائهـا الاجتماعى اختلافا جوهريا عن وظيفة المظاهر الاجتماعية وبنائها الاجتماعى ، وان واقعة العمران البشرى — كما قدمها ابن خلدون نسيج وحدها فى الوظيفة والتركيب الاجتماعى على السواء ، وان دور كايم أهــدر كل تقييم أخلاقى حتى أنه يقول : ان الجريمة ظاهرة ضرورية وهى ليست ظاهرة مقيدة ، ولا ريب أن هذا لا يستقيم اطلاقا مع النهج الاسلامى فى النظر الى مجتمع المسلمين ، بل هناك ما هو أسوأ ، فان دور كايم ينتهى فى نظريته فى الظواهر الاجتماعية الى القول بأن اصل الاديان أصل أرضى يرجعها الى الطبيعة .

وهناك فارق كبير وعميق بين المدرسة الاسلامية والمدرسة الاجتماعية يكشف عنه الدكتور مصطفى حسنين (ذلك ان ابن خلدون يربط بين قيام الواقعية الاجتماعية ووظيفتها ربطا شديدا ، اذ جعل العمران هو هدفهـا رغايتها ، واذا كان الاسلام قد شد بين صالح الفرد وصالح الجماعة فى نطاق واحد وجعل كلِ مصلحة منها تساند الأخرى وتدعمها فان ابن خلدون على أساس الفهم الاسلامى كان يتبنى واقعات العمران على أساس مـا تحققه من مصلحة للجماعة والأفراد على السواء .

ويشير الدكتور مصطفى حسنين الى أن بحوث دور كايم ، وان جعل موضوعها ، العرب فى شمال افريقيا وبلاد الشام والبدو بصورة عامة ، كانت تتجه الى وصف هذه الجماعات على انها (بدائية) متخلفة بالاضافة الى آراء دور كايم المرفوضة فى الدين الوضعى .

من أجل هذا رأى الدكتور مصطفى حسنين أن يرجع الى أســاس المدرسة الاجتماعية الاسلامية التى أرسى دعائمها ابن خلدون ويقول : انه

لابد لنا ونحن أصحاب المنهج الاصيل الاول اذا أردنا مقاومة هذه الافكار الهدامة ولكى نصلح أمرنا ، ونعود الى الاصالة ، أن نؤكد على منهجنا فى التفسير وأن نصد كل رأى مخالف بنفس الأسـلوب الذى يتخذونه فى محاربتنا ، أنهم يقولون : انهم أصحاب أسلوب علمى ونحن نقول لهم : ان لنا أيضا أسلوبنا العلمى المكين ، وأسلوبنا العلمى قائم على هذا العلم الذى هو فقه الشريعة الأصيل قرآننا وسـنة رسولنا — صلى الله عليه وسلم — ، أسلوبنا واحد غير مسبوق بمثله ، لم يتبدل ولم يتغير ، هـو القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك ما قـام الدليل الشرعى عليه بأنه طاعة الله ورسوله .

الفصل الحادى عشر

دراسات النفس والأخلاق من التبعية إلى الأصالة

لا ريب أن الدراسات الحديثة فى مجال النفس والاخلاق ، التى تقوم الجامعات فى العالم الاسلامى على تقديمها للشباب المسلم ، تمثل مجموعة النظريات التى طرحها الفكر الغربى ، والتى هى فى الحقيقة تمثل التحديات التى يواجههـا المجتمع الأوربى والأمريكى فى العصر الحديث ، ولا تمثل تحديات المجتمع الاسلامى ولا النظرة الاسلامية فى هذه المسائل والقضايا •

والباحث المسلم حين يدرس أو يستوعب هذه النظريات يعتقد أن هذا المفهوم المطروح فى النفس والأخلاق هو الاجابة الوحيدة عن كل هذه القضايا والتحديات ، بينما للاســلام مفاهيمه وإستجاباته التى تختلف اختلافا عميقا ، والتى تتصل بمجتمعه وبالنفس الانسانية الاســلامية العربية — وبكل نفس على الاطلاق •

ومن شأن هذا أن يجعل المسلم يواجه الحياة والمجتمع بمفاهيم باطلة وأن يظن أن الاسلام ليس لديه حلول واجابات لمثل هذه القضايا •

مقدمات للتنبيه :

ولذلك فان من ألزم الواجبات أن تسبق هذه « المناهج » الدراسية « مقدمات » تبين « الاصالة الاسلامية » وتكشف عن أن هذا الذى يدرس ما هو الا بمثابة نظريات قابلة للصواب والخطأ ، وليست حقائق عــامة ثابتة ، ذلك أن (العلوم الانسانية) ليست لها صفة « الثبات » التى تعرفها العلوم التجريبية ، ولانها تتصل بالعواطف والمشاعر وأهواء النفس فانها تختلف ، ولانها تتصل بالعقائد والتقاليد فانها تتباين بين مجتمع وآخر •

ولما كان المجتمع الاسلامى يقوم على قاعدة الايمان بالله الواحــد ،

ويلتمس فى تفسير أحداثه وتحدياته مفهومه الاصيل المستمد من « القرآن الكريم » والسنة النبوية ، فان من الخطر تصور أنه محاصر فى مفاهيم بعيدة كل البعد عن ذاتيته ومشاعره وبيئته .

فاذا كانت هذه النظريات قد طرحتها تحديـــات ليست موجودة فى المجتمع الاسلامى ، وانها لم تستطع على وضعها الحالى أن تستجيب للنفس الغربية فى حل مشاكلها ، فان التماس فهمها ودراستها فى المجتمع الاسلامى من شأنه أن يكون بعيد الاثر فى افساد النفس البشرية المسلمة ، وتسميم منابع الخير فيها .

ولقد يكون الامر أقرب الى النظرة العلمية ، حين تطرح هذه المذاهب على أنها مذاهب غربية لبيئة غير بيئتنا ، وأن يقال انها نظريات ، أى وجهات نظر لفلاسفة وباحثين ، قابلة للصواب والخطأ ، وأنها ليست الكلمة الاخيرة ، وليست الحقيقة العلمية الثابتة ، وأنها محاولة ستتلوها محاولات ، وأن الزمن يلاحقها بالتغيير والتبديل .

ان أى نظرية يقوم بها فيلسوف أو مصلح تتمثل فيها حقائق هامة :

أولا : ان هذه النظرية هى فرضية افترضها هذا الفيلسوف بناء على نظرته الى الأمور وثقافته ومكونات شخصيته .

ثانيا : انها نظرية تتصل اتصالا تاما بالتحديات الخاصة لشخصية هذا الفيلسوف وبيئته وعصره ومجتمعه وظروف معينة قائمة أمامه .

ثالثا : ان الانسان على أعلى درجة من التفكير والنظر ، لا يستطيع أن يخرج عن أبعاد وجوده البشرى والعقلى والنفسى ، ولا يستطيع أن يشرع للجمتمع الانسانى كله .

ومن ثم فان ما يقدمه « الفكر البشرى » هـــو فرض يقبل الخطـــأ

والصواب ، وقد يصلح لمجتمع ولا يصلح لآخر ، وينفع فى عصر ولا ينفع فى جميع العصور •

ولقد اعتورت النظريات والمناهج أسباب القصور وحل بها التناقض ، واحتاجت الى الاضافة والحذف ، على مدى قريب من ظهورها ، وذهب بعضها وانطوى عجزا وفسادا ، وليس أدل على ذلك من مذاهب الفرويدية والوجودية المطروحة فى مجال علمى النفس والاخلاق ، ونظرية دور كايم ومدرسة العلوم الاجتماعية المطروحة فى مجال الاخلاق والاجتماع •

وجملة القول أن نظريات الفكر الغربى فى النفس الانسانية المطروحة فى مناهج الجامعات فى البلاد الاسلامية وآفاق الثقافة ، تختلف كل الاختلاف عن مفهوم الاسلام ، وتتعارض مع طبيعة النفس البشرية التى قدمتها لنا (الأديان) وأضاء مفهومها (الاسلام) على نحو كاشف صريح يقوم على أساس الفطرة البشرية الجامعة بين أشواق الروح ورغبات الجسد والتى تتحرك دائما رفعة الحس وقوة الايمان •

ومن هنا فقد تركت « مفاهيم النفس » الوافدة أثرا بعيد فى اثارة جو الشك والاضطراب والقلق والتمزق ، لانها بدت وكأنها حقائق علمية ، بينما لم تزد على أنها نظريات ووجهات نظر لفلاسـفة ، لهم أهواؤهم ومطامعهم ، ولهم تحديات مجتمعاتهم ، ومن ورائهم تحديات أخرى تقوم عليها اليهودية العالمية ، وتستهدف بها زلزلة الاخلاق والسكينة والامن النفسى وادخـال العالم كلـه فى اتون التمزق والصراع كمقدمة لتحقيق أهـدافها •

ولعل من أخطر مفاهيم علم النفس المطروحة الآن فى أفق الفكـر الاسلامى والدراسات الجامعية ، هو التعميم والقصور والانشـطارية والتجزئة ، وأخطرها جميعا « الارضية المادية » التى ينطلق منها هذا الفكر ، سواء فى لونه الغربى أو لونه الماركسى ، وهذه السمات جميعا يتسم بها

الفكر الغربى اليوم فى كل معطياته المحدثة ، ومراحله الاخيرة ، وخاصة القول بأن « الجنس » هو أساس الدوافع النفسية جميعا ، وأن الانسان مقسور فى اطار « الجبر » الذى تفرضه هذه الغريزة على كل تصرفاته ، بحيث يعجز عن أن يكون له ارادته الخاصة القادرة على الاختيار وعلى التغيير .

ومن خلال هذه الفرضية الجزئية حاول (فرويد) ومدرسته استخلاص مفاهيم تتعارض تماما مع مقدرات النفس الانسانية وأعماقها البعيدة ، وخاصة فيما يتصل بحركة التوازن القائمة بين العقل والغريزة ، وبين النفس والجسم ، وبين الروح والمادة .

وحين يفرتض (فرويد) أن الشهوة الجنسية هى الحافز الأول لنشاط الانسان ، فانه يضع قاعدة خطيرة هى :

اعلاء الجانب الغريزى فى الانسان ، ورد كل العوامل عليها تحت اسم « حيوانية الانسان » .

ومن هنا يذهب الى القول بأن النشاط الذهنى والاجتماعى والفنى والدينى ، له أساس جنسى ، ويمضى الى القول بحب الام وكراهية الأب عند الرجل ، ويعتمد فى ذلك على أسطورة يونانية قديمة هى (أسطورة أوديب) التى تحولت على يديه الى مركب ، وكذلك فيما يتصل بحب الأب وكراهية الام عند المرأة ، ويعتمد فيه على أسطورة أخرى هى (أسطورة الكترا) .

ويمضى فرويد فيقرر أن الانسان فى جوهره : حيوان كغيره من الحيوانات ، وأن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هى أساس سلوكه فى الحياة .

وهكذا نجد أن أخطر ما تقدمه مفاهيم النفس فى المنهج الغربى الوافد

من آراء ، انما تدعو الى معارضة مفاهيم الدين فى مغالبة النفس ومجاهدة الاهواء ، وعدم الخضوع للدوافع المدمرة للكيان الانسانى .

غير أن الدين الحق حين دعا الى المغالبة والمجاهدة لم يدع الى الكبت أو الاسقاط ، أو تحريم هذه الرغبات الحسية بل اعترف بها ودعـــا الى مارستها وتحقيقها فى اطارين :

الأول : اطار النظام الاجتماعى وقوانينه الحافظة من أخطاء الزنا والاباحيـــــة .

الثانى : اطار الضـــوابط التى تحمى الطبيعـــة البشرية من التحلل والانهيـــــار .

فالاسلام أساسا لم يحرم الرغبات الحسية بل اعترف بها ، ولكنه نظم الممارسة فى اطار كريم ، ومتوازن مع حاجات الانسان الاخرى ، بحيث تتحقق أشـــواق الروح ورغبات الحس فى وقت واحد ، دون طغيان من أحدهما على الآخر ، وليس على هذا الاسلوب الذى يدعو الى الانطلاق الحر غير المقيد الذى تدعو اليه المذاهب النفسية والاجتماعية الغربية .

هذا فضلا عن وصف الرغبات الحسية بأنها عوامل الكبت ، وأنها من مصادر الخطر العقلى والجسمانى ، ومن هنا تجىء الدعوة الى اطلاقها ، ولكن ذلك يرجع فى الواقع الى واقع المجتمع الغربى نفسه فى تعامله مع عقائده الدينية وتقاليده الاجتماعية ، وهو ما لا نجد له شبيها فى المجتمع الاسلامى .

ومن هنا يمكن القول بأن « مناخ » علم النفس المطروحة مفاهيمه فى مناهج الدراسات الجامعية العربية ليس اسلاميا ، وليس صحيحا ، وليس أصيلا ، بحيث يعطى النفس حاجتها وسلام مفهومها وليس قادرا على أن يحررهـــــا .

ومن هنا نجد ذلك الاضطراب الذى يجتاح مجتمعات الشباب ، من حيث أنه يظن أن ما يدرسه هو حقائق علمية ، أو أضواء كاشفة ، أو أنوار هادية الى فهم الحياة والتحرك فيها ، ومن هنا يخسر المجتمع الاسلامى خسارة ضخمة ، نتيجة الضحايا الذين يقعون فى الشرك ، ويفسد اتجاههم نتيجة اعتمادهم على تلك المفاهيم المسمومة •

ولو أن هذا الشباب وهذه الاجيال وجهت الى فهم القيم الاسلامية فى النفس ، وعرفت أن ما تدرسه فى هذه المناهج ليس علما وليس يقينا خالصا ، لامكن أن تنجو من الهزيمة والفساد الذى أصاب كثيرا من النفوس •

ولقد كان حقا علينا أن نكتب فى مقدمات المناهج لشبابنا ، أن مناخ المفاهيم النفسية التى بين أيديهم انما يستمد استجاباته من تحديات معينة ، هى خلاصة تاريخ العلاقات الاجتماعية فى مجتمعات أوربا والغرب ، والتى استمدت مضامينها من جو الرهبانية واضفاء الكراهية على العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة ، حيث بالغت النصرانية الغربية فى فرض القيود على النشاط الحيوى ، وأنكرت حق الفرد — لا فى مزاولته ، بل فى الاحساس بالرغبة فى هذا النشاط ، حيث لا تكتفى بوضع القيود على الميدان العملى ، بل تتعداه الى مجال الشعور النفسى على سبيل الالزام •

وهذا يعنى معارضة الطبيعة البشرية ، وقمع الجسد ومقاومة رغبة النفس وامتهان الجسد ، كوسيلة لا وسيلة غيرها للارتفاع بالروح ، وقد صاحب هذا الاتجاه :

تلك الدعوة الحارة الى الرهبانية والزهد ، وما اتصل بالاديرة من أحداث وأهواء ، وما يرتبط بهذا من عدم اباحة الطلاق ، كل هذا قد أدى الى مفهوم وواقع كلاهما متعارض مع الفطرة البشرية — هذا المفهوم والواقع مع تحدياته وآثاره الخطيرة — كانت نظرية فرويد هى رد الفعل الطبيعى لهـا •

ولم تكن نظرية فرويد الا مجموعة من الفروض التى استقاها من تجربته مع المرضى والشواذ والمصابين ، وليس مع الاصحاء أو الاسوياء ، وهى وجهة نظر معينة لم تثبت طويلا فى مجال التجربة ، حتى قال كثير من الباحثين : ان فرويد أقرب الى المتنبئين منه الى العلماء ، وأنه يلقى بنظرياته وآرائه دون أن يقدم لها البرهان العلمى أو السند الواقعى ، وأنها تقوم فى أغلبها على الافتراض ، ثم تصديق ما يفترض ، فيبنى عليه كأنه حقيقة علمية ، لا يأتيها الباطل •

وقد أثبتت الدراسات العلمية بما لا يقبل الجدل ، أن الدافع الجنسى يأتى فى مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الاخرى ، كالدافع الى طلب الهواء أو الشراب أو الطعام •

ثم ان الدافع الجنسى يخضع للتربية ، بمعنى أننا نستطيع تربية الانسان على العفة ، بحيث يضبط دافعه الجنسى ويتحكم فيه ، وبذلك تكون العفة أمرا ليس ممكنا فحسب بل ضروريا •

ويقول الباحثون : ان نقطة الضعف الأساسية فى فرويد كعالم : هى انه اتخذ من دارسة نفسه ودراسة طفولته قاعدة للتعميم ، والوصول الى قوانين عامة وقد ترك فرويد من كتاباته عن نفسه وعن حياته ، ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه وهواجسه ومشاكل صباه — كيهودى فى النمسا المتعصبة ضد اليهود — قاعدة لكل تصميماته •

ويقول الباحثون ان « فلسفة فرويد » تمتاز بأنها ميكانيكية جبرية ، فانها تنظر الى الانسان على أنه آلة عديمة الحرية ، خاضعة كل الخضوع لقوى خفية ، لا يمكن التغلب عليها الا بالحيلة ، وأن فرويد أسرف فى كل ظاهرة سلوكية الى الغريزة الجنسية •

بل ان فرضيات فرويد لم تكن موضع قبول من العلماء العاملين فى حقل علم النفس ، بل على العكس من ذلك ، كانت موضع المعارضة •

وقد عارض يونج وأدلر نظرية فرويد فى الجنس ، ورفضا رأيه فى الغريزة الجنسية ، وفى الطفولة وفى عقدة أوديب •

أما أدلر : فانه نبذ أهمية الغريزة الجنسية النبذ كله ، وأرجع تكوين الشخصية ونشأة الأمراض العصبية الى مجرد الرغبة فى القوة والتعويض عن نقص الكيـــان •

ويعتقد إدلر أن حافز (تأكيد الذات) وليس (الدافع الجنسى) هو القوة السائدة الأيجابية فى الحياة •

ويرى يونج : أن الجنس ليس هو الدافع الحقيقى ، ولكن هو الرقى والسيادة والرغبة الملحـــة فى التفوق ، وأن الحب الجنسى ليس الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه السيادة ، وأن هناك وسائل أخرى لا علاقة لها بالحب الجنسى •

ويرى أدلر : أن الشعور بالنقص أهم فى عوامل الامراض العصبية من الأمور الجنسية التى بالغ فرويد فى ابراز خطورتها •

ويقول يونج : ان آراء فرويد ذات جانب واحد وغير ناضجة تمام النضوج ، وأن مصدر سرور الطفل فى الحصول على الغذاء هو (اللبن) ولكن يجب أن لا يوصف بأنـــه جنسى أبدا ، وذلك باعتبـــار أن الدافع الجنسى لم يتميز بعد عن الميل الابتدائى للحياة ، وينكر يونج أن (اللبن) جنسى بكليته وهو يعتبر أن اللبن هو ارادة الحياة •

وقد أجمعت الابحاث التى كتبها أقرب الناس الى فرويد ، ومنهم صديقه ومترجمه الدكتور أرنست جونز : على أن فرويد لم يكن (سوى) الطبيعة أو الصحة ، وأنه كان عرضة للاغماء على أثر بعض المفاجئات ، وكانت مرارة الطبع خلة ملازمة له فى علاقته بغيره ، وكانت لاحلامه وجوه خفية ترمز الى دلائلها فى سريرته الباطنة وكانت له ضروب من القلق تنم عن باعث من بواعث الحيرة المكتومة الباطنة •

وكانت أظهر حالاته الخاصة أنه يحــارب التشبث بالعقائد الدينية والعادات والتقاليد الخلقية ، ولكنه يتشبث بالتفسير الجنسى للعقــائد والعادات ، شيئا يفوق فى اصراره وشدته تعصب المتعصب اللدود لمذهبه ودينـــــه •

وقــد تبين أن فرويد كان مجموعة من هذه العقد النفسية الى آخــر حياته ، وكان ينسى الاسماء منها اسم أحد معارفه : الدكتور فرويد • • وكان يتتبع أوراقه التى تدخل فى ترجمة حياته فيحرقها ، وكان فى طفولته ينسى نفسه ليلا فى فراشه (يبول فى فراشه) ، وكان يخشى من السفر بالقطار ، ويحضر الى المحطة قبل موعد قيامه بنحو ساعة وكان دائم العزلة ، ولا يسمح لأحد أن يصاحبه طويلا •

واليوم نجد أن العلماء قد مزقوا (نظريات فرويد) فى مؤتمرات عديدة للعلوم النفسية : منها مؤتمر شيكاغو ١٩٥٦ ، حيث كشف العلماء بوضوح عن فساد نظريات فرويد ، وقــال الدكتور برسيفال بيلى مدير معهد النفسيات بولاية الينواز :

ان آراء فرويد لا تضيف شيئا الى القيمة الانسانية ، لانه يــرد الانسان الى أغوار العقل الباطن ، ويهمل جانبه المنطقى والشاعر ، وأنه لم يكن يفهم المرأة ولم يكن يتذوق الموسيقى ولا يحس جلال العقيدة •

وقال آخرون : ان مصادر فرويد هى حوالى مائة مريض التقى بهم وليس بين مصادره سوّى واحد ، وهذا كله من شأنه أن يكشف فســاد الاعتماد على آراء فرويد فى تقديم منهج لعلم النفس •

كذلك اعتمدت دراسات الاخلاق على مجموعة أفكار يونانية قديمة ، وتراث رومانى ونصرانى ، وقوام الفلسفة الاخلاقية الغربية الحديثة :

هى نظريات الصراع بين البشر وبين الله (سبحانه وتعالى عما يقولون

علوا كبيرا) الاسراء ، والخصومة بين الالهة والناس ، فالالهة تنتقم من الناس فى وحشية وعنف ، لتنفرد وحدها بالقوة ، وهذا الأساس الفاسد هو الذى يقوم عليه المفهوم الغربى والمسرحيات والقصص •

وقد اتصل هذا المعنى الاغريقى بالفكر الرومانى ، الذى يقيم فلسفته على أساس (أن أهل روما هم السادة والناس جميعا خارج روما عبيد) •

ومن ثم علا مذهب المنفعة ، وقام كل شىء على أساس القوة وعبادة القوة ، اعتقادا بأنها وحدها مصدر الثروة ، وكانت الفكرة المسيطرة فى احتكار القوة واستغلال الامم لمصلحة روما (وهو ما يطبق اليوم بين الشمال والجنوب) وبين الاستعمار والدول النامية ، التى يطلقون عليها المتخلفة ، مع أنها هى المالكة الحقيقية للثروذ التى ينتهبها الغرب •

والنظرية الثانية التى استمدت منها النظريات الاخلاقية الغربية هى : « الرهبانية » القائمة على تعذيب الجسد ، بحسبانها مثلا كاملا فى الدين والاخلاق ، والاحتباس فى الأديرة والغاء الزواج ، وهو تضاد للفطرة الانسانية وتقييد للطبيعة ، وكان من نتيجة هذه المعاكسة تفشى حركة الاباحية والمادية العاتية •

وقد ورثت الحضارة الأوربية المعاصرة هاتين النزعتين ، وتطورتا حتى جاء عصر النهضة فأعلى من قدر الانسان حتى أصبح معبودا ، ثم ظهرت نظريات دارون وماركس وفرويد ، وكلها تحاول أن تفرد الجانب المادى وبالاحرى الجانب الحيوانى فى الانسان بالحياة ، وتنكر جانبه الروحى •

ومن هنا تحول مفهوم الاخلاق الذى جاءت به الأديان الى أنانية شديدة ، ودعا ميكافيلى الى السلطة الاوتقراطية كوسيلة لترويض الانسان الذى وصفه بأنه مطبوع على الشر ، وانه أقرب الى الحيوان منه الى الملائكة ، كما دعا الى أن الغاية تبرر الوساطة •

ثم دعـا فرويد الى اطلاق الغرائز الجنسية وعدم تقييدها ، وكـان هذا مسـتمدا من الاخلاق اليونانية ، ثم أعلن دور كايم : أن نظام الاسرة والجمـاعة ليس نظاما فطريا ، ثم أعلنت المـاركسية أن الاخلاق خاضعة للظروف المعيشـية لكل مجتمع •

وهكـذا حاولت النظرة الغربية أن تجرد الاخلاق من فكرة الالتزام والواجب والضـمير الخلقى ، بينمـا لا يمكن أن توجد الاخلاق كقوة فاعلة فى المجتمع ، دون فكرة الالتزام ، بحسبان أن الالتزام هو العنصر الاساسى أو المحور الذى تدور حوله المشكلة اخلاقية •

ان زوال فكرة الالتزام يقضى على جوهر الحكمة العملية التى تهدف اليهـا الاخلاق ، فاذا انعدم الالتزام انعدمت المسـؤولية ، واذا انعدمت المسؤولية ضـاع كل أمل فى وضـع الحق فى نصـابه ، واقـامة أسس العـدالة •

ومفهوم « الالتزام » يقتضى أن تكون الفضـيلة قوة فـاعلة ، اذا ملأت نفس المرأ حفزته الى العمل النـافع والى النشـاط المستمر ، حيث تتحول الفضـيلة من قوة معنوية فى نفس الى قوة حية ، ويكون (الخير الاخلاقى) بمثابة سلطة ملزمة يتقيد بها الجميع •

وقد دعـا (القرآن الكريم) الى الالتزام الخلقى ، وكشف عن أن النفس الانسـانية عرفت منذ تكوينها الاول معنى الخير والشر ، « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »سورة الشمس — وان النفس الانسانية قـد ألهمت الحدس الخلقى فعرف طريق الفضـيلة والرذيلة « وهدينـاه النجدين » سورة البلد •

وقد تنحرف الطبيعة الانسانية نحو الشر ، ولكن الانسـان قادر على أن يردهـا ويستعيد قدرته وسيطرته على قيادها ، وفى النفس قوة كامنة

تهىء النصح « النفس اللوامة » وتحدد للانسان ما يجب عمله وما يجب تحاشيه ، هذه السلطة التى تسيطر على قدراتنا وعلى غرائزنا هى أسمى جزء فى نفوسنا •

وقد واجه مفهوم الاخلاق الغربى الوافد تحديا خطيرا بالنسبة للفكر الاسلامى ، وما جاءت به الاديان ، وخاصة فى دعوته الباطلة الى فصل الاخلاق عن الدين ، ذلك أن مصادر الاخلاق كانت دائما مرتبطة بالاديان نابعة منها ا وأن أى عمل أخلاقى لا قيمة له ، اذا لم تكن حركته قائمة فى اطار العقيدة •

وكان من أكبر أخطاء مفهوم النظرية الاخلاقية الغربية قولها بالخطيئة وأن النفس شريرة فى أصلها ، وقد جاء مفهوم الاسلام مقررا أن الانسان يولد على الفطرة ، وأن أهله هم الذين يوجهونه الوجهة التى يرونها وأن الانسان قابل لكل من وجهتى الخير والشر ، وأن بناء الارادة واقرار فريضة الالتزام الخلقى ، هو الذى يمكن من التوجه الى الخير « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » سورة الشمس — وقد عنى القرآن الكريم بايقاف المشاعر النبيلة ودعا الى الخير وإثارة مشاعر الاخوة والكرامة والرحمة •

كذلك كان من أخطر أخطاء النظرية الاخلاقية الغربية : القول « بتطور الاخلاق » والواقع أن الاخلاق ثابتة ، وأن الذى يتطور ويتغير هى التقاليد والعادات لأن الاخلاق جزء من الدين لا يتغير ، لاتصالها بالفطرة الانسانية الثابتة على مدى ازمان ، وان التقاليد هى من صنع المجتمع ولذلك فهى تتغير وتتغير •

ومن هنا فان الاخلاق الاسلامية : تتسم بسمة الثبات : وثبات الاخلاق من ثبات القيم العليا ، التى قدمها الاسلام فى اطارات واسعة ، ولم يسمح بتجاوزها ، وان أتاح لها فرصة الحركة فى ظل الضوابط

والحدود ، التى جاءت سمحة يسيرة بتقرير عامل الزمن ، ومراعــاة الظرف والوسع والطاقة والتوبة .

وهنا تتمثل « وســـطية الاســلام » وواقعيته فى ارتباط المطلق بالنسبى والمثالى بالواقعى ، ومن نقطة ثبات الاخلاق ، يتبين الفــارق بين الأخلاق والتقاليد ، فالاخلاق ثابتة لإنهــا جزء من الدين الموحى به ، وهى بذلك شــطر كيان متكامل ربانى المصــدر انسانى الهدف .

أمــا التقاليد فهى وسائل عارضة من صــنع المجتمعات لا من صنع الله ، تختلف وتتغير باختلاف الزمن والبيئة .

مظــاهر الثبــات :

ويبدو ثبات القيم الاخلاقية فى قواعد الحلال والحرام والخير والشر ، والحق والباطل ، ويتجلى ثبات القيم فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، وبين الاسرة والابنــاء .

ويخضــع لقانون الثبات : الانســان نفسه فى طبيعته وتدرجه من الطفولة الى الشــباب الى الكهولة ومن ثبات القيم : ثبات حقيقة الموت .

وهكذا نجد أن اتخــاذ مفهوم النظرية الأخلاقية الغربية فى دراساتنا وجامعاتنا له أثر بعيد فى تخريب النفوس الشــابة ، التى تتصــور أن هذه النظرية هى حقيقة يمكن اتخــاذها مصدرا للسلوك بينما هى فى مجموع فروعهــا تتعارض مع الفطرة ، وتختلف مع مفهوم الدين الحق ، وان من شــأن الاعتقاد بها والتماسها فى التطبيق أن تصــل بالانسان الى شىء غير قليل من التمزق والاضطراب النفسى والغربة ، لانه يفصــل الانسان عن الفطرة والاصالة .

وشر مــا تقدمه هــذه النظرية من خطر هو تراخى مفهوم (الالتزام الخلقى) الذى هو فريضــة حقيقة من شأنها أن تحقق بناء الشخصــية الانســانية على أساس متين وقادر على فهم الحياة والتكامل .

ان أبرز مفهوم الاخلاق فى الاســلام : « الالتزام الخلقى » الذى يتمثل فى الدعوة الى اتباع القواعد العــامة ، التى أمر الله بهــا ، مع ترك حرية التصرف والاختيار للمرء فى نطــاق التفاصيل ، التى تعرض تبعــا لتغير ظروف الحياة .

ومع ذلك فان القانون الاخلاقى فى القواعد لا يدعى أن هناك طريقة واحدة لفهم القاعدة ، أو أن هناك طريقة واحدة لتطبيقها .

ومن مضمون هــذه النظرية أنه بالالتزام الخلقى فى مفهوم الفكر الاســلامى ، نجد حلا جذريا للمعضلة التى أثارها الفلاســفة الغربيون ، لانها تقوم على وســطية الاسلام وتكامله وقدرته على الحركة ، دون أن يجنح الى الجمود أو التعصــب أو الانحراف ، ذلك أن قوام الاخلاق فى الفكر الاسلامى هو : الحرية والاختيار .

فلا أخلاق بغير حرية ، كما لا تكليف بغير اختيار ، لذلك يقرر الاسلام أن المكره اذا فعل مــا يكره عليه له عذره وقد ســمى الاســلام (حرية الارادة) : الكســب والاختيار ، وجعلهــما مناط التكليف ومدار العمل الخلقى ، ومن حرية الاختيــار أن يكون العمل الخلقى متصــفا بالطواعية والانبعاث من أعماق النفس ، حتى يكون صــادرا عن ارادة طيبة فى حب الخير والحق والفضيلة .

ولعل أخطر مــا تردده النظرية الغربية فى الاخلاق : انفصــالها عن الدين والدعوة الى أخلاق منفصلة ، وتلك نظرية خطيرة يعارضها الاسلام الذى يقوم مفهومه على التكامل بين القيم ولا يفصــلها ، فليس هنــاك أخلاق منفصلة عن الدين .

ذلك : أن المسؤولية الاخلاقية هى مســؤولية جزاء ، والجزاء من الدين ، فلو تقرر فى النفس أن ليس هنــاك دين ، فمعنى هــذا أنه ليس هناك جزاء ،وهناك لا تكون للاخلاق قيمتهــا الحقيقية المندفعة من أعماق النفس .

وقد أجمع كثير من الباحثين على أن العــالم فى العصر الحديث قــد تضـــخم عقله وضعف روحه ، فالاخلاق لم ترتق ارتقاءا مناســبا مع تقدم العلوم ، بل أن الفلسفات فتحت بابا من الوهم فى الاســتهانة بأخلاقية العلم ، وان تقدم العلوم لم يضمن تقدم الاخلاق ، ذلك أن الانســان قد أصابته لوثة من الغرور ، نتيجة توســع مجال الكشـــف والاختراع على الظن بأنه صاحب الفضل فيه «أنما أوتيته على علم عندى» سورة القصص— ولم يدر أنه من عطاء الله تبارك وتعالى ، ومن ثم : فقد أعلن خطأ ونكرا أن البشرية أصبحت راشـــدة ، وليست فى حاجة الى توجيــه الدين ، ثم كانت انطلاقة الغرائز واللذات ، عاملا مؤشرا على فكرة الالتزام الخلقى ، وغلبة مذاهب المنفعة والانانية ، بالاضـــافة الى عزل الاخلاق والدين عن مجــال التربية والتعليم فى الغرب ، كل هــذا أدى الى عزل الاخلاق عن حركية الحياة والمجتمع . وهذا مصدر « أزمة الانسان الغربى الحديث » .

وفى هــذا يقول العلامة « جود » أســتاذ الفلســفة الانجليزية فى كتابه (سخافات المدنية الحديثة) : « ان المدنية الحديثة ليس فيهــا توازن بين القـــوة والاخلاق ، ومنذ النهضة ظل العلم فى ارتقـــاء والاخلاق فى انحطاط ، وقد غلب على الفكر الغربى طابع التحرر المطلق فى مجــال المجتمع والمرأة والفن ، وظهرت الدعوة الى غلبة النزعـــة الجمالية على النزعـــة الاخلاقية ، وطغيان فكرة الفن للفن » .

ولا شك أن هــذه الحركة كانت رد فعل أكيد لمفـــاهيم المســيحية الغربية فى الاخلاق ، هذه المفاهيم التى قامت على أساس الحرمان والرهبنة وتعذيب الاجســـاد بما يعوق الفطرة ، مما خلف انفجارا طاغيا فى الدعوة الى التحرر ، فالتحلل ، وظهور مذاهب تجدد الدعوة الى الاباحة الاخلاقية « الابيقورية القديمة » بحســـبان أن اللذة الجسمية هى الغرض الاسمى من الحيـــاة وان العقل والتفكير هى أكبر معول فى هدم الانسانية .

وكذلك كان ذيوع نظرية (فرويد) فى الســلوك الجنسى ، وظهور

الوجودية ، بمثـابة رد على تحدى الحربين العالميتين الاولى والثانية ، وكل المذاهب الفلسفية تظهر فى مواجهة تحديات ، وهى تحديات متموجة بالنزعة الابيقورية ، تظهر فى مواجهـة النزعة الرواقية ، والالحـاد يظهر فى مواجهة الجمود ، والتحلل يظهر فى مواجهة الرهبـانية ، والزهد يظهر فى مواجهة الترف ، ويرى الباحثون أنه لا توجد نظرية طبيعية تظهر من فراغ •

ولقد حاولت هـذه المذاهب اطلاق حرية الانسـان اطلاقا كاملا ، والسخرية من (الالتزام الخلقى) بحسبان أن المجتمع عدو للانسـان ، وقد قامت هذه النظرية على أساس [القلق ، الضياع ، العدم] وكلها نظريات وفلسفات مرتبطة بواقع المجتمع الاوربى وظروفه بين الحربين العـالميتين وبعدهمـا •

ومن هنا نجد أنهـا لا تصلح أسـاسا للثقافة العامة أو الدراسـة الجامعية ، من حيث أنهـا تمثل فكر أمة أخرى فى ظروف أزمة اجتماعية وأخلاقية وانسـانية ، ومن حيث أنها لا تتصل بقيم الفكر الاسـلامى ، وتعتمد على المفهوم المـادى • فضلا عن معارضتها للفطرة ، ومن حـق المسلمين أن يقدموا وجهة نظرهم فى الاخلاق والنفس جميعا •

ذلك أن الفكر الاسـلامى فى مفاهيمه الاساسية يستطيع أن يواجه الحيـاة الحديثة وتحديات الحضـارة ، على خير ممـا يواجهها به الفكر الغربى ، لانه يقوم على فكرة متكاملة جامعة بين الروح والمـادة ، وليست مادية صرفه ، ولانهـا تتصل بالفطرة الانسانية ولا تتعارض معها ، ولانها ربانية المصـدر ، وليست بشرية من أهواء الناس وشـهواتهم ، فان من شأن معطيات المفهوم اخلاقى الاسـلامى : أن يحفظ الشخصية الانسانية سليمة من عوامل الاضـطراب والقلق والضـياع والتفسخ ، ويعطيهـا الى ذلك قدرتها على الصـمود أمام الاخطار ويمنحهـا الارادة القادرة على التغيير •

لقد قدم الاسـلام للاخلاق مفهوما جامعا عميقا ، يقوم على أسـاس

الربط بين الدين والاخلاق • فالاخلاق معرفة وعمل ، والمبادىء الاخلاقية أساس الواقع تستهدف تكوين وازع داخلى لمقاومة دافع الشر ، وهى ليست مجرد وعظية نظرية ، بل هى مبادىء ايجابية محكمة بنيت على تقوم على الالتزام والتقوى •

ولقد عادل الاسلام بين الانطلاق والانضباط ، وأعطى المسلم « الاستطاعة » : « فاتقوا الله ما استطعتم » آية : ١٦ التغابن) ورفع عنه القسروالاضطرار والخطأ : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » الاحزاب : ٥ •

وفى هذا المجال يدعو مفهوم الاخلاق الاسلامى الى : اتقاء الشبهات ، وأعلن أن الحلال بيّن والحرام بيّن وأن بينهما أمورا مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، وأن البر ما اطمأنت اليه النفس والاثم ما حاك فى الصدر ، وخشيت أن يطلع الناس عليه •

وهكذا يحتضن الفكر الاسلامى مفهوما غاية فى الوسطية والمرونة والاعتدال والتكامل •

وبالنسبة للالتزام الخلقى ، فهو يقضى باتباع القواعد العامة مع ترك حرية التصرف والاختيار للمرء فى نظام التفاصيل تبعا لتغير الظروف ، وتلك قاعدة مرنة فى الاختيار والتصرف وفيها جانب الاجتهاد الشخصى •

اختلاف بيّن :

ومن هذا كله نجد أن مفاهيم النفس والاخلاق الاسلامية تختلف اختلافا واضحا وعميقا عن مفاهيم الفكر الغربى ، التى يدرسها أبناؤنا

واخوتنا فى عديد من الجامعات والكليات ، تحت اسم فرويد وسارتر وماركس ودور كايم وديوى •

ولا مانع من تدريس هـذه النظريات على أنهـا نظريات وفروض تقبل الخطـأ والصواب وأن للاسلام ازاءها وجهة نظر ومفهوما واسـعا عريضا مستمدا من الفطرة وأقرب الى العلم والاصـالة منها جميعا •

---

(١) الايقورية : نسبة الى الفيلسوف الاغريقى ابيقور الذى كان يقـول بحرية اللذة .

(٢) الرواقية : مذهب مناقض للابيقورية .

الفصـــل الثانى عشر

حضارة التوحيد وحضارة الوثنية

ان مفهوم « الحضـــارة » المطروح فى مناهج الدراسات الجامعية والمدرســية ، يدور كله فى فلك الحضـــارة الغربية ويقوم على مجموعة من المسلمات التى يراد فرضـــها على العقلية الاسلامية والفكر الاســـلامى ، على نحو يخلق التبعية العقلية والاجتماعية ، ويستهدف القول فى مجموعه : بأن هناك حضـــارة واحدة عرفتها البشرية ، بدأت فى أرض اليونان وانتهت اليوم فى الحضارة الغربية ، وان كل حضارة ظهرت بين ذلك فهى امتـــداد لهذه الحضارة وجزء منها ، وأن الحضارة الاسلامية ما هى الا رافدة من روافد الحضـــارة الغربية ، وهو غير الحق ، وقد حفلت الدراسات المختلفة المقدمة فى مناهج الدراســـة بالشبهات التى تحـــاول أن تغض من شـــأن الحضارة الاسلامية ، وتوجه اليهـــا الاتهامات والشكوك •

فهم ينسبونها الى العرب مرة وينسبونها الى انها نتاج الفكر اليونانى أو القانون الرومانى مرة أخرى •

طرحت تلك المفـــاهيم التى تغض من شـــأن الحضارة الاســـلامية فى أفق كل الدراســـات والمناهج ، فى دراسات القانون ودراسات الفلسفة ، ودراســـات العلوم ، فى محاولة لانكار فضـــل العرب والمسلمين والقول بأنهم أقاموا حضـــارتهم على فلســـفة اليونان وأنهم لم يقدموا شـــيئا للبشرية •

وقد وضـــعت جميع النصوص التى كتبها المتعصبون على الحضارة الاســـلامية بين أيدى الشباب المسلم ، من أمثال ما كتب رينان وجلدسيهر وماسنيون ، بينما حجبت الكتابات المنصفة التى كتبهـــا جوستاف لوبون وكارليل ودرابر وغيرهم •

بل لقد وصفت هذه المنصفة بالسذاجةوالخلط لانها تقول الحقيقة وتحول دون هدف الاحتواء الذى يفرضه التغريب •

حضـــارة التوحيد :

وقد انطلقت ابحـــاث الحضـــارة المطروحة فى أفق الفكر الاســـلامى من منطلق الاســـتعلاء باللون أو الجنس ، تقول هـــذه النظرية : ان هناك حضـــارة عالمية واحدة ، وان العرب والمسلمين كانوا حلقة من حلقات هذه الحضـــارة •

والواقع أن الحضـــارة الاسلامية ــ بالرغم من أنهـــا أخذت الخيوط الاولى لمـــا كان معروفا فى العالم القديم من علوم ــ فانهـــا ابدعت حضارة جديدة لهـــا ذاتيتها الخاصة وطابعها المميز ، وان الاســـلام قد قدم مفهوما جديدا « للتحضر » يختلف عن مفهوم « المدنية » المـــادى المرتبط بالعمارة والصناعة والرياضيات والفلك والجغرافيا ، ذلك الذى قـــدمه الاســـلام ، انمـــا هو بمثابة الوعاء الذى تصاغ فيه المدنية من بعد وتصهر فيه العلوم ، ذلك هو التوحيد والايمـــان بان الله تبارك وتعالى هو الخـــالق والزارع والصانع ، وهو القائم بقدرته من وراء الكون كله ، ســـاعة بعد ســـاعة ولحظة بعد لحظة ، وأنه هو الذى أنشأ هذا الكون من العدم وأنه أقـــام له قوانين ونواميس يتحرك من خلالها الى أجله المحتوم •

وقد اطلع الله تبـــارك وتعالى البشرية على بعض هـــذه القوانين والنواميس حين جاءات رسالة الاسلام بالقرآن تضع هذه المفاهيم بين يدى الانسان لينتفع بها فى سعيه الى استكناه الكون واستخراج ثروات الأرض ، وان هذه الدعوة التى وجهت الى البشرية بالنظر الى السموات والارض •• والتفكر فيهمـــا : كانت منطلق « التجريب » الذى عرفه المسلمون وحاكموا اليه كل الفكر القديم الذى عرفته حضارات بابل وفارس والفراعنة واليونان والرومان ، فصححوا اخطاءه ورفضـــوا مـــا كان منه قائما على الســـحر والخرافة ، وحولوا خلاصـــة هذا التراث القديم الى مادة خام صنع منها

ومن غيرهـــا « المنهج العلمى التجريبى » الذى قدمه العلمـــاء المسلمون للبشرية •

هـــذا فى جانب العلم ، أمـــا فى جانب الحياة فقد قدم الاســـلام مفهوم المســـاواةوالاخاء الانســـانى ووحدة البشرية كلهـــا لادم ، وآدم من تراب وأنه لا فضل لعربى على عجمى ولا لابيض على أسود الا بالتقوى وبذلك شجب الاســـلام النزعة العنصرية وقضى على مفهوم العبودية الذى قامت عليه حضارات الفراعنة والفرس والرومان •

هذا هو اطار الحضـــارة الذى اقامه الاسلام لتصاغ فى اطاره المدنية المـــادية القائمة على العمارة والصناعة والرياضـــيات والفلك والجغرفيا ليكون ذلك كله خالصا لله (تبارك وتعالى) مستهدفا أقامة المجتمع الربانى القائم على العدل والرحمة والكرامة •

ومنـــذ جاء الاســـلام فان حوض البحر المتوسط قد انشـــطر الى حضارتين : فقد برزت حضـــارة لها طابعها وذاتيتها وتشـــكيلها الروحى والفكرى والنفسى والاجتماعى ومن خلال الاســـلام قامت حضـــارة لها مضمونها الاجتماعى ولهـــا نظريتها الخالصة ولها أسلوبها فى المعرفة ولها منهجهـــا العلمى التجريبى الذى قدمته الى البشرية كلهـــا ثم قامت عليه الحضارة العالمية الحديثة •

هذا التميز الخـــاص بالحضارة الاسلامية قد عرفه رجال نشؤوا فى اطار الحضارة الغربية ، وقارنوها بالحضـــارة الاسلامية :

يقول الاســـتاذ ليوبولد فايس : « ان الحضـــارات المختلفة قامت ونشأت رويدا رويدا من تراث الماضى ، بما حوى من ضروب الرأى وتيارات الفكر ، التى استغرقت فى تبلورها الى شكلها الخاص وكيانها المحدد أمادا طويلة من الزمن ، وقد انفردت حضارة الاسلام وحدها بانبجاثها الى الحياة دون سابق عهد أو انتظار ، وقد جمعت فى فجر نشأتها كل المقومات الاساسية

لحضـــارة مكتملة شابة ، فقامت فى مجتمع واضح المعالم له نظرته الخاصة الى الحياة ، وله نظامه التشريعى الكامل ، وله فهمه المحدد لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع •

ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بهـــا الماضى ولا وليدة تيارات فكرية متوارثة ، ولكن هذه الحضـــارة كانت وليد حادث تاريخى فريد ، هو تنزيل القرآن الكريم وكان مردها الى رجل فذ فى التاريخ هو « سيدنا » محمد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ •

فلقد أدرك الذين أمنوا بالاسلام واتبعوا محمدا صـــلى الله عليه وســـلم ، وصـــدقوا بالقرآن فاتخذوه قاعدة حياتهم ، ان الدين الجديد الذى جاءهم به القرآن : يتطلب منهم هجرة بائنة الى مـــا جاءهم به • عمـــا توارثوه من عقائد الحياة ومـــا الفوه من مناهج السير فيهـــا ، فكان قبولهم لمـــا جاء به بداية حدث جديد فى حياة البشر وتاريخهم •

اذا أنهم أدركوا أن الاســـلام وقد جاء نظاما شاملا للحياة قد افتتح حقا حضارة جديدة ، وما كان دوره ليقتصر على التمهيد لغيره من الحضارات والارهاص بها فتبينوا كمـــا تبين من جاء بعدهم : أن مبعث رســـول الله صلى الله عليه وسلم كان إيذانا ببدء عهد جديد بكل مـــا ينطوى عليه البدء من حقائق ومعان •

ولن يفهم من هـــذا أن الاسلام قد قطع كل صلة بين حضـــارته وبين الماضى ، فهذا فهم لا يقبله العقل أو يستسيغه لان كل كائن عضوى لا يمكن أن يوجد دون اســـلاف وأباء ، فلن ندهش اذن حين نرى أن مـــا جاء به رسول الله « صلى الله عليه وسلم » على مـــا هو عليه من جدة فى النظر الى الكون والحياة ومن استحداث نظام اجتماعى كامل يتضمن كثيرا مما جاءت به الاديان ويتحدث عن كثير من الفضائل الخلقية التى كانت لدى من سلف قبله ، ولم يتنكر لهذه الفضائل والحقائق أحد من أهل الاسلام ، بل لقد كان القرآن ذاته أصرح ما يكون اعترافا وتسليما •

والقرآن الكريم هو الذى دعا الى العلم والعقل والبرهان ، فحقق قيام « منهج التجريب » وهو الذى دعا الى وحدة البشرية والاخاء الانسانى فحقق تحرر الانسان من عبودية الاباطرة والأكاسرة ، وللقرآن هو الذى دعا الى التوحيد فحقق تحرر العقل الانسانى من الوثنية وعبادة الاحجار .

هذا هو التميز الواضح الذى يقطع بأن حضارة الاسلام لم تكن حلقة فى حضارة سابقة أو لاحقة ، ومنه يتكشف زيف الدعوى بالقول بأن العرب والمسلمين لم يكونوا فى وجودهم التاريخى الضخم الذى انفردوا به الف سنة كاملة على الاقل . (منذ بزوغ الاسلام الى ظهور النهضة الاوربية الحديثة عام ١٥٠٠ م) الا جزءا من حضارة البحر المتوسط ، أو مرحلة من مراحلها ، بل كانت حضارة الاسلام **« وجودا ذاتيا قائما بالحق »** شطر البحر المتوسط ولا يزال يشطره الى حضارتين .

ولا ريب أن الحضارة الغربية الحديثة ، حين أخذت منهج التجريب الاسلامى ، قد سجلت على نفسها أنها تنطلق من حيث قامت الحضارة الاسلامية فى هذا الجانب وحده ، دون أن تأخذ بمفهوم الاسلام المتكامل فى الإخاء البشرى أو صياغة العلم والحضارة فى « بناء المجتمع الربانى » الذى دعت اليه أديان السماء ورسم الاسلام منهجه كاملا .

وهذا الفهم الواضح الصريح يرد زيف دعاوى الفهم الذى اعتمدته المناهج الدراسية والجامعية والذى يقول (الحضارة العربية) ولا يقول (الحضارة الاسلامية) هى حضارة سطحية ظاهرية انتجتها عقول أوربية ومنابع يونانية فارسية هندية وحيثما وجد الانسان ظاهرة من ظواهر الحضارة فى البلاد العربية فلا بد من ارجاعها الى عقلية أرية وانتاج غير سامى .

وقول ماسينيون : ان كبار رجال الحضارة الاسلامية لم يكونوا ذوى دم عربى محض بل موالى مستعربين ، قول غير دقيق ، وقد رد كثير من كتاب العرب والمسلمين على هذه الاتهمات .

يقول الدكتور جواد على : ان هـذه النظريات لا قيمة لهـا أبدا ، اذا لم تدعم بالنصـوص والبراهين ، كمـا أن الاستشهاد بحادثة أو رواية لا يتخذ حجة للحكم به على أمة ، وانى اسـتطيع أن أجعل الامة الجرمانية أمة همجية بربرية خاملة لم تنهض الا اخيرا بالاسـتناد الى النصوص الجرمانية نفسـها ، وعن طريق مجموعة من المصـادر والمنابع عن التاريخ الجرمـانى •

ويستطيع كل مؤرخ أن يفعل ذلك فى تاريخ أى أمة ، وأعتقد أنه لو كانت الامة العربية قوية فى الوقت الحـاضر لكانت النظرية على عكس ذلك تماما ، ويقـول : ان الحضـارة الاسلامية ليست حضـارة عنصرية ، وقد اشترك فيهـا كل الذين اعتنقوا الاسـلام بصرف النظر عن اجناسهم ، فان القرآن واللغة العربية التىشكلت الفكرالذى صنع الحضـارة ، ولقد جاءت حضـارة الاسلام بعد حضارات العبودية الفارسـية والفرعونية والرومانية ، وعبادة الفرعون والقيصر وكسرى لتقدم للبشرية الاخـاء البشرى والعدل والرحمة ، وترفع العبودية عن العقيدة وعن علاقة الانسان بالانسـان •

وبذلك فهى تختلف أشـد الاختلاف عن الحضـارات اليونانية وغيرها وعن الفكر اليونانى وغيره •

ولكن هـذه الحضارة استطاعت أن تصهر فى بوتقتها مـا كان موجودا فى العالم من ومعـارف بعد أن امتحنتها واستصفتها وادخلتها فى بوتقـة « التجريب » الذى هو المنهج الذى صـنعه المسلمون ، وقدموه للبشرية وقامت عليه الحضـارة المعاصرة ، وان مـا وجده المسلمون لدى اليونان لم يكن سـوى نظريات بعضها صحيح وبعضها خاطىء فضلا عن الخرافات والاسـاطير التى استبعدها المسلمون تماما •

ومن ناحية أخرى فان منطلقات الحضـارة الاسلامية وغاياتها تختلف عن منطلقات الحضارات السابقة عليها من فرعونية وفارسية ويونانية وما تلتها من حضارات الغرب الحديثة •

ولذلك فان محاولة فرض مفاهيم عامة وقوانين شاملة للحضارة البشرية ، تحاكم اليها الحضارة الاسلامية ، من شأنه أن يكون قاصرا ، لانه يعجز عن استيعاب ذلك التباين الواضح فى المنطلقات والغايات التى يمثلها الاسلام :

أولا : فى مسألة التقدم :

فالاسلام يفهم التقدم على غير ما تفهمه الحضارة الغربية ، وهو لا يقر التقدم المادى الخالص ، ولا يرى تضحية القيم الاساسية من أجل هذا التقدم المادى ، ويقرر الاسلام ان الرقى مادى وروحى معا ، وان كليهما لا يعارض الآخر ، وانهما وجهان للحياة الانسانية يتكاملان معا ولا يصلح احدهما دون الآخر •

وان التقدم الاسلامى مفهوم متكامل أساسه « انسانى » جامع للمعنويات والمادة ، والتقدم المادى وحده ليس فى نظر الاسلام تقدما كاملا ، والاسلام دعوة الى التقدم فى اطار الاسلام والايمان وسيادة الانسان على الكون تحت حكم الله •

ثانيا :

ان طابع الحضارة الاسلامية أخلاقى فى أساسه ، وان ثمة أرتباطا وثيقا بين الحضارة وبين الايمان بلله ، بينما لا ترى الحضارة الحديثة أن « الاخلاقية » أساس من اسسها ، وتستبدل بها (النفعية) والتبرير القانونى الذى قدمه ميكافيلى ونظرية الذرائع لديوى •

ثالثا :

يقوم المفهوم الاسلامى للحضارة على التكامل ، بينما تقوم الحضارة الغربية على مفهوم تجزئة الكون والطبيعة « والفصل بين العالم وصانعه » •

رابعا :

تقوم الحضارة الاسلامية على مفهوم العدل الشامل للبشرية كلها ، بينما تقوم الحضارة الغربية على مفهوم التحيز بالعدل للجنس

الابيض وحده ، مع النظر الى باقى الامم على انهـا أقل درجة من ناحية العنصر أو الكفاية •

خامســا :

فصـل الاسلام بين العقيدة التى يجب احترام حريتها عند الآخرين ، وبين المصالح الدنيونة التى تعتمد على الكفاية والامانة ، والتى لا تميز بين دين ودين ، فى سـبيل التعاون ، لتحقيق المثل العليا الانسـانية بينمـا لا تعترف الحضـارة الغربية بعقائد ولا حريات الآخرين •

سادســا :

يقوم مفهوم الاسـلام على « الاخاء البشرى » بينمـا يقوم مفهوم الحضـارة الغربية على مفهوم العنصرية والصراع بين القوميـات ، ويقيم مفهومه الاسـتعمارى على أساس ابادة الاجنـاس المقيمة ، واستعباد الاجناس المهاجرة •

وقد أشـار كثير من الباحثين الى : أن عقلية الرجل الابيض مسممة بالتعصب العنصرى ، والتفوق العنصرى ، ورسالة الرجل الابيض ، وان الثقافة الاوربية لم تتخل قط عن نصرانيتهـا وتعصبها •

ومن أخطر مفاهيم الحضـارة الغربية انهـا رفضت مزاحمة المسلمين لهـا فى أوربا فقالت : ان المسلمين يجب أن ينتهوا عند جبال البيرنيه •

يرفض المفهوم الاسـلامى للحضـارة الكثير من مقاييس الحضـارة الغربية التى لا تتفق مع الفطرة أو القيم أو واقع الحياة :

١ — يرفض الفكر الاسـلامى فكرة التفـوق لبعض الامم ، وهى التى تهدف الى فرض تفوق موهوم للجنس الابيض أو للجنس اليهود ، والمعروف ان هـذه النظرية قد تعين فسـادها وزيفها ، والحقيقة العلمية أن الاجناس كلهـا شاركت فى بقاء الحضـارات الانسانية •

٢ — يرفض الفكر الاسـلامى فكرة التفسير المادى للتاريخ ويرى

أن الاقتصاد عامل من عوامل متعددة تصنع التاريخ ، وان للاحداث التاريخية جانبين مادى وروحى ، وقد تبين خطأ القول بأن الحضارات والحروب والمجاعات وقيام الدول وسقوطها ، يرجع الى العوامل الاقتصادية المجردة أو صراع الطبقات .

٣ — رفض الفكر الاسلامى الصراع بين ايديولوجية الحرية وايديولوجية العدل ، حيث قدم الاسلام مفهوما جامعا للحرية والعدل ، بعيدا عن انحرافات الرأسمالية التى تؤله الفرد ،والماركسية التى تؤله الجماعة .

ان الدراسة الاصيلة للعلاقات بين الحضارة الغربية وبين الحضارة الاسلامية ، تكشف عن ان النفوذ الاجنبى (استعماريا وصهيونية وماركسيا) حاول أن يتخذ من أدوات ووسائل الحضارة الغربية سلاحا لهزيمة المسلمين والحيلولة دون نهضتهم أو الوصول الى مكانهم الحق ، ووجه كل اسلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية الى العالم الاسلامى ، على تعبير أحد رجالهم — الفريد كانتول سميث بقصد اذلاله وتحقيره وأشعاره بالضآلة والخنوع كما حاول أن يتخذ من سلبيات الحضارة عاملا من عوامل الهزيمة للمسلمين .

بل أنه حجب عن المسلمين كل ايجابيات الحضارة وخاصة العلم والتكنولوجيا واغرق العالم الاسلامى فى جوانب الفساد والتحلل والمغريات وفى مقدمتها « الخمر » .

يقول هنرى دى كاسترى : أن أحدّ سلاح يستأصل به العرب والمسلمون ، وأمضى سيف يفتك بهم هو الخمر ، وقد جربنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبوا أن يتجرعوه ، فتضاعف نسلهم ، ولو قبلوه لاصبحوا أذلاء ، وكذلك سلطت الحضارة الغربية الربا على المسلمين فاستأصلت ثرواتهم وامكانياتهم الاقتصادية .

ان من اخطر مقاتل الحضارة الغربية ، استعلاء عناصر التحلل

والانطلاق من اطار الضــوابط ، وكذلك استعلاء فكرة الحرب والابادة •

يقول رومــان رولان : ان هــذه الحرب نزاع دنس تتذوجه أوربا المجنونة وهى تســير الى حتفهــا كهتلر الذى قضى على نفسه بيديه ، أن القتال لم يتوقف يوما واحدا ، منذ نشبت الحرب الاولى عام ١٩١٤ •

وطبيعة الحضــارة الغربية طبيعة حربية واتجاههــا الى انشاء وسائل الحرب أكبر من اتجاهها الى وســائل العمران وقد استغلت فيها سيطرة الآلات •

يقول هنرى فورست : ان عصر الالات هــذا نعيش فيه كى يظــل كشــبح الوحش بتهديد الهــائل على طريق الرقى الانسانى • وقد صرنا جميعا منقسمين الى طوائف وأصبحت شخصيتنا تخبو وتختنق وتتضــاءل الى حــد عظيم •

وان الفكر الاسلامى ليرفض هذه الانحرافات التى تمر بها الحضارة الغربية ، والتى توردها مورد الهلاك ، فقد حملت الناس على الانصراف عن المعنويات الى المــاديات ، ودفعتهم الى ذلك الاندفاع وراء تملك الاشياء والاســتهلاك ، وهى نفس العوامل التى أدت الى ســقوط الامبراطورية الرومانية • كذلك ضــعف الروح الدينية عند الافراد والجماعات •

وقد بدأ هــذا بعد الحرب العالمية الاولى وعلى اثر ويلاتهــا ، وظهور طابع الوحشــية الذى القى ظلالا كثيفة على روح العدل الانسانية ، وبعد ذلك ضــعف نظام الاسرة وتداعى صرحهــا ، وضعفت الروابط الاجتماعية لنقص القوانين وعدم وفائها بحاجات التضــامن والتكافل الاجتمــاعى ، والاشتراكية المتطرفة تحت ســتار الديمقراطية الكاذبة •

لقد حرص المسلمون فى مفهوم الحضــارة على الحفاظ على « الذاتية الاســلامية » والشخصية الحضارية ، والتمسك بالاصالة والحيلولة دون الانصهــار فى اتون العالمية أو الاممية ، أو السقوط فى مصيدة الاحتواء الخــارجى ، ولم يكن شــغل المسلمين الشــاغل على مدى التاريخ انشاء

شخصية حضـــارية ، بل كان هدفهم حماية الشخصية الاسلامية الحضارية من ان تذوب وتتلاشى فى شخصيته حضارية أخرى ، ولقد كانت صـــيحة قادة الفكر الاســـلامى والحضارة الاسلامية أن المسلمين ليســـوا فى حاجة الى أن تصرعهم هذه الحضارة المـــادية ، وليس من مصلحتهم أن يذوب وجودهم فى خصمهـــا كذلك فان أبرز أخطاء المفهم الغربى محـــاولة محاكمة الاسلام الى واقع المجتمع الاسلامى المعاصر والخلط بين الفكرة الاسلامية الربانية وبين التطبيق البشرى المتناقض ولا ريب أن المنهج العملى الاصيل يفرق تماماً بين الامرين : بين حكم الاســـلام فى شىء وموقف المســـلمين منه : أى الفرق بين قوانين الاســـلام وتطبيقات المسلمين •

وتختلف الحضـــارة الغربية عن مفهوم الحضـــارة الاسلامية فى أمور اساسية ورئيسية :

أبرزها ايمـــان الحضارة الغربية بالربا ونســـبية الاخلاق والتطور المطلق ، بينما يقيم الاســـلام حضارته على الاخلاق الثابتة باعتبارها جزءا من الدين لا ينفك عنه ، ورفض الربا رفضا تاما ، والايمان بالتطور فى إطار جوهر الثبات •

وللاسلام موقفه من المرأة وعملها واختلاطها وارتباطها بالمجتمع ، وله موقفه من مفهوم الترف والرفاهية ومن مفاهيم اللباس والزى ، ومن التفرقة بين رجولة الرجل ، وأنوثة المرأة ومن تعرية الجسم وستره ، ومن مختلف قضايا الخمر والميسر والاباحية •

والاسلام يرفض هذه الجوانب من الحضارة الغربية التى تقـــوم عـــلى وثنية الترف والتحلل والتعرية ، ويفرق بين الحضارة وبين العلم المتحـــــرر •

ويرفض الاسلام الاتجاه الذى يحاول به بعض الباحثين استعمال مفاهيم الاسلام بتأويل النصوص أو تبرير الحضارة فى وضعها الحالى ،

فالاسلام لا يقر الواقع الفاسد ولكنه يطالب الحضارة بأن تعدل نفسها لتتفق مع قيمه وتتحرك فى اطاره ٠

ان الحضارة الغربية قــد خرجت عن نواميس الحضارات الصالحة للبقاء ، فقــد عقت الفطرة واستعملت العلم فى سبيل الابــاحة والقتل الجماعى ، وقــد عجزت عن أن تتجاوب مع تماسك القيم فى علاقات الأمم والشعوب ، وهى تتجه الآن الى الانهيار والدمار ٠

لقــد بدأت الحضارة الغربية دورتها منذ أوائل القرن الخامس عشر حين كانت الحضارة الاسلامية قد أوشكت أن تبلغ نهاية الدورة التاريخية لها ، فحملت منذ ذلك الوقت الى اليوم فى سبيل هدفها الذى اتخذته عنوانا لها « الرفاهية » وقدمت فى هذا المجال معطيات باهرة لاسعاد الانســان الغربى مهما كانت الوسائل ، ولكنها واجهت التحديات الخطيرة التى أدخلتها مرحلة الازمة لعدة أمور :

أولا : لانها ربطت الحضارة بالاستعمار ، وجعلت من الشعوب والأمم النامية مصدرا لخدماتها وسوقا لمنتجاتها وقــد جرى ذلك فى كل حركات الاحتلال والغزو والسيطرة السياسية والعسكرية ٠

ثانيا : لأنها عزلت نفسها عن المفهوم الانسانى الكامل الجامع بين الروح والمــادة ٠

ثالثا : لاستعلائها الجنس الأبيض صانع الحضارة الذى لا يقهــر (فى تقديرهم) وتجاهلها الدور الذى قامت به الحضارة الاسلامية فى بناء المنهج التجريبى ٠

رابعا : لغلبة الطابع المادى الصرف وأسلوب التعامل الربوى اليهودى والسيطرة الاقتصادية والغزو الفكرى ٠

خامسا : معاملة الاجناس المختلفة معاملة عبودية ، واحتجاز الكرامة الانسانية والحريه والرفاهية لاهلها وحدهم .

وقــد شهد بهذا الانحراف كثير من البــاحثين الغربيين المنصفين : تقول الكاتبة الفرنسية « مدام سنت بوانت » :

« انى أتهم المدينة الغربية بأنها قصرت فى القيام بالمهمة التى تزعم أنها ألقيت على عاتقها فى الاجيــال الاخيرة ، أعنى المهمة التى ترمى الى نشر تعاليم الانسانية وتعميمها على وجه الأرض بحيث تؤدى الى الاتحاد .

ويمكن للانسان أن يعبر عن هذه المهمة العظيمة بوسيلتين لا غيرهما وهما وسيلة حب الذات ووسيلة حب الغير ، أما الغرب فانه لم يقع اختياره لها جريمة ، وكان ذلك سبب ضياعه واضمحلال نفوذه ، لأن الوسيلة التى لجأ اليها ملعونة ، أن الانانية تقضى على الخير ، وتلتهم كل بر ، لقــد أراد الغرب أن يوجه العالم ولكن تحت سلطانه ومصلحته ، والعالم لا يساس الا بالعدل ، وبالحب والاخاء ، وبرد الحقوق الى أهلها .

ولكن الغريب لجأ الى القوة الغاشمة واعتمد على القوة وحدها وعبث بالشرائع الدينية وخالف تعاليم المسيح عيسى عليه السلام الذى أمــر بمحبة الناس جميعا .

لقــد أضاء « الشرق » دياجير أوربا بنور تعاليمه وما هذه العلوم التى يفخر بهــا الغرب الا من علوم الشرق ، وليس الذى يحجب النور عن الانظار هو مدينة الشرق القديم ، بل الوثنية الغربية ودين القوة وحب الذات والانانية التى يعمل بها الغرب ، لقــد اختــار الغرب الرذيلة على الفضيلة ، وانه بالتجائه الى الوســائل التى لا تعرفها الانسانية فقــد أثبت أن مدينته فشلت .

ويعنى هــذا أ نالحضارة الغربية انحرفت عن طريق الاصالة ، حين

عجزت أن تتحرك حركتها داخل اطار الربانية والالتزام الاخلاقى وتقدير مسئولية الانسان وجزائه ، ولقـــد عجزت عن المحافظة على القيم الانسانية للحضارات ، فهى قـــد قامت أساسا على المادية ثم تطورت مفاهيمها فى ظل عوامل ذات فـــاعلية الى تغليب مفـــاهيم اطلاق الغرائـــز ، وتقرير « حيوانية » الانسان ثم اندفعت الى تقرير الحرية على النحو الذى حطم كل الضوابط والقيم والحدود التى من شأنها أن تحمى الوجود الانسانى عن أن يدمر نفسه أو يدمر مجتمعه .

ولعل « الدوس هكسلى » حين يصور هذه الزاوية يكشف عن حقيقتها فى وضوح حين يقول :

ان الحضارة قـــد دفعت النـــاس الى التمرد على حيـــاة الروح . والاندفاع وراء المادة وقصرت جهودهم على المتع والرغبات ، وأعرضت بهم عن المثل العليا .

وان اندفاع العالم الى الاستمتاع قـــد شاع فى أقوال المؤلفين ، والشعراء والممثلين فى سبيل الدعاية للحياة المستهترة والاباحية ، وقـــد بالغوا فى مدح الحرية والتوسع فيها ، حتى أصبحت مرذولة مبغوضة كالسم الذى ينقلب داء بعد أن كان دواء .

وان المثل العليا حقيقة زاهية لا شك فيها ، لأنها ضرورية للعالم . وهى الوسيلة الوحيدة للقضاء على الفلسفة المادية التى أعجب بها هـــواة اللذات والباحثون عن مسرات الحياة بأنواعها ، وان النفوس البشرية لتضيع فى سبيل هذه الملذات وتفقد الثقة بالفضائل ، وقد أجمعت أرقى العقول فى سائر الأزمنة والامكنة على أن غـــاية الانسانية هى الســـلام والمحبة والعدل ، ومن المحبة الاخوية نشأت فكرة الوطنية ، وهى فكرة اذا لم تفهم على حقيقتها جلبت الشقاء على جميع الاوطان » .

ان الفوارق العميقة بين وجهة الحضارة الغربية ووجهـــة الحضارة

الاسلامية ، تفرض على المسلمين ان يواجهوا دراسات الحضارة المطروحة فى أفق الفكر الاسلامى بحذر شديد ، لأنها تحاول خداعهم عن حقيقة مفهوم الحضارة الاسلامى : ان أخطر انحرافات الحضارة الغربية فى مفهومها هو ما يغلب عليها من اطلاق الشهوات وما تحمله من هوى فى مواجهة شرعة الحق ، وما تؤمن به من استعلاء على العناصر الملونة ، وهى تطرح فى آفاق الأمة — التى كانت موضع نفوذها بالاحتلال أو بالسيطرة الاقتصادية — مفاهيم تستهدف تدمير قيمها وقواها المعنوية ، وأفساد شبابها وتبديد ثرواتها بالترف والانحلال لتظل الامة الاسلامية عاجزة عن امتلاك ارادتها واقامة منهجها الحق •

وقد جاء من دعاة الحضارة الغربية من قومنا من يدعون الى تقبل الحضارة الغربية خيرها وشرها ، وما يحمد منها وما يعاب ، وتلك دعوة باطلة مسمومة مردودة على قائليها ، فالمسلمون لهم مقاييسهم فى فهم الاقتباس والنقل من الحضارات والثقافات ، وهم يرفضون هذه الدعوة الى احتوائهم والسيطرة عليهم وتذويبهم فى أتون العالمية الامية بينما هم يؤمنون باخلاقية الحضارة وربانيتها •

وقد جعل الاسلام للاخلاق المكان الأرفع عناية ، وتعتبر مكارم غاية الدين الحق ، وثمرة لوسائله المختلفة وقد عمد الاسلام الى حياطة هذه الضوابط بتحريم الينابيع الثلاثة للشرور : الخمر والميسر والزنا تحريما لا هوادة فيه ، مع ايجابية الامر بالمعروف والنهى عن المنكر •

واباح الاسلام لكل انسان أن يستعمل حقه الطبيعى فى كل ما لا ينافى القانون العام ولا يجافى ناموس الاخلاق أو ما علم من الدين بالضرورة •

ويقرر الاسلام أن العلم وحده لا يكفى لوضع حد لشرور العالم وآثامه ، والعلم وحده لا يكفى للخلاص من الصعاب المحيطة به من كل

جانب ، وان الحضارة يجب أن تقوم عـلى المعنويات وتوفق بين العلم والروح ، كما تلائم بين العقل والقلب ، والحياة لا تكون آمنة يسـودها رحمة وسلام اذا إعتمد العلم هذه الأوضاع •

يقول الدكتور قدرى حافظ طوقان :

« لقـد استغل العلماء العلم بعيدا عن قوى الروح والقلب ، فأعلوا من شأن العقل والعلم علوا كبيرا ، وحكموا العقل فى القلب ، كما حكموا العلم فى الدين ، فنتج عن ذلك ما نراه من فوضى خلقية وحروب طاحنة رهيبة ، فاستأسدت الغرائز ، وأسرفت المطامع ، فاذا آلة العلم تتجه نحو التدمير والتخريب ، والفتك والتقتيل ، حتى أصبحت القوة مقياس تقـدم الامم وعظمتها •

والمسلمون لا يقبلون تغريب الحضارة بحجة غلبة الغرب وسلطانه فى العصر الحديث فان هذا الغلب هو مرحلة مؤقتة لن تستمر ، لأنها لا تستمد وجودها من الحق ، ولأنها تخالف الفطرة وتعارض سنن الكون والحضارات ولذلك فانها لن تلبث أن تسقط وهى تمر الآن بمرحلة « الأزمة » •

ولقـد أشار كثير من الباحثين الى هذا المعنى « لو أخذنا بمعيار الغلبة فى تقويم الحضارات لاختلت موازين القيم ، لأننا سنحكم بالفضل لكل غالب مهما كانت حضارته ، وقـد رأينا شعوبا مغلوبة . حكم لهـا العلماء والمؤرخون بالفضل عـلى الامم الغالبة ، كذلك فان الحضـارات الانسانية لا تقاس بالتقـدم الحربى والعسكرى . وانما تقاس بما تضيفه الى البشرية من قيم التقـدم والرقى ، ولن ينخدع المسلمون بما فرضه الاستعمار من قيم هذه الحضارة •

وان أبرز وجوه التعارض بين هذا المفهوم الذى يدعى اليه المسلمون والعرب وبين مفهومهم الاصيل ، أن وجهة النظر الوافدة تستمد منطلقها من نظرة مادية خالصة لا يعرفها الفكر الاسلامى الـذى يربط بين الروح

والمــادة والعقل والقلب فى اطار مفهوم جــامع ومنظور متكامل ، هو فى ذاته دين ومنهج حيــاة ونظام مجتمع ، ومن ثم فــأن الدعوة الى نقل الامة الاسلامية الى الحضارة الغربية عن طريق الانتاج العلمى الوافد من الغرب هى دعوة مضللة •

على العالم الاسلامى تيسير وسائل نقل التكنولوجيا وأساليب التقدم فى مجالات الزراعة والصناعة ، والكشف والبحث فى أعماق المحيطات وتفجير الصخور واستخراج الثروات المدفونة ، هذه الدعوة يجب أن تكون حرة وغير مرتبطة بأى دعوة أخرى الى نقل أسلوب العيش الغربى بما يستهدف القضاء عــلى الضوابط الاخلاقية والدينية والادبية ، وهى قيم قــام عليها المجتمع الاسلامى فى عقائده وعاداته وحياته الاجتماعية •

ان حــاجة المسلمين اليوم الى العلم التجريبى والتكنولوجيا ، ولهم بعد ذلك أسلوب عيشهم ، ومنطلق حركة هذا العلم فى اطار قيمهم ومفهومهم الذى يقوم على بناء المجتمع الربانى الخالص المحرر من العبودية والعنصرية والاستغــلال •

---

١ ــ افتراء ما سينيون ــ الذى ارتفع بين أقرانه من رهبــــان اليسوعيين بدراسته العربية ــ منبعة الحقــد الصليبى وليس ضعف الأمة أو قوته ، ومصيبتنا فى انه لقى تسامحا منا عامة ونفاقا من ضعاف نفوس عملاء الحضارة الفرنسية « المجلة » •

٢ ــ وهذه النزعة يهودية الأصــل نابعــة من قول الله تعالى عن حالهم « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل » ال عمران : ٧٥ والاميون ، تعنى الاميين فى قصدهم وهى الامم التى خالفتهم ، وهــذا مصدر العنصرية فى الحضارة الغربية جمعاء « المجلة » •

٣ ــ وهكذا آذننا الله تعالى بحرب الربا •• « فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » البقرة •

الفصـــل الثالث عشر

النظام الاقتصـــادى الإسلامى فى مواجهة النظامين الرأسمالى والماركسى

ان المفاهيم التى طرحها « علم الاقتصاد » الذى تدرسه جامعاتنا ومعاهدنا على طول العالم الاسلامى وعرضه لا تتجاوز المـــذهب الغربى الرأسمالى ، أو هى وليدة المذهب الماركسى ، وكلاهما يشكل وحدة تامة ذات جذور مرتبطة الى الحد الذى يمكن القول معه بلا حرج بأن النظرية الماركسية هى رد فعل للنظرية الرأسمالية وامتداد لها وان العالم كله يدور فى فلك نظام اقتصادى ربوى مرتبط بالاحتكارات العالمية ونفوذ الرأسمالية وسلطان اليهودية العالمية التى نظمت مفاهيم الاقتصاد السياسى وتحركاته على النحو الذى يحقق لها السيطرة على الموارد المالية العالمية •

ولقد سقط العالم الاسلامى فى بوتقة الاقتصاد الربوى منذ أن وقع تحت النفوذ الاستعمارى الغربى الذى سيطر على موارده واقتصادياته وأرصدته المالية ، فحال بينه وبين تطبيق المفهوم الاسلامى للاقتصاد من حيث سيطرة المصرف الاجنبى ووسائل التصدير والاستيراد الاجنبية ، حيث اصطنعت كل أسباب التعامل التجارى والزراعى من خلال النظام الربوى •

ومن شأن هذا الوضع أن يصور لشبابنا ومتعلمينا ان دراسة علوم الاقتصاد الغربى على النحو الذى تدرس به ابتداء من « آدم سميث » وجون ستوارت مل ، انما هو المنطلق الوحيد لفهم الاقتصاد العالمى ، بينما يجهل شبابنا كل ما يتصل بالمفهوم الاســـلامى للاقتصاد ، الذى تكـــون قبل ذلك بأكثر من ألف عـــام عندما كتب القاضى أبو يوســـف « كتـــاب الخراج» ــ فى منتصف القرن الثانى الهجرى ــ وما تبعه من دراسات دقيقة ترسم المنهج الاقتصادى الاسلامى الاصيل ، والذى هـــو الطريق الوحيد لهذه الامة ولا طريق غيره •

واذا كان العالم كله الآن يقف موقفا جديدا خارج نطاق الرأسمالية والشيوعية حتى نرى (جيسكار ديستان) يعلن رفض الاشتراكية الماركسية المتبعة فى الكتلة الشرقية ورفض الرأسمالية الليبرالية المنتشرة فى أوربا ، ويدعو الى طريق جديد للحياة الاقتصادية فى فرنسا والعالم ، وهو نفس الاحساس الذى يمر الآن فى العالم الاسلامى ، بعد أن وجد فشلا شديدا نتيجة التجربة التى قامت بها بعض الاقطار فى الارتباط بالنظام الرأسمالى أو النظام الماركسى • وهم يملكون منهجا يجمع بين خير ما فى المنهجين ويدفع شر النظامين •

ونحن حين نراجع نصوص الاقتصاد السياسى نجدها ليست عامة ولا دقيقة ولا محكمة ومع ذلك فهى تدرس فى الجامعات الاسلامية على أنها قوانين ثابتة وتنظر الى علم الاقتصاد السياسى على أنه علم مقدس •

والواقع أن نظريات الاقتصاد السياسى ليست الا وجهات نظر قدمها بعض العاملين فى هذا المجال ، وفى ظروف وتحديات مجتمعات وعصور ، وهى ليست قوانين ثابتة وليست لها صورة الحقيقة المطلقة لأنها ليست مماثلة لقوانين الطبيعة من حيث عمومها وسلامتها ، وهى أيضا ليست قوانين عامة وشاملة التطبيق ، فهى تتغير بتغير الزمان والمكان وقد قام بصياغة هذه الفكرة دعاة المدرسة التاريخية التى أنكر أغلب كتابها وجود قوانين طبيعية وأخذوا علم الاقتصاد على أنه علم قوانين التطور الاقتصادى فى الشعوب المختلفة •

ويقول اوجست كونت : ليست للقوانين الاقتصادية انضباط قوانين العلوم الرياضية والطبيعية بل هى كباقى قوانين العلوم الاجتماعية ، قد تنطبق أو لا تنطبق ، وتكاد أبحاث علماء الغرب أنفسهم تجمع على أن الاقتصاد الوضعى أقله علم وأكاره فكر •

ويقـول الدكتور عيسى عبده ــ رحمه الله ــ : ان ما يسمى بعلم الاقتصاد السياسى : « اليسير منه علم ، أما الوفرة منه فقد أحاطت الفكر

البشرى بضباب من الشـك والخلاف والخروج من تجربة الى أخـرى ، واختراع أنماط من العلاقات التى تربط الناس بعضهم ببعض •

لذلك يجب الحذر عند تقدير هذه الدراسات المستحدثة فما هى ثروة تضاف الى المختزن من المعرفة وانما هى تزاحم فيما بين النزعات الفردية والنزعات الجماعية وأغلبها فلسفة ثائرة أو ظالمة •

والمادة الاقتصادية تتألف من ستة عشر قسما ، واحد منها فقط تكتمل له خصائص العلم ، أما الباقى فهو اجتهاد من عند الناس ، دافعه وحاديه المصلحة الشخصية والسلطان ، ومن ثم أيقاع الظلم بالآخرين ، أو أستغلالهم اذا ما توافرت فرصة فى هذه الاقسام مستمدة من المفاهيم التى اتفق عليها المستحدثون لهذا النوع من الدراسات أمثال شارل جيد ، وشارل ريست ، ومـارشال ، واريك رول ، وشـامبتر • ، فـاذا بهم : رجال أعمـال يريدون تسخير النظرية العلمية لتبرير أساليبهم ووسائلهم الى الثـراء السريع ورجال سياسة يريدون من وراء البحث الذى يقومون به أن يخلعوا على مجارى السياسة العالمية مسحة ولو رقيقة من مظـاهر العمل لخير الانسانية ، ورجال حكم تمرسوا بفنون القيادة والتوجيه من أجل الوصول الى نوع من الاستقرار والامن ولو الى حين ، وان حصادا كهذا لا يقدم للانسانية الا مزيدا من أسباب الخلاف •

ان علماء الزمـان فى أرفع مستويـات العلم لا يزالون فى خـدمة السياسى والحاكم والزعيم والداعية الى مذهب دون مذهب ، لا عن اقتناع ولكن من أجل قوته وقوت عياله •

ويقول الدكتور عيسى عبدة : أن لنا أن نختار بين أن نظل سادرين فى متابعة هذا النضال وبين أن نفيق ويقول : لقـد آن لنا أن ننظر الى هذا الاقتصاد المستورد من الغرب ومن الشرق نظرة محايدة متحـررة ، حيث ينبغى أن تكون الدراسة المقارنة من العلم بما عند الناس من خطأ وصواب ،

وانه لمن نكد الدنيا على الجنس البشرى أن تراجعت الامة الاسلامية عن مكانتها من الصدارة وان غفلت عن تراثها فخلا الميدان للفكر والرأى وحدها فى ميادين ما كان للعقل فيها مجال الا مستهديا بالاصول التى أوحى بهـا خالق الانسان •

ومع هذا كله فان جامعات العالم اسلامى تدرس الاقتصاد الرأسمالى والاقتصادى والاشتراكى واذا درست الاقتصاد الإسلامى ألمت به الماما سريعا •

•• وفى كليـة متخصصة للاقتصـاد ككلية الاقتصـاد والعلـوم السياسية لا توجد أى اشارة لدراسة الاقتصاد الاسلامى ، ومن هنا فقد حق على الشباب المثقف أن يتعرف الى هذه الارضية التى تعينه على فهم المذاهب التى يدرسها فى ضوء الاسلام •

ان المثقف المسلم يجب أن يدرس النظام الرأسمالى فى ضوء المفهوم الاسلامى ، كما يدرس النظام الاشتراكى فى ضوء الاسلام ، فالإسلام ليس شيوعيا ولا رأسماليا ، ولا هو مركب منهما ، « فالرأسمالية » حصاد تطور تاريخى اتسم بكثير من صور العبودية والتحكم ، ولم يكن قاصرا على نواحى الاقتصاد فقط ، بل تعداه الى مختلف نواحى الحياة البشرية فالرأسمالية حياة وفلسفة واقتصاد واجتمـاع ، وقد كـان أبرز مفاهيم الرأسمالية اطلاق الحرية الاقتصادية بدون قيد أخلاقى الى الحد الذى أدى الى الانانية الفردية واقرار العنصرية والاعتراف بالطبقية فى التركيب الاجتماعى •

ولما كان من أبرز خصائص النظام الرأسمالى اعطاء أكبر قـدر من الحرية الاقتصادية للافراد ، دون تدخل من الدولة لوضـع قيود عـلى الانتاج والاستهلاك ، فقـد أدى ذلك الى السعى الى تمزيق المجتمع الى طبقتين متباينتين :

الأولى : رأسمالية اقطاعية ، والثانية ذوى الدخل المحدود من العمال والفلاحين ، كما أدى الى تركيز الثروة فى يد فئة قليلة مستبدة ، والى انتشار البطالة والاحتكارات الطبيعية والصناعية التى تتكون وتستغل المستهلك والطبقات الفقيرة .

ومن أخطر عيوب هذا النظام الاستعمار لكل بقعة فى الأرض تحوى خامة من خامات الانتاج أو مادة من المواد الأولية للصناعات الثقيلة والخفيفة ، والذى تركز عليه سياسة الدول الرأسمالية .

وقد عجزت التجربة الرأسمالية عن تحقيق الاستقرار الاقتصادى فى الوقت الذى أعلن فيه الاقتصاديين أن السياسة الاقتصادية الحرة قد أدت الى تكوين احتكارات ضخمة ، قضت على المشروعات المتنافسة واستأثرت بالسوق وحددت الأثمان عند مستويات مرتفعة استغلت بها المستهلكين وارهقتهم لصالح المحتكرين (١) .

وأبرز المشكلات التى تواجه النظام الرأسمالى اليوم :

١ ـ مشكلة التضخم المالى وما نتج عنها من تضاؤل فى المقدرة الشرائية .

٢ ـ المشكلات الناتجة من ازياد عدد العاطلين عن العمل .

٣ ـ المشكلات الناتجة عن أزمة البيئة .

وقد أشار كثير من الباحثين الى أن النظام الرأسمالى الذى طبق منذ مطالع القرن السادس عشر قد أسفر عن أخطاء وعيوب انسانية وسياسية واقتصادية وأن كتاب أوربا فى خدمة الرأسماليين يعملون على اشعال الحرب فى كل مكان كى يجد الرأسماليون متنفسا لهم يتحركون فيه .

وقد ازدهرت الرأسمالية فى منتصف القرن الثامن عشر مع بداية الثورة الصناعية ولكنه بقيام الحرب العالمية الأولى بدأ « تدهور الرأسمالية »

بظهور الكساد والأزمات المالية نتيجة ظهور الاحتكارات الكبرى وسيطرة قلة من الأفراد على سوق المـال ووسائل الانتاج ، وتدخل بعض أفرادها فى السياسة وبذلك أصبحت الرأسمالية طريقا للاستعمار الأوربى وكان من أخطر اتجاهات الرأسمالية اتجاهها الى انتاج الكماليات دون الضروريات ، وقـد أدى انتشار سيطرة الرأسمالية الى انفجار الثورة الشيوعية ١٩١٧ كرد فعل عنيف ضـد رأس المال المستبد فى المجتمع الأوربى خاصـة وأن أوربا يومئذ كانت ما زالت تستخدم الأيدى العاملة الأوربية ولم تستخدم العمالة الوافدة الرخيصـة الأجر •

ويقول ماكنزى : ان من عيوب الرأسمالية أنها تقوم على نظام مفسد للأخلاق يجعل من الشراهة والأنانية فضيلة اذ يبيح المزاحمات والمنافسات التى تحيل البشر الى معمعة فاشـية ، تتنازع فيها الأفراد حق الحياة حيث تكون الغلبة للقوى أو النصـاب أو المحتـال وتتكدس الثروات فى الأيدى الشرهة • وأشار الى العلاقة بين « الاحتـكار » وبين الرفاهية الاجتماعية وأشار الى ظهور الاحتكارات فى الغرب وانتشارها بقوة وتأييد القروض وبالتقدم العلمى فى أساليب الصناعة مما أدى الى صراع الطبقات فى ظل النظام الرأسمالى والى الأزمات الاقتصادية التى تقوم لأسـباب تتعلق بذاتية النظام الرأسمالى وخصائصه حيث أن قوى معينة من داخل النظام تعمل على تفجير الأزمة نتيجة الاختلال فى التوازن بين الانتـاج والاسـتهلاك •

كما أشار الى خطر التطور المستمر فى انتاج أسلحة الحرب نظـرا لزيادة نسبة الربح فيها عن غيرها من أنواع الانتاج (٢) •

ولقد كان من أثر ارتباط النظـام الرأسمالى بالاستعمار أنه فرض النظام الاقتصادى الغربى فى البلدان الاسلامية التى استعمرها ، ثم تبين أن هـذا النظام لم يزدهر فى تلك البلدان وأن الضمير الاسلامى لم يقبله ولم يجـد فيه ما يرضيه أو يسعده ، ولذلك فان العالم الاسلامى يستجيش

بالدعوة الى « نظـــام اقتصادى اسلامى » مستمد من جوهر عقيدته ومن واقع مجتمعـــه •

ولقـــد وقف الفكر الاســـلامى منذ اليوم الأول من النظام الرأسمالى موقف المعارضة والتباين وكشف عن أخطاء هـــذا النظام وفساده :

أولا : من حيث ان الاقتصاد الرأسمالى قام فى الغرب على الاستغلال والاحتكار والمعاملة الربوية ، وكلهـــا أمور نهى الاسلام عنها ، فالاسلام يحرم الربا والغش والاستغلال والاحتكار ، كما أنه لا يطلق المنافسة لتنشط من وحى الغرائز ، وانما يبيحها فى نطاق مثالياته وأخـــلاقه •

ثانيا : حق الملكية الذى أقره الاسلام ليس الحق المطلق كما يصوره الاقتصاد الغربى ، بل يفرض الاسلام على المالك طائفة من الالتزامات الايجابية والالتزامات السلبية ، فكل شىء ملك لله ، والانسان مستخلف وهناك التزامـــات سلبية هى تحرير ماله من الحرام ، وتحريره من الغو فى التدبير والامتناع عن الربا ، ولتشريع الاقتصاد الاسلامى أثره العميق • فهو يبقى عـــلى نزعة التملك وهى نزعـــة ضرورية للنمـــو الاقتصـــادى ولكنه فى الوقت نفسه يحيط هـــذا الحق بطائفة من الالتزامات كحق الفقير فى الزكاة ، وعـــدم اكتناز المـــال أو احتكار مصادر الدخل •

ثالثـــا : يحرر الاسلام السعى فى طلب الرزق ويقرر حق تكافؤ الفرص ويقدس العمل الصالح ويحيط هـــذه الغريزة الفطرية بسياج من دســـتور سلوكه الاقتصـــادى الذى يحمى المسلم من تجاوز الحـــد المرســـوم فى ابتغاء الرزق ويضبط من غلواء الحافز الذاتى نحـــو المزيد من الكسب ، وفى ضـــوء هـــذا يسرى العرض والطلب سريانا تلقائيا دون أن يقع فى محظـــور الاحتكار •

رابعـــا : علمـــاء الاقتصاد المعاصر يضغطون كل الضغط على الاتجاه المـــادى فى اقتصادهم ، وقد ساروا فى الطريق حتى تجاهلوا أبسط قواعد

الأخلاق وأوضح معايير الخير والشر التى فرضتها جميع الأديان السماوية .
فكان لهذا التجاهل آثار بعيدة المـدى فى النشاط الاقتصـادى للبشر ،
وأصبحت كل التصرفات الاقتصادية مباحة طالما كانت تؤتى نفعا مـاديا ،
وما دامت لا تصـل اليها يد القانون الوضعى مهما اختفى فى ثناياها من
غش فى المعاملات واضرار بالغير وسـلب لمـاله ، وقـد أحيطت النظرية
الاقتصادية بأقنعة كثيفة حجبت كل اعتبار خلقى أو انسانى أن ينفـذ الى
هيكلهم المـادى .

خامسا : يقوم الاقتصـاد المعاصر على دعامتى المـال والعمـل وفى
الاقتصـاد الرأسمالى يكون للمالك السلطان المطلق فيما يملك بغير أى قيد
عليه أما الاسلام فيفرض طائفة من التكاليف والالتزامات على المالك لمصلحة
المجتمع وهـذه التكاليف والالتزامات قابلة للقبض والبسط .

سادسا : من أسباب فسـاد النظام الرأسمالى أنه لا يوجـد فرق
جوهرى بين البيع والربا ، فهما لا يختلطان فى نظامهما فحسب ، بل هما
بمنزلة اللحمة والسدى التجارة والربا كل منهما يستلزم الآخر ، أما الاسلام
فانه قـد أحل البيع وحرم الربا ، « ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ،
وأحل الله البيع وحرم الربا » البقرة .

سابعا : كان لقيام النظام الرأسمالى على أكتاف المرابين وأصـحاب
المصانع وملاك الأرض فى جانب فى مواجهة العمال والمزارعين والمدنيين فى
جانب آخر ، أثره العميق حيث انقسـم المجتمع الى طبقتين وانعدمت روح
التعاطف والمساواة والتكامل .

وقـد وضحت مساوىء الرأسمالية فى أوربا من اضطراب المجتمعات
والأزمات الاقتصادية والبطالة وصـور الاستغلال الرأسـمالى والاحتكار
وسوء توزيع الثروات التى أدت الى ظهور الثورات الاجتماعية حتى ولو
كانت فاشـلة .

ثامنــا : لم يعتبر الاسلام المشكلة الاقتصادية كما تصورها الرأسمالية مشكلة قلة الموارد أو عجز الطبيعة عن تلبية الحاجات ، وانما ردها الى الانسان نفسه وجشعه وسوء تنظيمه الاقتصــادى ، وما جاع فقير الا بما أترف به غنى ، وان سوء توزيع الثروة انما جاء نتيجة تسلط الأقوياء عليها ، وقــد سخر الله ما فى السموات والأرض جميعا منه للانسان وجعل العمل عبادة كما جعــله أمانة ومسئولية •

تاســعا : قرر الاسلام الحرية الفردية فى اطار العدالة العامة الشاملة وجعل توطيد الحرية الفردية قضــية أساسية وجعل الانسان متراوحا بين الذاتية والغيرية ، والتفاعل بين شطرى فطرته ، وأداء حق غيره عليه وحقه على الغير دون اهمال حق الغير ابتداء ، وهــذه العــدالة هى الضــمان لممارسة الحرية الفردية دون انحراف أو عــدوان ، وجعل الاسلام ملكية المــال ذات وظيفة اجتماعية مقيدة فى حالة حيازتها العامة والخاصة •

والاسلام يوفق بين المصــلحة العامة والمصلحة الخاصة ، فيتم تحقيق المصــلحة الخاصة فى اطار المصلحة العامة •

عاشرا : وازن الاسلام بين حوافز الفرد ومطالب الجماعة ونسق بين الفردية والجماعية ودعا الى التوازن بين حرية الفرد ومصلحة الجماعة •

وقــد عاد الاســلام بأروع معادلة توازن موازنة ســوية بين الفرد والجماعة اذ أقام التكافل الاجتماعى على أساس الاخوة الاسلامية وهى طراز فــذ من التعاطف الانســانى جب العنصرية ، وقضى على التفرقة الطبقية وحرر العقيدة من التعصب المقيت ، وكفل للمرأة حقوقها الاجتماعية والاقتصــادية وعالج سوء توزيع الثروة معالجة عادلة تحول دون تكديسها فى يد فرد أو أفراد قلائل « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ودون أن يقضى على نشاط الفرد وميله الغريزى للمبادرة والابداع وأقام التنافس على أساس القدرة والعــدالة معــا ، وأستطاعت تجربة الحكم الاسلامى

فى صــدر الاسلام أن تثبت نجاحها الباهر فى ايجاد مجتمع متوازن تتكيف فيه ارادة الفرد مع صالح الجماعة •

حادى عشر : الاسلام لا يقر المذهب الفردى الذى ولد فى أحضان الرأسمالية الصناعية ، هــذا المبدأ الذى لا يفرض أى التزامات ايجابية على الدولة • بينما يعتبر حق الملكية فى الاســلام غير مطلق ، اذ يعد بمثابة وظيفة اجتماعية •

فالمالك عليه أن يستعمل هــذا الحق وفق ما تمليه مصلحة المجتمع ، أو ما تمليه مصــلحة الفرد ، ولكن فى غير اضرار بغيره وفى الحدود التى رسمها الله تبارك وتعالى فى القرآن •

وهناك قيود غير مباشرة وضعت على حرية الملكية تشمل فرائض على الانفاق وعلى التملك ، تهــدف الى الحيلولة دون تضخم الثروات ودون تركيز للمــال فى أيدى طائفة خاصــة من الناس ، كما فرضت الزكاة التى تعــد أحــد أركان الاسلام كما تعــد أحــد أركان ما يلطق عليه التكافل الاجتماعى ، حيث لم يجعل الزكاة منه على مستحقيها بل هى حق لهم ازاء القــادرين •

---

١ ـــ ان المؤسسات الاحتكارية الدولية التى يقوم عليها الاقتصــاد الغربى تشــترى خامات الانتاج كالنفط والمطاط والمنجنيز والفوســفات والألمونيوم •• الخ أو تستولى عليها ثم تبيعها صــناعات فنية بما يوازى عشرات الأضعاف لثمن التكلفة وهــذا يصور خطورة المبدأ الذى قامت عليه فضــلا عن تهربها من نقل المعارف التقنية وخصوصا بالنسبة للشــعوب التى تمتاز بالذكــاء •

٢ ـــ الحق ان سياسة تسويق الأسلحة الحربية كانت لعبة الاحتكار

فى الدولة النامية التى بدأت تمتلك ثروة نتيجة تملكها لمصادرة الثروة فى أراضيها وهى لعبة ذات حدين أولها ايهـــام تلك الدولة بقدرتها على تملك سلاح تظهر به قدرتها ، والثانى وهو الهـدف : امتصـــاص المـــال الذى تدفعه الاحتكارات ثمنا لمواد الخام التى تشتريها من الدولة النامية وأظهر مثال على هـــذا ما تستهلكه الحرب العراقية الايرانية من ســــلاح وبشر دمرت اقتصادها والمستفيد تجار السلاح « المجـــلة » •

٣ ــ هى فى الحقيقة ايجابية لانها تحقق التوازن وثبات المصـــادر على أسس العدالة الاجتماعية •

الفصـــــل الرابع عشر

النظـام الاقتصـــادى فى الاسلام

(٢)

بين الاســــــلام والماركســـية

قدمنـــا فى الفصل الســـابق عرضا للفـــاهيم التى طرحها عـــــلم الاقتصــــاد وكيف سقط العالم الاسلامى فى بوتقة الاقتصــــاد الربوى ، وأوضحنا عيوب النظام الرأسمالى وموقف الفكر الاسلامى من هذا النظام ، ثم كشفنا عن أخلاقيات الاقتصاد الاسلامى من حيث عدالة التوزيع والتكافل الاقتصادى ، وعـــدم اقرار الاسلام للمذهب الفردى الذى ولد فى أحضان الرأسمالية الصـــناعية •

ونواصـــل البحث عن الاسلام والماركسية :

المثقف المسلم فى حاجة الى أن يدرس النظام الماركسى « الاشتراكى أو الشيوعى » فى ضـــوء المفهوم الاسلامى من حيث ان الاســــلام ليس رأسماليا وليس اشتراكيا ، وانما هو نظام متميز خاص يختلف عنهما •

وأكبر ميزاته أنه نظـــام ربانى وليس من صـــنع البشر ، واذا كان النظام الرأسمالى قـــد قام بناء على ظروف خاصة بالمجتمع الأوربى فى القرن السادس عشر ، فان النظام الماركسى جاء بمثابة رد فعل لهذا النظام فهو جزء منه ، وقد أكد المؤرخون أن ماركس ومذهبه انما هو بمثابة رد فعل لحالة المجتمع الأوربى ، فمفهوم الماركسية هو شـــطر مكمل للنظرية الرأســـمالية •

وأبرز خصائصه : تقوم على أساس امتلاك الدولة لمختلف وســـائل

الانتاج من صـــناعية وزراعية وثروة طبيعيـــة وخـــدمات عامة ، فلا وجود للملكية الفردية ولا مجال للحرية الاقتصـــادية الا بمقـــدار ما يمنحه المجتمع للفـــرد •

وتطالب المذاهب الاشتراكية من الناحية الاجتماعية بتحقيق المساواة بين الأفراد • وتجعل النظرية الماركسية قيمة ، أى سلعة ، بحسب ما يبذل فى انتاجها من عمـــل •

وتقوم الشيوعية على الايمان بالمادية المطلقة وكراهية الأديان والحقد ، فقـــد أعلن ماركس أنه لا يؤمن بغير المـــادة ، وأن كل شىء فى الوجـــود ان هو الا أثر من آثار المادية •

والمادية تعنى عـــدم الايمـــان بالغيب كما تعنى انكار الاله ، وهى ترفض منازع الأخلاق والتقاليد ونظام الأسرة والزواج ويزعم ماركس أن الدين وسيلة من وسائل الاستغلال ، اخترعه أصحاب الثروة والمسيطرون على مصـــادر الانتاج لتخدير الشعوب حتى يسهل استغلالها ، وتحـــارب الماركسية الأخلاق بدعوى أنها سواء أكانت فردية أو جماعية ، فما هى الا أثر من الآثار الاقطاعية ، وكذلك تحارب الأسرة وناموس الزواج •

وتفسير الماركسية الحيـــاة الانسانية من خلال التفســـير المـــادى والاقتصادى ، وتقوم على فكرة الكراهية والحقـــد والصراع بين الطبقات واستعمال العنف لايجاد ما تسميه المساواة •

ويشير بعض الباحثين الى أن الاشتراكية العالمية (الماركســـية) هى فكر مادى يسعى الى التسلط عن طريق نقل المـــال الى ما يسمى ملكية الدولة ، ويسعى الى النفوذ فى الحـــكم عن طريق مخاطبة الناس عن طريق المعـــدة وحـــدها ، وبأرقام الطعام والكساء وحـــدها ، وليس عن طريق الفكر أو المنطق ، فضـــلا عن طريق القلب والايمان والحب الاجتماعى والتعاطف •

والاشتراكية فى عالم اليوم أو الماركسية أمر واحـــد يطلى بألـــوان متعـــددة للتمويه والخـــداع ، ومن المستحيل أن يتقرب ماركس وهو اليهودى التلمودى ، باشتراكيته الى خير البشرية ، فيقدم نظاما مثاليا للحيـــاة الانسانية أو يؤمن بسلام حقيقى للنفوس •

وينعقد الاجماع على أن الدعامة الأساسية فى الماركسية (اشتراكية + شيوعية) هى اللادينية المطلقة ، ويقوم المذهب على انكار وجود الخالق وانكار البعث والنشور والجزاء الحساب ، وأن الكون مادة فى مادة •

يقول ماركس : لا وجود لله ، الحياة مادة بحتة ، ويرى فى الأديان جميعها مخـــدرا للعقول يجب التحرر منه فكل دين عنـــدهم هو أفيـــون الشعوب ، وعنده أن رسالة العمل الشـــيوعية هى : القضـــاء على الدين والداعين اليـــه •

وينكر المذهب الشيوعى « الأسرة » ويعمل على انحلال روابطها :

يقول انجلز : ان الأسرة هى وضـــع من أوضـــاع المجتمع لا نضوج فيه ولا جـــدوى ، ولا محل لاستبقاء هـــذا الوضع وتأييده الا بالقـــدر الذى تستطيع استغلاله لمصلحة الدولة ، فالطفل لا يولد لابويه بل يولد للمجتمع •

ترى الشـــيوعية أن الاسرة تنمى أحاسيس الاثرة الذاتيـــة وحب التملك ؟

كذلك تفسر النظرية أحداث التاريخ من حروب وثورات وقيـــام دولة وأنظمة وسقوطها ، تفسيرا مستندا الى العـــوامل الاقتصـــادية ، وما هى الا تعبيرات عن شىء واحد هو الحياة الاقتصادية •

ونظرا لمعارضـــة (الماركسية) للفطرة وطبائع الاشـــياء ومصادرة

الطبيعة الانسانية وتجاهل الروح وانكار رسالتها الحقة فان المذهب لم يجد تقبلا صحيحا ، ولم تلبث أن تكشفت تناقضاته وظهر قصوره فى التطبيق ، مما دعا الذين قاموا بتطبيقه الى اجراء تعديلات متصلة لمواجهة هذا القصور •

وقد تبين أن المذهب الماركسى عاجز عن استيعاب النفس الانسانية وتحقيق هدفها الحقيقى من الحياة . وأنه تجاوز فى تفسير المجتمع أو التاريخ كثيرا من الحقائق القائمة الواضحة •

ويمكن أجمال المذهب الماركسى فيما يلى :

أولا : لا تزيد الماركسية عن أنها فلسفة مرحلة وردود فعل للرأسمالية أدعت الاصلاح فخربت ، وقد اعتمدت النظرية فى أساسها على نظرية علمية ثبت فشلها الآن ، تجاوزها العلم التجريبى ، وأنها قامت أساسا فى ظل طغيان العلم ، وفى ابان الظن بأن العلم قادر على أن يقول الكلمة الاخيرة فى كل شىء ، ثم تبين للعلماء أن العلم محدود القدرة ، وأنه لا يستطيع تجاوز ظواهر الاشياء ، وأن ماركس أنشأ نظرية — ادعى أنها كلية — فى ضوء حالة اجتماعية عرضية ، لم تلبث أن تغيرت ، وهى بدايات التصنيع ، ولم يلتفت الى تأثير العامل السياسى فى الوضع الاجتماعى ، وامكانية تأثير التوازن الروحى •

وحاول لينين أن يكمل ما نقص ويعدل ما اضطرب لجعل النظرية شاملة العالم كله ، بعد أن كانت فى تقدير ماركس لاوربا وحدها ، وقد كان ماركس يتوقع أن تحدث الثورة الشيوعية فى دولة متقدمة صناعيا تعارضت النظرية اللينينية مع أمها النظرية الماركسية ، من حيث أن ماركس كان يتوقع ان تحدث الثورة فى دولة متقدمة صناعيا لا فى دولة زراعية اقطاعية الى أقصى حد •

ومن ثم فان أكبر مقاتل النظرية الشيوعية أن ماركس قد نظر على ظروف تغيرت ، ولم يكن يتصور ما ستحدثه ثورة العلم والتكنلوجيا

فى القرن العشرين ، حيث يدور المصنع بعقول الكترونية ، يجلس العامل أمامها ليدير أزرارها وخلفه نقابات العمال وقوانين التأمين ضد العجز والشيخوخة والمرض ، وفرض التعليم والعلاج ، لم يتصور مرونة الرأسمالية وقدرتها على التطور ، أما أكبر أخطاء الماركسية فاصرارها على أن تكون فكرا شموليا يحيط بكل شىء علما .

(ثانيا) : ان التجربة الشيوعية قد كشفت مع الزمن عن ثلاثة أخطاء كبرى :

الاول : اهدار الكرامة الانسانية وذلك بالقضاء على مفهوم فردية الانسان وحريته الخاصة وكرامته وقدراته التى تمكنه من الابداع والتقدم ، والطمأنينة على سلامة العيش والى القدرة على وضع مجتمعه فى أوج الازدهار .

الثانى : تدمير الاخوة الانسانية : وذلك باثارة روح البغضاء والحقد بين الطبقات ، بما يحول دون نماء المجتمع أو حركته الجامعة واندفاعه نحو التقدم .

الثالث : اذلال الانسان وتحقيره ، وذلك يجعله أشبه بترس فى آلة ليس له حق امتلاك كيانه الخاص ، ولا مقدراته الحرة على التفكير والحرية ، وخاصة فيما يتعلق بالقضاء على انسانية الانسان وقداسة الاسرة وحرية الفكر .

وقد سجلت هذه الاخطار الكبرى على التجربة الشيوعية أنها ضد الفطرة وضد تيار التقدم البشرى ، فقد أثبتت التجربة الشيوعية فى خلال أكثر من نصف قرن من التطبيق ، عجزها عن تحقيق هدف واحد من أهدافها . بل كانت فى كل مرحلة تصدر تنازلات عن آرائها السياسة ، وتتقبل الواقع وتعدل النظرية ، وخاصة الغاء الطبقات والغاء الدولة ،

ولم يتحقق مطلقا ولا جزئيا خلال هــذه الفترة لشــعوب المجتمعــات الشيوعية الكفاية بين أفرادها أو الامن لمجتمعها •

(ثالثا) : وصف الماركســية بأنها حقيقة علمية أنما هو كذب على العلم وعلى الاختصــاص فى وقت واحد ، لان الماركســية نظرية اجتماعية ، والنظريات الاجتمــاعية بعيدة الصلة عن الحقائق التجريبية العلمية •

فالحقيقة العلمية حقيقة ثبتت فى معامل الكيمائيين ، أمــا النظريات فأنهــا مجرد تصورات وفروض ، لا تأخذ حكم الحقائق العلمية الثابتة •

ومن ذلك نظرية « فرويد » حول اعتبــار الغريزة الجنســية أساسا للســلوك • ونظرية كارل ماركس ، بأن الملكية الفردية هى ســبب بلاء البشريــة •

والرد على القول بأن الشــيوعية هى المصير العلمى للناس أو الحقيقة التى يؤيدها العلم لاســعاد البشرية ، أن هنــاك شعوبا لم تعرف الشيوعية ولا عاشت فى ظلهــا ، وهى تحيا على مستوى من الرفاهية وسعادة النفس لا تعرفه البلاد الشيوعية •

(رابعــا) : تبين خطأ اعتبار الاقتصــاد العامل الاساسى فى تفسير التاريخ ، ذلك لان هناك عوامل أخرى كثيرة متعددة ، لهــا أهمية أكبر من الاقتصــاد فى تشكيل الاحداث والتأثير فيهــا ، والمعتقدات الدينية فى مقدمة هــذه العوامل ، كذلك فهناك العواطف والشــهوات التى تسيطر على حياة الرجال ، وتؤدى الى كثير من الحروب والتغييرات •

ويرى (أدلر) أن غريزة حب الســيطرة تلعب الدور الاول فى التاريخ ولا ريب أن مختلف الظواهر : سياسية واقتصــادية وأدبية تؤثر كل منها فى الاخــرى •

وقد تبين أن (ماركس) اعتمد فى نظريته على متغيرات اقتصــادية

وعلمية تكشف من بعد فســادها وسقوطها ، واذا كانت النظرية قد انسجمت شــكلها فى القرن التاســع عشر ، فانها لم تنســجم بعد ذلك مع الظروف الاقتصــادية السائدة أو تتفق مع الظروف الاقتصادية الســائدة اليوم ، بل ان البعض يرى أن النظرية لم تكن وليدة بحث علمى ، وأنما جاء البحث العلمى تبريرا ودفاعا عن النظرية وهو ما ثبت بطلانه على مسرح الواقع الذى يضعونه قرب ميزان الفكر الماركسى •

خامسا : من أكبر مقــاتل النظرية الماركسية اعتمــاد (مــاركس) على النبوءة والمبــالغة ، وانكار الذكاء الانســانى كعامل من العوامل التى تميز الفرد عن الاخر فى البيئة الواحدة •

كذلك أخطأ ماركس فى تقديم المــادة على الفكر ، ولو أنه قــال أن العلاقة بين الفكر والمــادة علاقة متبادلة لكــان أقرب الى الصواب •

كذلك أخطأ فى مسألة « الحتمية » والحتمية لا تتفق مع ارادة التغيير ، والحتمية لا تجعل من الانســان ازاء تطور التاريخ الا مراقبــا ، وهذا يتعارض مع مسؤولية الانســان الاكتسابية كما يقرها الاســلام •

سادسا : تعارض الماركســية الدين معارضة تامة ، ولكنهــا تحاول خداع الشعوب الاسلامية بدعوى التوفيق بين الماركسية والدين ، كأسلوب لغزو المجتمعــات المتدينة التى ترفض الالحــاد ، وهو أسلوب مرحلى التمويه ، فالماركسية أو الدين كل منهما يرفض الاخر رفضــا قاطعا •

وقد وجدت الدعاية الماركسية تربة خصــبة فى البلاد المســتعمرة المتطلعة الى التحرر لبث أخطارها اذ تقدمت الماركسية فى تلك اللحظات الحاســمة وكأنها العلاج الناجع ، ثم تكشف من بعد ما تخفيه من تآمر •

التفسير المــادى للتاريخ :

سابعا : فســاد التفسير المادى للتاريخ فان للقيم للدينية والمعنوية

والاخلاقية وزنها وأهميتهـا فى المجتمع ، ومن الخطأ تجاهل أثر تعاليم الانبياء والرسـل ، وآراء الفلاسفة والحكماء ، التى ليست نتاجا للبيئة الاقتصـادية وحدها •

والاسـلام نفسـه لم يأت نتيجة انقلاب فى نظم الانتاج أو علاقات الانتاج فى قريش ، وأنمـا جاء ظاهرة الهية مسـتقلة عن فعل البيئـة لتصحيح انحرافات البشرية عن الخط الالهى • لقد جاء الاسلام فى البداية مقررا المساواة فى الفرص ، وضمـان حد الكفاية للفرد ، وتحقيق التوازن الاقتصـادى بين الفرد والمجتمع •

وجاء بمبدأ الملكية الخاصـة والملكية العامة ، جاء بكل ذلك فى الجزيرة العربية فى وقت لم تكن فيه ظروف الانتاج تدعو اليه بحيث يمكن أن تقول ان مـا حدث كان انبثاقا ، وتحدى بذلك منطق التفسير المـادى من واقع اقتصـادى أو رد فعل له • للتاريخ الذى يحتم انبثاق كل انقلاب سياسى من انقلاب مناظر فى نظام الانتاج وعلاقاته •

ثامنا : الماركسية تستلزم الصراع والاسلام يقرر التدافع والماركسية تنكر الروح انكارا تماما ويجمع الاسـلام بين المادة والروح •

تاسعا : ان التجربة التى أقامتها الماركسـية فى المجتمعات الشـيوعية لم تحقق الكفاية بين أفرادها ولم يستطع النظـام الاشتراكى تخليص المجتمع الاقتصـادى من كل مساوىء الرأسمالية •

ولا ريب أن نظرية ماركس قاصرة على التاريخ الغربى وحده وفى بعض الجوانب فحسـب فى العصر الذى عاشـه ولم تستطع أن تتجاوز الى أن تكون تطبيقا على التـاريخ البشرى كله ، وهى لا تصـلح كلية للتطبيق على التاريخ الاسـلامى •

وقد اعترف الفيلسوف الماركسى — فيما سبق — جارودى بالحاد

الماركسية ، وأنها وارثة الترث الاحادى فى القرن الثامن عشر حيث تتبنى ماركس شـعار بروميثوس « أنا ضد كل الالهة » .

وكان ظن الماركسـية أن انهيار النظام الرأسمالى وشيك الوقوع ، ولكن الرأسـمالية فوتت على الشيوعية هدفها حين حققت للعمال آمالهم .

ويمكن القول بأن الرأسـمالية والماركسية كلاهمـا قد صدر من منبع واحد هو (المخططات التامودية) وان اسم تروتستكى يعنى الماركسية بينما اسم روتشلد يعنى الرأسمالية وكلاهما يمثل تموجات العقلية اليهودية فالتيار الرأسمالى والتيار الماركسى أبوهما واحد وهو التيار اليهـودى الصهيونى ونحن نجد الآن طبقة أصحاب رؤوس الأموال فى الرأسمالية يهودا فى الصميم فى مواجهة طبقة عمالية ديكتاتورية يهودية أيضا ، وهكذا نجد أن الماركسية شطر مكمل للرأسمالية وأن وجهة نظر ماركس فى الدين مستمدة من فهمه للنصرانية وليس للدين بصفة عامة ، والنظامان يحاولان تنازع السيطرة على العالم ويحاولان احتواء العالم الاسـلامى بالفكرة والمذهب والنظام ، وأيهما يفوز فان فوزه يهودى تلمودى .

وعلى العـالم الاسـلامى الذى يملك نظامه الخاص المستمد من وحى السماء أن يتجاوز هذه التبعية ، وأن يرتفع فوق لعبـة الارجوحة ، كل طرف يرتفع مرة وينخفض لصاحبه أخرى .

ومن حق المثقف المسـلم أن يعرف حقيقة النظـام الاقتصادى فى الاسلام فالاسلام نظام وليس نظرية وهو نظام كامل لا ينعزل فى الاقتصاد عن بقية النواحى التى تعالج الانسـان والمجتمع .

أولا : ليس الاسـلام نظاما شيوعيا لانه يقر الملكية الفردية ويحميها وليس نظاما رأسـماليا لانه لا يطلق العنان لرأس المـال بل يحرص على تجريده من وسـائل السيطرة والنفوذ ، وليس من النظم الاقتصـادية المتطرفة الى اليسـار لانه لا يمعن فى أضـعاف رأس المـال الفردى .

طالما يفسح له المجال للقيام بوظيفته فى حدود الصالح العام بوصفه عاملا هاما من عوامل الانتاج وحيوية النماء فى المجتمع •

ثانيا : أقام الاسلام بنيان اقتصادياته على دعائم ثمانية تعمل متضافرة لتحقيق المساواة بين الافراد والجماعات هى :

١ — تضييق نظام الملكية الفردية لخير الجماعة وفى سبيل الصالح العام •

٢ — يحترم الاسلام الملكية الفردية للاشياء الضرورية ويدخلها فى نطاق الملكية الجماعية فى الضرورة •

٣ — يحرم الكسب غير المشروع ويجعل الربا والفائدة من الاموال المحرمة •

٤ — يحرم استغلال النفوذ والسلطان فى سبيل الحصول على المال •

٥ — يحرم جميع المعاملات التى تنطوى على الغش والرشوة أو أكل أموال الناس بالباطل •

٦ — فى سبيل قيام الملكية الفردية فى نظام متزن حتى لا تطغى وتصبح ثروة مقدسة أوجد الاسلام نظام الميراث والوصية حيث يتكفل النظام الاول بتوزيع الثروات بين الناس توزيعا عادلا يحول دون تضخم الاموال وتجميعها فى أيد قليلة ويعمل على تذويب الفوارق بين الطبقات حيث تقسم التركة بين أقرباء الهالك فتتوسع بذلك دائرة الانتفاع من الملك الذى كان فرديا فأصبح جماعيا •

كذلك بالنسبة للوصية حيث يمكن لصاحب المال أن يوصى بجزء من ماله لاحد اقربائه الفقراء من غير الوارثين فان لم يوجد فلاى شخص يعرف فقره •

٧ — أمر الاسلام بالزكاة والصدقة حتى يأخذ الفقير نصيبه من مال الغنى وفى هذا حد لتصاعد الملكية •

٨ — ينظر الاسلام الى التملك على أنه مجرد وظيفة اجتماعية ودينية يقوم صاحبها بانفاق المال على مستحقيه « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » •

يقول الدكتور على عبد الواحد وافى :

يقرر الاسلام الملكية الفردية ويحيطها بسياج من الجماعة وبذلك أقام أمام الفرد سبيل التملك والحصول على المال ويشجع على العمل ويعطى لكل مجتهد جزاء اجتهاده من ثمرات الحياة ويفسح المجال أمام المنافسة والرغبة فى التفوق والطموح فيحقق تكافؤ الفرص بين الناس ، ويقلم فى نفس الوقت أظفار رأس المال ويحرره من وسائل السيطرة والنفوذ دون أن يشل حركته أو يعوقه عن القيام بوظيفته بوصفه عاملا هاما من عوامل الانتاج ويعمل على استقرار التوازن الاقتصادى ويقلل الفوارق بين الطبقات ، ويحول دون تجميعها فى أيد قليلة •

والمقصود بالمساواة فى الاقتصاد الاسلامى تحقيق تكافؤ الفرص بين الناس فينال المجتهد جزاء اجتهاده وثمرة أعماله وبذلك يتحقق التوازن الاقتصادى وتنمحى الفروق الطبقية ويحصل التقارب بين مختلف الطبقات حتى لا تتضخم الثروات وتتجمع فى أيد قليلة •

ثالثا : أقامت الرأسمالية قاعدتها على ملك الفرد المطلق ، وأقامت الماركسية قاعدتها على ملكية الدولة باسم الجماعة ملكا صوريا دون الفرد وهى ملكية زائفة ، بينما جمع الاسلام بين الفرد والجماعة عكسا وطردا ولم يغفل حق أحدهما ، وتقوم الشيوعية بالغاء الملكية الخاصة

متجاهلة الفطرة الانسانية وقوة غريزة التملك فيها ، وتقوم الرأسمالية باطلاق الملكية الفردية اطلاقا شديدا .

أما الاسلام فهو يجتمع بين الملكية العامة والملكية الخاصة فى حدود وضوابط ، فقد أقر الاسلام الملكية الخاصة وفرض عليها عدة قيود وأوجد الملكية العامة بالقدر الذى تتطلبه احتياجات المجتمع ، وبينما اعتمدت الرأسمالية على الاستعمار والتسلط ، واعتمدت الماركسية على العنف والقهر اعتمد الاسلام على الفطرة والرحمة والاخاء البشرى العام ، وبينما تقرر الماركسية أن الفكر يسبق المادة يقرر الاسلام أن الفكر والمادة كلاهما يتبادلان الحركة ولا يسبق أحدهما الآخر .

وتعتمد الماركسية على الصراع بين الطبقات والصراع الدموى وسيلة لتحقيق أهدافها التسلطية ولا يقر الاسلام صراع الطبقات بل يرى تلاقيها وتكاملها وتعاونها .

ومن الحق أن يعرف شبابنا فى مقاعد الدرس فى المدارس والجامعات على طول العالم الاسلامى وعرضه هذه الحقائق ، ويؤمنون بأن للاسلام نظاما للاقتصاد يختلف عن النظرية الرأسمالية الليبيرالية والنظرية الاشتراكية الماركسية وأن النظام فى الاسلام أكثر شمولا وعدلا ورحمة ، وأنه من عند الله تبارك وتعالى خالق الانسان والعليم بتكوينه وتشكيله ، والجامع بين الروح والمادة العقل والقلب وبوصفه مسؤولا مسؤولية فردية أمام الله وملتزما أخلاقيا أمام الجماعة ومؤمنا بالسعى لاقامة المجتمع الربانى ومسئولا بعد الموت بالبعث والجزاء الاخروى .

الفصـــل الخامس عشر

الفلسفة اليونانية والفكر الاسلامى

* فساد الادعاء بأن الفكر الاسلامى خضع للفكر اليونانى • • •

* مؤامرة نقل الفلسفة اليونانية الى الفكر الاســلامى فى العصر الحديث • • •

* * *

دعويان طرحهمـــا التغريب والغزو الثقـــافى لتزييف أصـــالة الفكر الاســلامى ، القرآنى المصــدر •

أما أولاهما : أن الفلسفة اليونانية هى مصـــدر الفلسفة العربية • • وأمـــا الثانية : فهى القول بأن المسلمين أخذوا الفلســـفة اليونانية وبنوا عليهـــا مفاهيم ومصطلحاتهم فى الفقه والنحو والبلاغة •

وقد ارتفعت الصيحة بأن أرسطو هو شيخ الفكر الاسلامى ، وأن المســلمين اعتبروه كذلك وان الازهر قد اعترف له بهـــذه المنزلة ، وبذلك دعا لطفى الســيد وطه حســين وغيرهما ، ان اســـاس النهضة الحديثة فى العالم الاسلامى هى احياء الفلسفة اليونانية كمصـــدر لها ، متى كانت الامة الاســـلامية قد أخذت هـــذه الفلسفة اليونانية أساسا لفكرها فى الماضى ، ولمـــا كانت ثمرة الفلسفة اليونانية : الفلسفة الغربية الحديثة ، فان على المسلمين أن يأخذوا فى العصر الحديث هـــذه الفلسفة الغربيـــة بالتبعيـــة •

ولا ريب أن هـــذه الدعوى باطلة ومضـــللة ، فان الفلسفة اليونانية مـــا كانت يوما أساسا للفكر الاســـلامى ، وأن الفلسفة الغربية المعاصرة لن تكون أساســـا للفكر الاســـلامى الحديث ، الذى تحرر من مدرســـة

التغريب التى كانت تعلى من شـأن آراء المعتزلة وتراها مصـدر النهضة ، لان الاعتزال فى مصـدره كان يونانيا بينمـا كانت المدرسة الاصـيلة التى ظفرت بالزعامة الحقة فى العصر الاول ، وهى التى ستنتصر فى معركة هـذا العصر ان شاء الله ، « المدرسة القرآنية » وحدها ، التى تستمد نهجها ومصـادرها من المنابع الاولى وحدها : القرآن والسنة • وليست فى حاجة الا الى جهد وجهاد ، ويومئذ ينصرها الله •

ومن يراجع تاريخ دراسـة الفلسـفة فى العصر الحديث ، يجد أن الجامعة المصرية القديمة بدأت بدراسـات للكونت دى جلازرا الذى فاجأ تلاميذه العرب والمسلمين منذ اليوم الاول بأنه لا توجد فلسفة عربية ، وانما هـذه الفلسفة المنسوبة الى (الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد) ، هى فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية •

وكان ارنست رينان قد ردد هـذا فى كتبه ، على نحو يراد به انكار فضل الاسلام فىميدان الدراسات العقلية،ونسارع فنقول أن الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ شـيخ الازهر الاسبق ـ ما لبث حين تولى تدريس الفلسفة فى الجامعة المصرية أن أعلن : أن الفلسفة الاسلامية تبدأ بالامام الشافعى ، فى كتـابه (أصول علم الفقه) ، وأن الامام الشافعى هو أول الفلاسـفة فى الاسـلام ، وأن مقامه فى العربية هو بمثابة مقام أرسـطو فى الفلسفة اليونانية ، وأن أمثـال الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد ، هؤلاء هم المشـاؤون المترجمون للفلسفة اليونانية الى اللغة العربية فحسب •

ولقد جاء ذلك بعد استشرت دعوى لطفى السيد ، الذى ترجم باسمه كتاب علم الاخلاق لارسـطو (ترجمة بارتلمى سانتهلير) وعلم الساسة ، وجاء طه حسين فأدخل اللغة اليونانية مـادة أساسية فى كلية الآداب ، بغير ضرورة ملحة لذلك ، وتعالت صـيحة الفكر اليونانى فى مصر ، وترجمت مؤلفات وكتب ومسرحات وأسـاطير كثيرة بقصد غزو هـذا الفكر الوثنى من جديد للفكر الاسـلامى المعاصر ، وقد تحرج المسـلمون فى الصـدر

الاول من ترجمته ، واعتبروه ثقافة خاصـــة لليونان ، وعرفوا أنه مستمد من عالم الاصنام عند اليونان •

ولكن مدرســـة التغريب كانت حريصـــة على اغراق المسلمين فى هذا الاتون ، فى نفس الوقت الذى اطرحت النهضـــة العلمية الاوربية منـــذ القرن الخامس عشر ، فاسفة أرســـطو ومنهجه اليونانى ، فى مقابل الاخذ بالمنهج التجريبى الاســـلامى ، الذى أنشأ الحضارة الغربية المعاصرة •

ولقد هاجم فلاســـفة الغرب فلســـفة أرسطو بنفس العبـــارات والنصوص التى عارض به منهجه آئمة المســـلمين فى القرن الرابع الهجرى ، حين أعلنوا : أن الفلســـفة اليونانية تمثل (أرجانون) خاص للعبوديـــة اليونانيـــة والوثنية الاغريقية ، وأن هـــذا (الارجاون) مخالف لنهـــج الحضارة الاسلامية ، القائم على التوحيد الخالص وعلى الاخاء البشرى ، فقد حرر الاسلام العقل الاســـلامى من الوثنية ، وحـــرر الانســـان من العبودية التى عرفتهـــا حضارات الرومان واليونان والفراعنة والفرس ، « جئنا نخرج الناس من عبادة العبـــاد الى عبادة رب العباد » — النعمان بن مقرن فاتح نهاوند وشهيد معركتها — وفى نفس الوقت الذى أخذ الغرب فيه المنهج التجريبى الاسلامى لبناء حضـــارته ، فأنه أراد عن طريق حركة التغريب الغازية أن يربطنا بمنهج أرســـطو الذى لفظته حضارة الغرب ، حتى ندور فى هـــذه الدائرة المظلمة •

وقد حاول التغربيون تحسين هذه المؤامرة لنا ، حيث نجد « أستاذ الجيل » أحمد لطفى السيد يقول فى مقدمة كتابه المترجم عن أرسطو : « مع أن نقل كتب الفلسفة لم يكن مقصورا عـــلى كتب أرسطو ، فان فلســـفة أرسطو هى التى غلبت على الفلسفة العربية وطبعتها بطابعها ، والواقع أن الفلسفة العربية ليست شيئا آخـــر غير فلسفة أرســـطو طاليس بالطابع العربى ، وسميت الفلسفة العربية ، وبقيت صـــلة النسب بين الفلسفتين طيبة الى حد أن الجامعات الاوربية فى العصور الأخيرة من القرون الوسطى

كانت تدرس الفلسفة العربية باعتبار أنها فلسفة المشائين ، أى فلسفة أرسطو » .

وقد علق الدكتور يعقوب صروف فى المقتطف (يناير ١٩٢٥) ، على هذا المعنى فقال : ان ما قاله الاستاذ — (يعنى : لطفى السيد) — يؤيده الكتاب الاوربيون الباحثون فى الفسلفة العربية ، واستشهد بما يقوله الاسيكس وليم رتس : ان ما يعرف بالفلسفة العربية ليس فيه من العربية سوى الاسم واللغة ، فهو فكر يونانى منظم ، عبر عنه بلغة سامية ، وحور بالمؤثرات الشرقية ، وأدخل بين أهل الاسلام بمؤازرة الواسعى الصدر من خلفائهم ، بقى حيا بغيرة جماعة من المفكرين — الذين لم يخشوا من المجاهرة بآرائهم على أن أمتهم أساءت به الظن واضطرتهم لهجره .

ثم ذكر لطفى السيد ما يراه سببا فى رجوع العرب والمسلمين والمصريين الى فلسفة أرسطو ، فقال « وكما ان النهضة الاوربية الحديثة عمدت الى درس فلسفة أرسطو عن نصوصها الاصلية ، فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الذى أخرج كثيرا من المواهب الفلسفية الحديثة ، فلا جرم أن نتخذ نحن من فلسفة أرسطو — لا سيما أنها أشد المذاهب ائتلافا ، والطريق الاقرب الى نقل العلم الى بلادنا وتأقلمه فيها — رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية .

وقال ان فلسفة المعلم الاول خالدة ، ما حدها وطن ولا أخنى عليها زمن ، فقد بنت عليها كل مدينة صروح مجدها العلمى حتى مدينتنا الجديدة .

هذا هو الاتجاه عام ١٩٢٥ ، فى نفس العام الذى تحولت فيه الجامعة الاهلية الى جامعة رسمية ، وجىء بلطفى السيد الذى وصفه تلاميذه وأتباعه ، بأنه أستاذ الجيل ، رئيسا للجامعة ، وجاء طه حسين وغيره يدعون الى الايمان بفكر ووثنية اليونان وأرسطو .

فهل كان حقا (لطفى السيد) أستاذ الجيل ، صادقا فيما قال ؟؟ وفيما

دعا اليه العرب والمسلمين من اتخاذ أرسطو منطلقا الى النهضة الجديدة ؟؟ وكانت كتابات طه حسين وغيره من بعده ، دعوة ملحة الى هذا الطريق ؟ أم أن الأمر كان فيه شبهة أو خدعة .

هل كان حقا أرسطو هو منطلق الحضارة الغربية فى عصر النهضة وما بعدها ، أم أن أول عمل قامت به هذه النهضة هو نقض أرسطو وتزييفه والحملة على منهجه ، واعتبار منهجه عامل التجميد الذى عاش فيه الغرب معتقلا قرونا ، حتى جاء منهج التجريب الاسلامى ، الذى أطلق الطاقات على عصر العلم الحديث .

ندع هذا للباحثين ، لقد كان انبعاث مناهج علماء المسلمين انطلاقا من القرآن ، وهم الذين أنشأوا المنهج العلمى التجريبى ، الذى كان أول حجر فى بناء الحضارة والعلم بشهادة : درابر وبريفولت ، وجوستاف لوبون فى العصر السابق ، وسارتون وهونكة وجارودى وبوكاى وغيرهم ، فى العصر الحديث ، وآخر كتاب فى هذا الشأن عنوانه : « شمس الله تشرق على الغرب » وكتاب « أوربا ولدت فى آسيا » .

اذن فلم يكن أستاذ الجيل — لطفى السيد صادقا ، ولم يكن عميد الأدب — (طه حسين) — أمينا حين نقلا الينا هذا المعنى ، ذلك أن المسلمين نقدوا أرسطو أولا ، ثم جاء الغربيون فنقدوه ورفضوه ، والتمسو منهج المسلمين ، الذى رفعهم الى ذروة التكنولوجيا الآن .

اذن فلماذا هذا التعارض ؟ يسأل عن هذا « الاستشراق » والاستعمار ذلك بأنهم ، على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : « نقلوا المسلمين الى أرسطو ، ونقلوا أنفسهم الى منهج المسلمين (جابر وابن الهيثم والبيرونى) ذلك أن أرسطو هو الذى سيضع المسلمين مرة أخرى داخل القوقعة المنطقية التأملية المظلمة « قوقعة المنطق الصورى » ويحرمهم من ثمرات منهج التجريب ، الذى سموه بلغتهم « براجماتيزم » والذى أنشأوه هم ونماه

الغرب • وهكذا نجد أن هذا المنطلق على يد طه حسين ، وجماعة من أتباعه ، يتسع ويمتد حتى يقرر : أن العرب خضعوا لمنهج اليونان وأرسطو فى القديم ، ولما كان الفكر الحديث هو ثمرة فكر اليونان ، فان تبعية المسلمين له لا تعد شيئا جديدا ولا غريبا ، لأنهم كانوا تابعين لليونان ، فلا عجب أن يتبعوا ما جدده أحفاد اليونان • لم يكن أستاذ الجيل صادقا اذن ؟ ولم يكن الدكتور طه حسين صادقا فى هذا ، فان المسلمين لم يقبلوا أرسطو ولم يعتنقوا فكر اليونان ، وانما العكس هو الصحيح ، ذلك أنهم قاوموه ونقدوه وأبانوا عن وجوه الخلاف العميق بينه وبين منطق القرآن ، لقد تصدى لهم كثيرون ، من أبرزهم الغزالى وابن تيمية •

واذا كان الخلاف ما زال واسعا حول ما كتبه الفارابى وابن سينا ، وهل هو فلسفة اسلامية ، أو متابعة للمشائين اليونان من المشائين المسلمين ، فان رجلا كريما قد ولى قسم الفلسفة فى كلية الآداب ، هو الامام الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق — شيخ الازهر الاسبق — قد فصل فى هذا الامر على نحو صحيح ، ومن خلال دراساته فى الجامعة نفسها ، وبالرغم من سيطرة طه حسين على عمادة كلية الاداب حين ذاك ، فان الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق ، أعلن فى حسم هذه القاعدة التى غيرت منهج البحث كله حين قال : « ان الفلسفة الاسلامية انما تلتمس فى كتب المتكلمين والفقهاء ، وان الامام الشافعى واضع أصول علم الفقه ، هو أول الفلاسفة فى الاسلام ، وان مقامه فى العربية ، هو بمثابة أرسطو فى اليونانية •

وبذلك نشأت « مدرسة الاصالة » ، فى مجال الفلسفة ، وامتدت من بعد واتسعت وكان من أتباعها الخضيرى ومحمد عبد الهادى أبو ريدة وعلى سامى النشار ، ومنذ ذلك الوقت صدر كتاب (تمهيد فى تاريخ الفلسفة الاسلامية) عام ١٩٤٧ ، وقد كان منهجه قد تقرر قبل ذاك بوقت طويل •

وقد تحررت الفلسفة من التبعية الغربية ، وبرزت مدرسة الاصالة فيها ، وهو ما يزال عسيرا أن يحدث مثله فى مجال الادب والنقد الادبى ، فان التبعية لمذاهب النقد الغربى الوافد ما زالت قوية •

ولقد أثبتت « مدرسة الاصالة » فى الفلسفة الاسلامية — (عبد الرازق أبو ريدة ، النشار) — ان المنطق الارسططاليسى : — منهج الحضـــارة والفكر اليونانى — لم يقبل فى المـــدارس العقلية الغربية ، وان المنهج التجريبى الاسلامى هو الذى عرفته أوربا — بعد قرون من مطلع حضارتها الحديثة — لمباينته للحضارة اليونانية . وان اكتشاف وجود هذا المنهج لدى المسلمين ، يفسر « روح الحضارة الاسلامية » ، فالحضارة الاســـلامية حضارة عملية تجريبية ، تتجه الى تحقيق الفعل الانسانى ، فى ضوء نظرية حية ملموسة كذلك .

وقـــد كشفت الابحاث المتعددة عن اضطراب خطير فى المراجع التى اعتمد عليها الفارابى — وباعتراف الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا — « ان الفكر الذى نقل الى المسلمين من اليونان والاغريق ، لم يكن صحيح الاصول بل كان صورة زائفة دخلت عليها مفاهيم السريانية والنساطرة المترجمين وعقائدهم ، وكانت تهدف الى خدمة المفاهيم الدينية المسيحية ، ومن هنا كان فسادها وعجزها عن أن تعطى الفكر الاسلامى شيئا .

ومن ناحية أخرى فقد تبين أن المقاومة للفلسفة الينانية — ومذهب أرسطو بالذات — قد بدأت منذ أن تمت الترجمة ، وأن المعارضة بدأت منذ اليوم الاول ، ذلك أن الفكر الاسلامى كان قد تم تشكيله قبل الترجمة . على أساس قيمه القرانية من التوحيد والاخلاق ، ومن الربط بين الوحى والعقل . لذلك فانه كان من العسير أن تنصهر فيه الفلسفة اليونانية أو ينصهر فيها ؛ خاصة وهى فلسفة مجتمع وثنى قام على العبودية واعلاء العقل وعبادة الجسد ؛ فضلا عن محاذير الترجمة من فساد وانتحال وتحريف النصوص . وان كانت طائفة من الفلاسفة أطلق عليها اسم المشـــائين المسلمين ، قاموا بمحاولة شاقة وعسيرة ، لادخال الفلسفة اليونانية فى اطار الاسلام ، ولكن المحاولة فشلت تماما .

وكانت وقفة الامام الغزالى فى وجه الفلسفة الالهية اليونانية وقفة صارمة ، ردت السهم الى نحور أصحابه ، فقد كشف الفرق بين الفلسفة الرياضية والفلسفة الطبيعية ، وبين الفلسفة الالهية ، ورفض الاخيرة لأنها تتعارض مع التوحيد الخالص قاعدة الاسلام ، وأعلن أن الكلام فى الطبيعيات برهانى ، أما فى الالهيات فهو تخمينى • وفى الفلسفة الالهية عارض الغزالى القضايا الكبرى الثلاث التى تقرها الفلسفة اليونانية ، وتختلف مع مفاهيم الاسلام •

ما يقولون به من قدم العالم ، وان الله (جل وعلا) لا يحيط علما بالجزئيات ، وانكارهم البعث ، وهاجم الفلاسفة الذين جحدوا الصانع ، وزعموا أن العالم قديم ، كالدهرية والزنادقة ، والذين قالوا أن النفس تموت ولا تعود ومن أنكروا الآخرة •

هذا وقد كشف الامام الغزالى بالنسبة للفارابى وابن سينا وجهة نظر أخرى ، حين عرفت روابطهم بالدعوات الباطنية الهدامة ، واخوان الصفا ، وغيرهم من الذين كانوا على اتصال بأعداء الدولة الاسلامية من قرامطة ومزدكية وغيرهم ، وفى كتبهم نصوص توحى بهذه الصلة •

آراء ابن تيمية

ثم جاء الامام ابن تيمية ، فاستحالت غربا ، فقد كشف كتابه : (الرد على المنطقيين) عن أن الفكر الاسلامى له منطق خاص ، مستمد من القرآن والسنة ، وقد استخرج منه قواعد هذا المنطق الجديد ، الذى أسماه : (المنطق الاسلامى) • وقال ان هذا المنطق كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية الغربية فى الحكم على الاشياء ، وفى الاستبصار والتأمل الفلسفى — المنطق التصورى — ورد على المنطقيين الذين استحكمت فى عقولهم آثار الفكر اليونانى وطوابعه ، وعزلها عن الاقتباس من فلسفة القرآن والحديث النبوى ومنطقهما ، ومما قاله : ان ما عند أئمة النظار من أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية ، فقد جاء القرآن بما فيها من الحق ، وما

هؤلاء • ويقول الدكتور النشار :
هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه ، منزها من الاغاليط الموجودة عند

كان ابن تيمية رائدا لكل الاتجاهات الحديثة فى نقد منطق أرسطو ، من ارجانون فرنسيس بيكون الى الفلسفة الوضعية • وقد عنى بنقد فلاسفة الاسلام كالفارابى وابن سينا وابن رشد ، وكل من وافقهم على التشيع لمنطق أرسطو ، وأشار الى عبث محاولتهم وعقم تجربة التلفيق عندهما (الفارابى وابن سينا) بين الاسلام والافلاطونية المحدثة ، ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الاسلام من الداخل •

ومما عرف فى هذا المجال — وهو كثير : كتاب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) بقلم محمد بن ابراهيم الوزير الحسنى اليمنى الصنعانى المتوفى ٨٤٠ هـ •

وبعد : فقد كان لابد لمدرسة الاصالة أن تواجه المدرسة التى ما تزال تعلى من شأن المدرسة اليونانية ، والتى تبلورت بعد فى مدرسة طه حسين ، بيومى مدكور حيث يقول مدكور : أن ارجانون أرسطو أثر فى مختلف المدارس ، كلامية وفقهية وعلمية وفلسفية ، بينما يقول الدكتور النشار : ان المنطق الارسطاليسى ، قد نقل الى العالم الاسلامى ، وأثر فقط فى المدرسة المشائية الاسلامية ، وبقيت المدارس الاخرى المنبثقة عن النظام الاسلامى بعيدة كل البعد عنه ، تحاربه وتجاهده ، وكانت قد وضعت منطقا مختلفا تمام الاختلاف فى روحه وجزئياته •

ان سيادة منطق أرسطو انما بدأت حينما تداعى الفكر الاسلامى فى القرن الخامس ، فاختلط بما يسمى ، علوم اليونان ، لكن ذلك لم يوافق دوائر الفقهاء الآخرين ، ولم يوافق متكلمى الاشاعرة من ناحية ومتكلمى السلف من ناحية أخرى ، على استخدام هذا المنطق فحاربوه أشد الحرب •

ويقول الدكتور النشار : ان محاولة الفارابى كانت غريبة عن روح

الاسلام وعن تفكيره وعن منهجه العام ، وان فلسفة الاسلام انما تنبثق من الاسلام نفسه : عن القرآن وعن السنة ، لا عن محاولة للتوفيق والتنسيق والتلفيق ، وان فلاسفة الاسلام المشائين قد ابتعدوا عن الاسلام روحا ونصا • وعن المجتمع الاسلامى فكرا وعقيدة وحياة ، وأن الفلسفة المشائية ماتت فى العالم الاسلامى منذ عهد بعيد •

ويقول الدكتور النشار : ان مدكور يرى فلسفة اليونان غاية الغايات وان اليها يعود كل فكر ، ويرى أن فكرنا الاسلامى المعاصر ينبغى أن يرتبط بفلسفة أوربا وحضارتها ، تحت تأثير الدعوة الخاطئة التى قدمتها مدرسة طه حسين ، على مسرح تفكيرنا ، والتى تقول أنه ما دام أسلافنا قد أخذوا بفلسفة اليونان ، وبما أن فلسفة أوربا وحضارتها هى امتداد لهذه الفلسفة فعلينا أن نأخذ من هذه المدرسة الاوربية كل شىء » أ • ه •

وهكذا تبين الرشد من الغى وسقط منهج الاستشراق •

آفــاق البحث

الموضــــــــوع		الصفحة